أحمد مولود الطيّار

يوميّات عربيّ في كندا

أبو عبدو البغل
https://facebook.com/groups/abuab/

يَومِيّات عَربيّ فِي كَندَا

أحمد مولود الطيّار

صحافيّ وكاتب سوريّ

كلّ البدَايـاتِ مُرهِقة، إلا بدايَـاتُ الحُبّ

الإهـــــــداء

إلى هڤال أحمد

الكُرديّ النبيل

شكر خاص

إلى حبيبتي رائدة الّتي عذّبتها كثيرًا... دقّقت وصحّحت كلّ هفواتي اللُّغويّة والمطبعيّة،

والصّديق العزيز معاذ الهويديّ الّذي ما بخل عليّ بآرائه.

مدخل

هل ما كتبته هنا ينتمي إلى أدب الرّحلات؟ لا أدري. أصدقكم القول، لا أعرف.

هل هو تجربة شخصيّة لعربيّ في كندا؟ نعم ولا. كيف؟

هي تجربة شخصيّة بالتّأكيد، لكنّها تتقاطع أحيانًا، وتتشابه مرات، وتلتحم أخرى مع مئات؛ وربّما آلاف القصص لعرب وغير عرب، مسرحها الأراضي الكنديّة، وعندما أقول (مسرحها الأراضي الكنديّة)؛ فلا يخفى لمتابعٍ كل ما في ذلك المسرح من ثقافات وأعراق وأجناس.

هنا يخرج ما أكتبه عن إطار التّجربة الشّخصيّة، لتعانق في دقائقها وتفاصيلها فضاءً عامّاً واسعًا ورحباً بقدر جغرافيا ومساحة كندا المصنّفة الثّانية على العالم.

منذ وصولي كندا، وبعد شهور ستّة أو سبعة، راودتني فكرة الكتابة عن تجربة كانت ولا تزال راهنة وحيّة ومفتوحة، وكنت كلّما أهمّ بها تتمنّع، فأؤجّلها، وإن كنت أُدوّن بعض الأفكار والملاحظات في دفتر صغير أكاد أحمله دائمًا معي كي لا تضيع، فالفكرة أشبه ما تكون بمراهقة في السّابعة عشرة تغويك ثمّ تتملص، من أجل ذلك كنت أحبسها بين دفتي ذاك الدّفتر الصّغير، أتركها وأبحر في خضّم الحياة في كندا، أعود إليها بين فترة وأخرى، أكتب وأسجّل وأمحي من جديد، أحاول أن أزيد من عمرها من السّابعة عشرة إلى العشرين. والآن تواجهني مباشرة، وتقول بكامل نضجها: لن أبقى داخل سجنك،

اعتقني وإلا... فربّما تناهى إلى سمعها ضجيج الثوار في الخارج، وأنّ (الشّعب يريد...).

أربعة شهور فقط بعد وصولي إلى ڤانكوڤر في كندا، وتندلع ثورات الرّبيع العربيّ. أربعة شهور حاولت فيها ونجحت ألا أفتح على أيّ قناة تلفزيونيّة عربيّة، أردتّ أن أمكّن لغتي الإنكليزيّة، على هدير صوت شباب تونس وفرار بن عليّ؛ باتت قنوات الجزيرة والعربيّة والـ بي بي سي، وأخريات يحتللن حيّزاً كبيراً من يومي.

فكرة الكتابة عن تجربة كندا المفتوحة كنت أودّ الحديث عنها قبل القدوم إليها، من بيروت تحديدًا، بيروت وسنتان كاملتان وفوقهما شهور أربعة حافلة بالكثير من التّجارب والقصص؛ لذا في (يوميّات عربيّ في كندا) مررت عبر بيروت، ومررت قبلها بمحطّات كثيرة صعبة ومتعرّجة، ولتكتمل الصّورة كان عليّ أن أعبر كلّ الطّرق والمحطّات قبل الوصول إلى كندا.

إنّما من الضّرورة الإشارة هنا في هذا المدخل أنّي وخلال إقامتي في بيروت؛ تردّدت عشرات المرّات إلى المفوّضيّة العامّة لشؤون اللّاجئين، في برد بيروت وحرّها الخانق، في مطرها، في صحوها وفي غيمها، حتّى جاء الفرج أخيراً: (أنت مقبول).

بيروت الّتي هربتُ إليها من سوريا بتاريخ ٢١-٥-٢٠٠٨، كلّي ثقة أنّ أحدًا لن يسأل: (ولمَ هربت).

أصبح عندي الآن ليس بندقيّة كما تقول أغنية شهيرة، إنّما وثيقة تقول إنّي"لاجئ"، وعلى السّلطات اللّبنانيّة أن تسهّل حرّيّة مروري وانتقالي. بعدها بشهور قليلة، وبعد زيارتين لمقرّ السّفارة الكنديّة في منطقة "جلّ الدّيب" وافقت الحكومة الكنديّة على منحي الإقامة على أراضيها، وحُدّد لي موعد السّفر.

هل تشعرون بما أكتب؟

عندما أسترجع تلك الذّكريات؛ أشعر بالاختناق، وأنا على بعد آلاف الكيلومترات عن سوريا. في بيروت كنت أشتاق دمشق، الآن في ڤانكوڤر أشتاق بيروت. أجلس الآن في مقهى وأكتب في كمبيوتري المحمول، أتناول القهوة، عقرب ساعتي يشير إلى الثّالثة وخمسين دقيقة عصرًا، أنتم الآن نيام، فالتّوقيت في ڤانكوڤر يتأخر حوالي ساعة عن سوريا والإمارات وبعض مناطق الشّرق الأوسط، التّاريخ هو الثّامن والعشرون من أيّار ٢٠١٣، وعلى الرّغم من أنّ الفصل صيفًا، لكنّ المطر لم يتوقّف ذلك اليوم، ولا اليوم الّذي سبقه. سأحدّثكم عن ڤانكوڤر في مكان آخر، ولنعد إلى بيروت الآن.

حُدّد موعد السّفر بتاريخ ٤-١٠-٢٠١٠، وقُبيله كانت هناك دورة مدّتها ثلاثة أيّام. في منطقة الحمرا في بيروت وفي مكان أنيق تحت المكان، ووفدت معي عائلة عراقيّة مؤلّفة من أمّ خمسينيّة وابنتيها، عمرهما بين العشرين والخامس والعشرين، وابنها وهو طفل صغير لا يتجاوز عمره الخامسة عشر، أثناء الأحاديث الّتي تخلّلتها الدّورة؛ عرفت أنّ أب هذه العائلة تمّ إعدامه خلال فترة الإعدامات الّتي أقدم عليها صدّام حسين بحقّ بعض التّجار العراقيين الّذين اتّهمهم باحتكار المواد والسّلع الغذائيّة آنذاك، خلال فترة الحصار الاقتصاديّ على العراق.

حضر أيضًا شابّ عراقيّ بمفرده لا يتجاوز الثّلاثين، وأيضًا فتاة نيجيريّة في العشرينيّات من عمرها، سيلتحق بها في مطار بيروت زوجها المسجون لدى السّلطات اللّبنانيّة. العائلة العراقيّة والشّابّ العراقيّ ستكون وجهتهم مدينة تورنتو في شرقيّ كندا، والنّيجيريّة وزوجها الّذي سيلتحق بها في المطار إلى مقاطعة سسكاتشون، وكنتُ الوحيد وجهتي إلى ڤانكوڤر غربي كندا.

"ريتا" فتاة كنديّة جميلة جدّاً من أصل لبنانيّ، هي ستكون مدرّستنا في الدّورة خلال أيّامها الثّلاثة. قلت لها مازحاً: (سألغي سفري إلى كندا لو جاء "النّصيب" هنا في لبنان، لكنّها للأسف متزوّجة، وأنا الآن في كندا).

ما هدف الدّورة؟

على مدى الأيّام الثّلاثة ومن السّاعة التّاسعة صباحًا حتّى الثّالثة ظهرًا كنّا نتعرّف على جغرافيا كندا وتاريخها القصير. يقول الكنديّون عن بلدهم: (Young country)، أي بلد فتيّ أو شابّ، تاريخه يبدأ منذ الثّورة الصّناعيّة الّتي بدأت أواخر القرن الثّامن عشر، لذلك لا يتحدّث الكنديّ كثيرًا عن التّاريخ التّليد والمجيد، ينظر إلى المستقبل، ويشعرك أنّه يقبض عليه.

كانت ريتّا تتحدّث وترفق شروحاتها بأفلام الفيديو والصّور، وكلّ وسائل الإيضاح. زرنا كندا كلّها عبر تلك الأفلام، تعرّفنا على جبالها وبحيراتها وأنهارها، زرنا مدنها كلّها وهجّأنا أسماء مقاطعاتها العشر، تعرّفنا على طقسها شتاءً وصيفًا، وعرفنا أنّ في ذلك البلد العملاق ستّ مناطق زمنيّة، عرفنا اقتصادها ونظام حكمها، شاهدنا أفلامًا وصورًا كثيرة، فيها الأشقر والأسود والأسمر، ولا فضل لبعضهم على بعض إلا باحترام القانون، ومعرفة الحقوق والواجبات.

خلال تلك الأيّام الثّلاثة زرنا كندا ونحن في بيروت. للأمانة كان الكنديّون كرماء معنا، كانوا يقدّمون لنا وجبتيّ الإفطار والغداء في موعديهما المقرّرين. ونهاية الدّورة التقطنا الصّورة التّذكاريّة بعد أن وزّعوا علينا شعارًا صغيرًا فيه العلم الكنديّ بلونيه الأبيض والأحمر، وضعناه إلى جانب القلب، وعلماً صغيرًا لكندا أيضًا رفعناه أعلى رؤوسنا، وكانت الصّورة.

يا لذاكرتي المثقوبة، كيف أفرّغ محتوياتك بلا ألم؟!

اعتقدتّ وأنا في خريف العمر أنّي سأرتاح في كندا؛ وإذ بي أبدأ من الصّفر، طفل يتعلّم كيف يكتب، وكيف يبدأ فكّ الحرف، كيف يبدأ حديثاً مع امرأة، نتأتئ أيّام المراهقة عندما نهمّ بالحديث إلى فتاة أحلامنا بسبب خجلنا وعقدنا وكمّ

الكبت الهائل الّذي دُرّبنا عليه من البيت إلى المدرسة إلى الشّارع، يد القمع والتّدجين كانت تسلّم وتستلم. في كندا نتأتئ كمراهقين صغار، لا بسبب خوف أو خجل، إنّما لأنّنا لا نجيد التّعبير، وقاموسنا الإنكليزيّ فقير ويخلو من كلّ التّعبيرات، وإن امتلكنا بعضها؛ فهي تخرج بشكل مضحك، وربّما تعطي معنى آخر. كلّ البدايات مرهقة، ربّما خلا بدايات الحبّ، تعالوا معي آخذكم من البدايات.

بيروت – فرانكفورت – فانكوفر

وقع قلبي في بيروت، صعدت الطّائرة بلا روحي، أجرّ قدماي بتثاقل فظيع. لا أيادٍ تلوّح لي، ولا دموع يكفكفها أحد.

قبيل السّفر بيومين؛ وفي "سكايز"مؤسّسة الشّهيد سمير قصير – مكان عملي - قالت لي مايا اللّطيفة: (اذهب لا أحبّ الوداع. وعند الباب التفتّ ورائي لمحتها تلملم دمعة ربّما ستخونها. هي ربّما الدّمعة الوحيدة الّتي كدت أراها بأمّ عيني).

ودّعت أغلبيّة الأحبّة عبر الهاتف، انتهى أكثرها بحشرجات غير مفهومة. غريبة هي المسافات، أغلبيّة من ودّعتهم من السّوريّين مضى على آخر لقاء لي بهم سنتان ونصف السّنة، وبعضهم لم أره مطلقاً، جمعني بهم الـ "فيس بوك" والهاتف، لكن شعر كلانا بشيء ما، غامضٍ لا تفسير له. هل هي كندا الّتي تنتمي إلى العالم الآخر، أم أنّ بيروت قريبة وإن عزّ اللّقاء؟

بيروت - على الرّغم من تضاؤل الجغرافيا هنا - هي أيضاً كانت بعيدة. لن يتغيّر أيّ شيء، سيبقى الهاتف ويبقى الإنترنتّ وسيلتا تواصلنا، لكن لماذا هذا الشّعور بالفقد!؟ ربّما كما قالت إحدى الصّديقات: (إنّه أجّل عودتنا)، والمقصود العودة إلى سوريا. ربّما هو الشّعور بأنّ "سوريّانا" تتسلّل من بين أصابعنا

كحبّات الرّمل، أو ربّما أنّ موعدنا قد تأجّل، واللّقاء مع من نحب غدًا في عالم الغيب.

من بيروت إلى فرانكفورت في ألمانيا ثلاث ساعات وعشر دقائق، كنت كمن يجلس في عزاء شخص حبيب، لم أستطع أكل شيء، ولا شرب أيّ شيء، وشعور بالمرارة كان في حلقي ويقبض عليّ. في استراحة الأربع ساعات في مطار فرانكفورت بدأ التّغيير يفرض ذاته، وأوّل ضحاياه كان فنجان القهوة الصّباحيّ الّذي كان يترافق مع سجائر ثلاث أو أربع، أدمنت هذه العادة في بيروت، إذ أنّي لم أدخّن في سوريا مطلقًا، نادلة الكافتيريا في استراحة المطار كشّرت في وجهي عندما قلت لها: (قهوة تركيّة لو سمحتي)، فصوّبت لي طلبي: (قهوة ألمانيّة).

شعرت وقتها أنّي ارتكبت هفوة كبيرة، معتقدًا أنّي جالس في أحد مقاهي بيروت الّتي ترطن بكلّ اللّغات، ونسيت أنّي في حضرة الإباء الألمانيّ الّذي لا يحدّث الأمريكان إلا الألمانيّة، حتّى وإن لم يفهموها.

كانت ساعات فرانكفورت الأربع طويلة، أمضيت ثلثها متمدّداً على أحد المقاعد بين مستيقظ ونائم، وفي قسم منها القراءة من كتاب كنت أحمله معي لتعليم اللّغة الإنكليزيّة، وفي قسم لا يستهان به أمضيته متلصّصاً على شابّ سعوديّ وفتاة سعوديةّ محجّبة، إذ عرفت ذلك فيما بعد لأنّهما توجّها إلى ڤانكوڤر معي على ذات الطّائرة، جلسا في ركن قصيّ من الاستراحة، ووضعا بينهما وبين الآخرين حمّالة نقل الأمتعة، وقد وضعا عليها أمتعتهما، فغدت حاجزًا منيعًا ليمارسا حرّيتهما الّتي افتقداها في بلدهما. كانا يُطعمان بعضهما، ويتغامزان ويتراقصان بكلّ فرح، ثمّ رأيتها تغفو فيما بعد على صدره. قلت في سرّي بخبث: (أين هيئة الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر؟).

من فرانكفورت إلى ڤانكوڤر كانت رحلة مرهقة ومرعبة بكلّ معنى الكلمة، فأن تطير على مدار قارّة شبه كاملة، وفوق محيط مدّة أربع عشرة ساعة ذلك ما

لم يحتمله عقلي، أنا الّذي لا أستطيع الجلوس ساعة واحدة في مكان واحد، كيف لي أن أجلس بين أربعة أشخاص كلّ تلك المدّة، لا يفهمون عليّ ولا أفهم عليهم، حيث حظّي العاثر وضعني في المقاعد الأربعة الّتي في المنتصف، وأيضًا إلى المقعد الثّاني في المنتصف، إلى يميني كنديّ من أصل هنديّ، وإلى يساري شابّ بريطانيّ تليه صديقته.

كانت الطّائرة ومن خلال سحنات ووجوه ركّابها ولكناتهم صورة مصغّرة عن كندا الّتي نتوجّه إليها، الوجوه الصّفراء والعيون والحدقات الضيّقة كانت هي الأكثر، والقليل من ذوي الشّعر والعيون السّود والقامة المربوعة، وكذلك أصحاب العيون الزّرق والشّعر الأشقر، طوال القامة.

ثقافات كثيرة، وألبسة متنوّعة، وألسن تترجم كلّ اللّغات؛ كلّها كانت تتجه واتّجهت حيث دولة تصنّف الآن في عداد الدّول الثّمان المتقدّمة في العالم.

من مطار ڤانكوڤر، المدينة الّتي انتُخبت لسنوات من العقد الماضي والحاليّ أجمل مدينة للعيش في العالم؛ قادني مستقبلي مندوب وزارة الهجرة والجنسيّة الكنديّة إلى بناء في مركز المدينة اسمه "بيت الضّيافة"، أطلقتُ عليه في ثاني يوم من وصولي "بيت المقهورين"، أو "بيت العالم الثّالث"، حيث كلّ نزلائه من الصّومال وأريتريا والسّودان والعراق وإيران والحبشة، أصرّ محدّثي الأثيوبيّ على الحبشة رافضًا اسم أثيوبيا - وكنت السّوريّ الوحيد.

جمعت من قصصهم نتفًا لا يعتدّ بها، إنّما القاسم بينها الحروب والجوع والخوف والقمع والاعتقال، وبلاد لم تتعرّف بعد إلى كلمة "مستقبل"

القسم الأوّل

الطّريق إلى كندا

لم تكن وجهتي كندا، لم أخترها بإرادتي، لم أكن أحبها أو أكرهها، لم أرسم قدري، هي الأقدار من قذف بي هنا. مرّ الطّريق إلى كندا بمحطّات كثيرة صعبة ومتعرّجة: الرّقّة بيروت، ثمّ بيروت الرّقّة، الرّقّة الكويت، الكويت الرّقّة، الرّقّة بيروت ثانيةً، أخيرًا بيروت ڤانكوڤر.

الفصل الأول

أمّي الّتي قتلتها

توفيّت خلال عام ٢٠٠٤ عدتّ إلى البيت ظهيرة يوم حارّ من دوامي في مديريّة تربية الرّقّة، كنت قد مررت بمحلّ لبيع الفرّوج الجّاهز، اشتريت واحدًا، وبعض الخيار والبندورة، فتحت باب البيت، لم أجد أمّي تستقبلني كما اعتدتّ كلّ يوم ببشاشة ومرح، ناديتها، لم أسمع ردّاً، اعتقدتّ أنّها في بيت أختي في الحارة المجاورة، بعد دقائق غيّرت ثيابي وارتديت البيجاما، سمعت أنيناً خافتاً صادرًا من الحمّام، قفزت كالملسوع، كانت نصف عارية مرميّة في أرضيّة الحمّام، وقد انعقد لسانها.

جلطة دماغيّة كانت قد ضربتها وتركتها نصف مشلولة مدّة أربعة شهور.

كانت أمّي تردّد دائماً: (من ترك داره قلّ مقداره). أربع سنوات مذ تركت دارها في حيّ سيف الدّولة، تركت كلّ ذكرياتها وجيرانها، صويحابتها من هنّ في سنّها، تركت حيّاً شعبياً تعرف كلّ فرد فيه، تركت كلّ ذكريات بيت ضمّها مع والدي الّذي رحل باكراً عنّا، تجلس عصراً على رصيف البيت كما عادة الأحياء الشّعبيّة في الرّقّة، بعد أن يكنسن المكان – الشّارع، تجلس عجائز الحيّ يثرثرن بكلّ شيء، تركت كلّ هذا الصّخب وكلّ تلك الحياة النّابضة، وأُرغمت على العيش في حيّ الثّكنة الّذي يعتبر من "الأحياء الرّاقية"، كنت حريصًا أن أعوّضها بيت طفولتنا الّذي أضاعته حماقاتي، لكنّي فشلت.

كشجرة معمّرة انتُزِعَت من تربتها. ماتت وهي كاظمة غيظها، ابتلعت كلّ شيء بصمت، وماتت بصمت. عاشت غريبة في حيّ لم تألف عيشه، كانت

تذهب إلى حيّنا القديم، تذهب أحياناً وتعود ولا تلتقي أحدًا، تركب باص النّقل الدّاخليّ الّذي يمرّ من هناك، تُلقي نظرةً من خلال نوافذه وتُكمل طريقها. لم تشعرني أبداً أنّي أضعت ملكًا لم أعرف كيف أحافظ عليه. كان حوشاً عربيّاً "تسرح فيه الخيل"، تظلّله السّماء، تداعبه الشّمس، وتتمطّى به الرّيح، غادرت كلّ هذا لتعيش في شقّة تشبه علبة كبريت ضاقت عليها، لم يحتمل دماغها فانفجر، وتركت لي وخز الضّمير. هل سيكون مصيري كمصير أمّي؟!

العطر الّذي ضيّعني

كنت أمام خيارين لا ثالث لهما: أن أهدر سمعتي وكرامتي ويصبح اسمي الجديد أحمد النّصاب، أو أن أشتري هذه السّمعة.

عندما افتتحت محلّي لتركيب العطورات عام ١٩٩١ في شارع المنصور التّجاريّ، كنت خائفاً، فلا عهد لي بالتّجارة، أنا الّذي لم يحفظ أبداً جدول الضرب رغم تخرّجي من كلّيّة التّجارة والاقتصاد بعد جهد. كنت أكره الرّياضيات والتّجارة والتّجار، وأميل نحو الشّعر والأدب والسّياسة وفيروز ومارسيل خليفة والشّيخ إمام، وكلّ رومانسيّات اليسار البائد. كيف سأصبح تاجراً أملك محلاً، أبيع وأشتري وأغشّ وأقسم الأيمان الغلاظ؟

أنهيت خدمتي العسكريّة الإلزاميّة في "جيش أبو شحّاطة"، وأبليت بلاء حسناً عندما كنت في صفوفه أيّام احتلال لبنان أواخر عام ١٩٩٠ لم أكن قد خبرت مسؤوليّات الحياة جيّداً، ولم أكن وأبناء جيلي في سنّ من ضغطتهم الحياة كثيرًا. كنّا حالمين رومانسيّين نريد تغيير العالم. بعد التّخرج وإنهاء الخدمة العسكريّة الإلزاميّة، وجدت ذاتي - كما أبناء جيلي - أمام مفترق طرق، الذهاب في أيّ منها هو مغامرة محفوفة بالمخاطر. كان الأفق في سوريا غير واضح المعالم، فالكثير من رفاقي وأصدقائي الشّخصيّين كانت السّجون قد ابتلعتهم،

ولا أعرف ربّما أكون التّالي، لا ضمان للحياة، المؤكّد أنّ الأمّ أو الزّوج أو العائلة قد تثكل أي امرئ منها في لحظة طائشة من تاريخ "سوريا الأسد"

رأسمالي كان خمسين ألف ليرة سوريّة، لم أكن أملك منها قرشًا واحدًا. مصارف التّسليف الشّعبيّ الّتي كانت تنتشر في سوريا مهمّتها إقراض ذوي الدّخل المحدود من موظّفين ومعلّمين. كان سقف القرض أو المبلغ الممنوح آنذاك خمسة وعشرين ألف ليرة سوريّة يتمّ تسديدها بشكل أقساط شهريّة مضافة إليها الفوائد المحتسبة، كلّ قسط يبلغ ألف ليرة. استطعت الحصول على قرض باسمي لأنّي كنت موظّفًا في مديريّة تربية الرّقّة قبل التحاقي بخدمة الجيش وتسريحي منه. قرض آخر استطعت الحصول عليه باسم أحد الأصدقاء، وانطلق مشروع "بيع وتركيب العطورات الفرنسيّة"

"صناعة وتركيب أفخر وأجود أنواع العطورات الفرنسيّة والسّويسريّة"، هذه الجملة كانت تتموضع تحت اسم المحلّ "أريج". بدأ الكذب من هذه الجملة. الكذبة الثّانية: كنّا نُجيب زبائننا أنا وأختي خولة الّتي كانت تغطّي جزءاً من ساعات العمل، وشريكي الّذي لا أعرف لماذا اخترته وهو صديق حميم ومقرّب استمرّ معي شهورًا، ربّما كنت أريد من يتحمّل معي المسؤوليّة، أو ربّما مشاركتي خسائري قبل أرباحي بسبب الخوف من مغامرة تجاريّة محفوفة بالمخاطر لشخص غضّ هو أنا، لن تقوم له قائمة لو خسر وذهب المشروع أدراج الرّياح، كنّا نُجيب زبائننا: (نعم). عندما يسألوننا: (وهل تمتلكون مخابر وكيمياء فوق) مشيرين بأياديهم نحو سقيفة المحلّ، فنهزّ رؤوسنا بثقة ورضا، رغم أنّ عمليّة تركيب العطور شعوذة لا تحتاج إلا لخلط مكوّنات ثلاث: الكحول المخصّص للعطر، وقليل من الماء المقطّر الّذي كنّا نحصل عليه من المشفى الوطنيّ مجّاناً، و"أسنص" العطر الّذي يختاره الزّبون. بعد سنوات أصبحت هذه الصّنعة مكشوفة، وتبهدلت أيّما بهدلة، فأصبحت معروضة في البَسطات على الأرصفة، وعند الحلاّقين، و"شغلة اللّي ماله شغلة"

كان محلّي هو الثّاني في المدينة بعد محلّ "الرّيم" للصّديق الأديب القاصّ ماجد العويّد. وأدين أيضاً للصّديق الرّاحل حسن الرّفيع تعلّمي بعض شعوذة تركيب العطور، عندما فتح محلاً لفترة قصيرة ثمّ أغلقه، كان - رحمه الله - لا يثبت في مكان، وكان المثل الشّعبيّ (كثير الگمز قليل الصيد) ينطبق عليه.

توالت فيما بعد محال تركيب العطور، وقد استقطبت تلك الصّنعة الرومانسيّة من يشتغل في الثّقافة والسّياسة، كان مصطفى الحاج صالح قد خرج حديثاً من معتقله، ولست متأكّداً إن فتح محلاً خاصّاً به أم تابع في محلّ شقيقه صالح.

مصطفى بتعابيره الجادة ووجهه الّذي (لا يضحك للرّغيف السّخن) كما يقول الحلبيّون؛ كان يجلس السّاعات الطّوال في المحلّ، ولا أدري هل الغرض كان البيع أم كتابة روايته الّتي لا أعرف إن انتهى منها، إنّما قطعاً كان مصطفى يتململ عندما يدخل زبون يريد الشّراء، لأنّه قطع سلسلة أفكاره، وأطاح بكلّ علامات التّرقيم الّتي كان ينضّدها لرواية تقول كلّ الروايّات الخبيثة: إنّها لم تنجز بعد!

نجح محلّي نجاحاً كبيراً، وأصبح اسم "أريج" علامة تجاريّة فارقة. أردتّ التّوسّع وفتح محل آخر، كان شارع ٢٣ شباط قد أصبح "سنتر" المدينة، استأجرت محلاً هناك، وباشرت العمل فيه، تضايق جداً مصطفى الحاج صالح، كما باح لي، فمحلّي الجديد لا يبعد عنه إلا مائتي متر، وسوف يسرق كثيراً من زبائنه، إضافة إلى ذلك، موقعه الممتاز وواجهته المطلّة على الشّارع، في حين يقع محلّه داخل "عبّارة" لا يُستدّل إليه إلاّ من يقصده. فيما بعد قال لي: (توجّست عندما سمعت أنّ أحدهم يريد افتتاح محلّ على مقربة من محلّي، وعندما عرفت أنّه أنت لم أنزعج، لأنّي أعرف بنيتك الأخلاقيّة).

لم تكن العطور ومشاغل العمل تحضر في أحاديثنا عندما نلتقي ماجد ومصطفى وأنا، فالمهنة لم تكن إلا من أجل استمراريّة عيشنا، في حين كانت

طموحاتنا أكبر من ذلك؛ لذا لم يضع أيّ منّا اسمه في اللافتة الّتي تتصدّر المحلّ، و"رواية" مصطفى و"قصّة" ماجد و"السّياسة" الّتي شغلتني؛ أودت بنا نحن الثّلاثة ومعنا كثيرون إلى فشل ذريع. فقد أصبح مصطفى في هولندا لاجئاً، وماجد ضاقت بقصّته الرّقّة، وتركيّا تحتضنه الآن، فيما قذفت بي الأحداث إلى هنا، كندا.

السّياسة فنّ وتدبير وإدارة. فشلت في إدارة محلّين صغيرين، تركتهما تحت إدارة عمّال كنت أعطيهم من ١٢ إلى ١٥ % نسبة من المبيعات. كان تدبيرًا جيّداً يحفّزهم ويجعلهم يجدّون في العمل، فأيّ زيادة في المبيعات تنعكس عليهم زيادة في الأجر. كثيرٌ منهم تركني وفتح محلاًّ خاصّاً به، وهذا شيء طبيعيّ، وهكذا هي سنن الكون والحياة. قبل هذا بكثير، وفي ذروة النّجاح، ظهر المرابون الّذين يعيشون كالعلق ليمتصّوا دماء النّاس، بين فترة وأخرى كان يأتيني أحدهم عارضاً: أحمد لديّ خمسون ألف ليرة سوريّة أوّد تشغيلها في محلّك. أحمد لديّ مائة ألف ليرة سوريّة ما رأيك أن تضعها في المحلّ وتعطيني نسبة من الأرباح؟

سوريا آنذاك كانت وربّما في كلّ فترة حكم الأسد؛ ينطبق عليها قول تجّار دمشق وحلب الشّهيرين (ما في لا بيع ولا شرا)، كناية عن الرّكود الاقتصاديّ الّذي يهيمن على البلد، وإن وجدت فيها استثمارات فهي طفيليّة لا تخلق سوقاً ولا إنتاجاً. ازدهرت فيها فقط بضعة مشاريع سياحيّة في مناطق ومدن معيّنة، النّاظر إليها من بعيد تعطيه صورة واضحة عن ازدواجيّة اقتصادها وهياكلها، ففنادقها ذات الخمس نجوم ومنتجعاتها السّياحيّة كانت تنمو وتزدهر وتشعر المرء أنّه في بلد متقدّم وحضاريّ، وغير بعيد عنها كانت مدن تنك كاملة تكبر وتتوسّع، ومعها تهرب كلّ الثّروة الوطنيّة إلى جيوب ٥% من مجمل عدد سكّان سوريا، أغنياء يزيدون غنى، وفقراء ينضمّ إليهم وافدون جدد، حتّى غدا السّوريّون طبقتين فقط: فقراء جدّاً، وأغنياء جدّاً.

محلاَّي الصّغيران المتواضعان يمكن أخذهما كمقطع عرضي عن كيفيّة الاستثمار، وأين ذهبت مدّخرات النّاس الّتي هي في الأصل قليلة. فقد عرفت سوريا آنذاك فضائح بالجملة عن أشخاص بأسماء صحيحة وأسماء مزوّرة، وعن شركات حقيقيّة ووهميّة لا وجود لها؛ ابتلعت مدّخرات كثير من الأفراد والعائلات، وتركتهم عرضة للتّشرد وضياع جهد سنوات وسنوات.

القرار الصّعب

عام ١٩٩٨ وصل مجموع المبالغ الّتي كنت أشغّلها في المحلّين إلى ٨٥٠٠٠٠ ثمانمائة وخمسون ألف ليرة سوريّة بالتّمام والكمال. كان أصحاب هذه المبالغ يبتلعون كلّ أرباح المحلّ تقريباً، ولا يبق لي إلا النّزر اليسير. وصلت إلى الجدار، تعبت، باتت لياليّ لا تطاق. (المطعون ينام واللّي عليه دين ما ينام)، أصبحت وسادتي قطعة من نار، ماذا أفعل؟ هل أقول لدائنيّ اذهبوا وبلّطوا البحر فقد خسرت، وأنتم لم تعطوني أموالكم لسواد عيناي، أعطيتموني إيّاها لطمعكم وشرهكم وحبّكم للمال، وحاليّاً أفلست، والحياة متوقّفة، لا بيع ولا شراء، وصنعتي تبهدلت، والنّاس لا تجد خبزاً لتشتري، فكيف تشتري عطراً؟! لكنّ نصف هذا الكلام غير مقتنع به، فالنّاس وثقت بي، ولا ذنب لها أنّ جزءاً من عسري أتحمّله بسبب سوء إدارتي وتبذيري.

- إنّما هم يجب أن يتحملوا أيضاً جزءاً من الخسارة؟

- هم لم يحاسبوني على أيّ شيء، ولم يفتّشوا دفاتري، وأنا المسؤول.

- هل يستطيعون إدانتك قانونياً؟ هل وثّقتم أيّ شيء في المحكمة؟ هل رهنت لهم أيّ شيء؟

- لا. كلّه على الثّقة.

- ليذهبوا إذن إلى الجحيم.

وأين تنظيرك عن الأخلاق والثّقة وحسن السّيرة والسّلوك؟

- كم أخذوا منك أرباحاً على مدى السّنوات الماضية؟

- ربّما أكثر من مبالغهم المدّخرة لديّ.

مونولوج وصراع داخلي أرهقني، عيناي غدتا تائهتين، ووجهي كأنّه قادم من كهف عميق.

وكان القرار عام ٢٠٠٠: أعلن استسلامي. لديّ هذا البيت، سأبيعه وأسدّد لكم.

كالجيفة الّتي تريد أن تتناهشها النّسور تجمّعوا حولي. قال صاحب الكتلة الماليّة الأكبر: أنا أشتريه. قُدّر البيت بمليون وخمسين ألفاً. بقي لي مائتي ألف، ومن مالك بيت كبير تمّ احتلاله، أصبحت مستأجراً. وبدأ مسلسل الوسادات.

الهروب إلى لبنان أواخر ٢٠٠٢

قلت لفهمي يوسف أبو زيّاد مسؤول منظّمة حزب الشّعب – المكتب السّياسيّ سابقاً - في المنطقة الشّرقيّة، وكان في زيارة إلى الرّقّة لتفقّد منظّمتها: (حماس وأغلب التّنظيمات الإسلاميّة والجهاديّة تقدم انتحاريّين بالمعنى الجسديّ، اعتقاداً منها أنّ ذلك يخدم القضيّة الّتي تتبناها وتدافع عنها، ما رأيك لو قدّمنا نحن - كحزب يساريّ يؤمن باللّاعنف والنّضال السّلميّ - انتحاريّين بالمعنى السّلميّ والرّمزيّ، وشخصيّاً مستعدّ لهذا الأمر؟).

بُعيد استلام بشّار الأسد مقاليد السّلطة خلفاً لأبيه؛ كانت فكرتي وضع شعاراته الّتي كنّا نعرف أنّها كاذبة على المحكّ، وإحراجه في كلّ ما يطرح. أيضاً - وهو الهدف الأهمّ - أن نتقدّم بوسائل نضالنا ونخرج من الدّائرة النخبويّة الضيّقة الّتي حاصرنا بها النّظام، ويسمع الشّارع السّوريّ أنّ هناك معارضة منه وله، ولا يجوز الرّكون والتعلّل بأنّ النّظام قمعيّ وديكتاتوريّ وما إلى ذلك

من توصيفات، نحن أيضاً كقوى معارضة نتحمّل مسؤوليّة كبيرة في عزوف الشّارع عن السّياسة والشّأن العامّ.

فشلت في إقناع الحزب بتبنّي مبادرتي، لا بل حاولوا بشتّى الطّرق ثنيي عنها. صحيح أنّ الكثير من أفراد الحزب تعاطفوا معي وساندوني كموقف شخصيّ ينطلق من عاطفة أكثر منها عقلاً، لكنّ بعضهم اتّهمني بالمراهقة السّياسيّة والشّعبويّة والاستعراض، وذهب البعض منهم إلى حدّ المطالبة بفصلي من الحزب، حسب ما أسرّ لي معاذ الهويدي الّذي أصبح على رأس منظّمة الحزب في الرّقّة، والمقرّب جدّاً من جورج صبرا. وبرأيي في هكذا مبادرات شخصيّة ناقِش الكلّ وأرجِع القرار لك شخصيّاً. وهذا ما كان.

قراءتي السّياسيّة كانت صحيحة. قلت لكلّ الرّفاق والأصدقاء والمقرّبين: (إنّ تسعيرتها إن حدثت لا تتجاوز الاعتقال سنة واحدة، هناك رفاق وأصدقاء أمضوا عشر سنوات، وخمس عشرة سنة في المعتقل لمجرّد توزيعهم نشرة حزبيّة سريّة).

على الحدود السوريّة اللّبنانيّة اعتقلت. كنت أستخدم بطاقة هويّة أخي الّذي كان مقيماً في اليونان منذ ١٧ عاماً، ١٨ يوماً فقط هي كلّ المدّة أو التّسعيرة الّتي كانت أقلّ كثيراً من توقّعاتي.

من فرع المخابرات السّياسيّة في حمص، إلى سجن تلكلخ الحدوديّ، إلى سجن حمص المركزيّ، ثمّ تسليمي"موجوداً" إلى فرع الأمن الجنائيّ بالرّقّة، ومن ثمّ محاكمتي طليقاً أمام القضاء في الرّقّة، نتيجة دعوات كثيرة رفعت ضدّي من رؤوساء دوائر حكوميّة بتهمة "تحقيرهم والتّشهير بهم"، كذلك من محافظ الرّقّة بتهمة خرق قانون المطبوعات وإصدار صحيفة من دون ترخيص.

يمكن القول بصدد هذه التّجربة إنّ (أحوال الرّقّة) النّشرة المحلّيّة الّتي أصدرتُ منها عددين، وطُبعت ووزّعت منها - دون مبالغة - مئات النّسخ من

قبل كثير أشخاص لا أعرفهم؛ كانت تجربة ناجحة، عرّيت عبرها وفضحت كثيراً من الفاسدين في الرّقّة بأسمائهم الصّريحة، ولقيت صدىً كبيراً لدى أهالي الرّقّة، وأربكت أجهزة الأمن و"القيادة السّياسيّة" الممثّلة بفرع حزب البعث، والّتي كانت تطالب باعتقالي، وقد هدّدني بسببها أمين الفرع عيسى الخليل شخصيّاً، لا بل قام بأكثر من هذا عندما استدعاني إلى مكتبه وقام بمسرحيّة قذرة أراد منها إيقافي عن إصدار العدد الثّالث. أراني إصداراً مفبركاً من النّشرة لم أشكّ لحظة أنّه وراءها، والإصدار يشهّر بشخصيّات معروفة بالرّقّة رسميّاً وعشائريّاً، ناسباً كلّ ذلك إليّ، وقال لي جملته الأخيرة عندما ودّعني عند باب مكتبه مهدّداً: (غداً ربّما يصدر عدد جديد يحمل اسمك، وفيه سبّ وشتم على سيادة الرّئيس، عندها لا تلوم إلا نفسك).

رؤساء أجهزة المخابرات في الرّقّة لم يوفّروني من استدعاءاتهم المتكرّرة، كانوا يعتقدون أن لديّ من الإثباتات والأدلّة ما يحرج موكّليهم الفاسدين، أيضاً كانوا يتوجّسون من مسألة أخرى أذكرها لاحقاً. النّقيب في فرع أمن الدّولة المدعو حسين قال لي: (ماذا تملك من أدلّة ضدّهم، أعطنا إياها ونحن سنتصرّف).

العقيد تيسير في فرع الأمن السّياسيّ الّذي اغتيل أثناء "تحرير الرّقّة" كان أكثرهم فهماً ودبلوماسيّة، ويمتلك قفّازاً حريريّاً؛ قال لي: (طلب منّا فرع الحزب - أي حزب البعث - اعتقالك، وأجبتهم شخصيّاً إنّنا لسنا معنيين بالدّفاع عن فاسدين، هناك "قضاء عادل" وهو الّذي سيقول كلمته).

أكثر المواقف طرافة كانت في فرع الأمن الجنائيّ، فالملازم مصعب الّذي تولّى التّحقيق معي - قيل إنّ بعض الثّوار أنقذوه من القتل أثناء "تحرير الرّقّة" – قال لي: (تعرف لو أردتّ محاسبتك لحاسبتك على شيء واحد فقط هو....)، توقّف برهة ثمّ تابع: (لا يهمنّي كلّ الفاسدين الّذين أشرت إليهم بالاسم، إنّما كيف تتجرّأ في جريدتك أن تذكر اسم الرّئيس حافظ الأسد هكذا حاف). أمسكني

- وهو أطول منّي كثيراً - وعصرني بيديه حتّى شعرت أنّ عظامي تتحطّم؟! وأضاف: (حافظ الأسد رئيس خالد ومعلّم يا حيوان).

كلّ تلك الاستدعاءات إلى فروع الأمن وأمين فرع الحزب تمّت بعد شهر من صدور العدد الأوّل. شهر كامل أتبتخر في شوارع الرّقّة، أتابع كلّ ردود الفعل لزلزال صغير أحدثته نشرة متواضعة. قال مثقفون عاجيّون إنّي استخدمت (لغة شعبويّة)، لا يهمّ لأنّي أردتّ الوصول إلى كلّ النّاس البسطاء بلغة لا أملك غيرها.

توجّس فروع الأمن، وكلّ القيادة السّياسيّة في المحافظة زال؛ كيف ذلك؟

الاعتبار الأوّل الّذي جعلني حرّاً وطليقاً في الشّهر الأوّل وهو المهمّ: الأجهزة الأمنيّة احتارت بكيفيّة التّعامل معي، فما أقدمت عليه بنظرها يندرج تحت بندين لا ثالث لهما. وقد عبّر لي عنه كثيرون، ولا أدلّ من قول صديقي حسن البدّاغ الّذي كنّا نلقّبه بالمختار نتيجة تشعّب وكثرة علاقاته، ولسانه الّذي كان يذرب حلاوة، وحسن حديثه، قال لي: (هناك من يقول إنّك مسنود من القصر) يقصد القصر الرّئاسيّ، وبلغته التهكميّة تابع: (والسّيّد الرّئيس يريد اجتثاث الفاسدين، وأنت من كُلّفت لرمي هذه القنبلة). ما عزز لديّ هذه القناعة، وتصديق كثير من النّاس هكذا إشاعة؛ هو أنّ بشّار الأسد جاء بشعارات كبيرة وكبيرة جداً، وكان الكثير من النّاس مستبشرين به خيراً. والاعتبار الثّاني: (الطّيش والمغامرة)، وهذا تعرف، تلك الأجهزة الأمنية ، كيف تتعامل معه، فلا يوجد مغامرون في سوريا الأسد الّتي تعرف كيف تعلّمني الأدب والطّاعة.

كان محلّي لتركيب العطورات ومكان عملي في مديريّة التّربية يغصّان ليس بالمراجعين أو المشترين، بل بأناس من منابت ومشارب مختلفة، وكلّ لديه قصّة ويقدّم عليها الإثبات، عن مشكلة هنا، وفساد عامّ أو خاصّ هناك، وينتظر منّي نشراً أو حلاً أو مساعدة.

محمّد حسين الهلال العضو السابق في قيادة فرع حزب البعث جاءني في مكتبي في مديريّة التّربية، يحمل وثائق تدين مسؤولين فاسدين، ويجب حسب رأيه الاقتصاص منهم وزجّهم في السّجن، وموجه اللّغة العربيّة أحمد جندو الّذي كان مكتبه إلى جانب مكتبي في المديريّة، المرشّح الدّائم لتولّي مديريّة التّربية والّذي لم يصل إلى المنصب مطلقاً؛ كان يجلس معي ساعات طوال يشكو لي الظّلم الّذي لحق به و(أنّ الشّريف لا مكان له) على حدّ تعبيره. قصص كثيرة عن فساد لو قدّر لي نشرها لكانت تحتاج إلى صحيفة محترفة ومتخصّصة.

إنّما هنا، شعرت بمشكلة وجرج نرجسيّ آلمني كثيراً. فهل كلّ ما قمت به سيصنّفني ويربطني بمشروع "التّطوير والتّحديث" الخادع الّذي ثرثر به بشّار الأسد؟! وهل كلّ ما قمت به لا يعدو أن يصنّفني كمخبر صغير لدى عصابة ارتهنت البلد؟!

أصدرت العدد الثّاني من (أحوال الرقة)، كانت لغته تشبه لغة نشرات حزبنا السّريّ، وفيه أردّ الفساد إلى جذره الأساس، وهو سياسيّ بالدّرجة الأولى، حاولت فيه بيان أنّ الفساد في سوريا ليس أخطاء بشريّة كما يريد أن يصوّرها النّظام، إنّما آليّة ونهج، وسياسة رسميّة غايتها إفساد كلّ شيء، وأنّ أسّ الفساد موجود في الدّستور السّوريّ ومادّته الثّامنة الشّهيرة التي تقسم السّوريّين إلى أبناء ستٍّ وأبناء جاريّة، والولاء يتقدّم على الكفاءة، وكذا... وكذا.

مع صدور العدد االثّاني كانت الأجهزة الأمنيّة قد استكملت تحقيقاتها، وعرفت أنّي لست سوى صعلوك صغير من صعاليك المعارضة الّتي أجهضتها منذ زمن بعيد وحرثت نسلها، لكنّ ارتباط اسمي لدى رأي عامّ رقّاوي بأنّي ضدّ الفساد كان قد فعل فعله، وهذا ما اضطرّ الأجهزة لاتّباع معاملة مختلفة، فلم ترد أن تصنع منّي بطلاً عبر الاعتقال السياسيّ، فكان أن حرّكت فرع الأمن الجنائيّ، وكلّفت الفاسدين بإقامة دعاوى قضائيّة ضدّي وإغراقي بها. هنا كان

يجب أن أخوض معركتي إلى النّهاية وأواجه، لكنّي جبنت، مفضّلاً الهرب إلى لبنان.

جاءني عبدالله الخليل المحامي الّذي تبرّع ومجموعة رمزيّة من محامي الرّقّة للدّفاع عنّي في وجه الدّعاوى الكثيرة الّتي رفعها فاسدو الرّقّة ضدّي. كنت آنذاك متوارياً في بيت الصّديق أحمد الحجّي عن أنظار أجهزة الأمن من باب الاحتياط والسّلامة، خاصّة بعد أن كثرت استدعاءاتي، قال لي ونبرة الهلع واضحة في كلماته وعلى وجهه: (العين حمرا عليك، كنت منذ قليل في فرع الأمن الجنائيّ، وتركت رئيس الفرع يرغي ويزبد ويهدّد ويتوعّد، غادر المدينة الآن حتّى تنجلي الأمور).

ساعات قليلة فقط وعناصر دوريّة كاملة داهمت منزلي خالي الّذي كنت أحمل وإياه ذات الاسم والكنية، عادوا خائبين بسبب مداهمتهم الخاطئة، شعرت بالخوف، وباتت قصص السّجون والمعتقلين تمرّ أمام ناظريّ كأنّها شريط سينمائيّ. أهداف (أحوال الرّقّة) ليس فضح الفساد فقط، إنّما أيضاً كسر حاجز الخوف الّذي يعدّ العمود الرّئيس للأنظمة الديكتاتوريّة وتحكم عبره، ها أنذا أقع فريسته، ويشلّني ويشلّ كلّ تفكيري!

هربت في ليل اليوم ذاته إلى مدينة الطّبقة – الثّورة – القريبة، وأقمت ساعات قليلة في منزل الصّديق والرّفيق فائق المير، بعد منتصف اللّيل كنت في الطّريق إلى لبنان في سباق مع الزّمن، قبل أن يتمّ وضع اسمي على الحدود السّوريّة اللّبنانيّة فأُمنع من المغادرة.

ذهبت إلى لبنان في المرّة الأولى بهويّتي الشّخصيّة لإدراكي أنّ الإجراءات البيروقراطيّة ستؤخّر ورود اسمي إلى سلطات الحدود، وهكذا كان.

وصلت إلى منطقة البقاع اللّبنانيّة، وفي "قبّ إلياس" في فرن لخَبز الكعك والحلويّات أقمت حوالي شّهر مع عمّال سوريّين، من ضمنهم زوج أختي وأبناؤه. كنّا أكثر من عشرة أشخاص في شقّة فيها غرفتان وملحقاتهما. لم يكن

لبنان غريباً عليّ، إذ سبق أن أمضيت خدمتي العسكريّة الإلزاميّة فيه بين عامي ١٩٨٧ و١٩٩٠، لكن في المتن الشّماليّ، في بولونيا وضهور الشّوير، حيث الطّبيعة أجمل.

كانت الحياة قاتلة في الفرن، والقرية صغيرة وهادئة، فيما العمّال يمضون جلّ يومهم تقريباً في العمل. كنت أمضي يومي وحيداً لا أمتلك من وسائل قتل الوقت أيّ شيء. كنت أمشي كثيراً، وفي كلّ يوم أزيد المسافة أستطلع المكان وأتعرّف عليه، حتّى أنّي في أحد الأيّام الرّبيعيّة الجميلة قرّرت الذّهاب مشياً إلى مدينة زحلة الّتي تبعد عن قب الياس أكثر من ١٥ كيلو متراً، والعودة أيضاً مشياً. أعشق المدن وأحبّ استكشافها، إنّما عيبي أنّي أملّها سريعاً، ولربّما هو عيبي المستمرّ وفي كلّ شيء!

بيروت

قرّرت التّخلص من وسادتي في الفرن، والّتي كانت تميل إلى السّواد بسبب قلّة النّظافة، وتتغيّر حسب قانون الفوضى الّذي يخضع له المكان، والذّهاب للعيش في بيروت.

قرأت وسمعت عن بيروت حتّى عشقتها. إغراء زيارتها كان أشبه بحبّ مراهق لا يعرف كيف الوصول لحبيبته. عرفت أسماء شوارعها وحواريها من كثرة ترديدها ونحن نتابع أخبار اجتياحها في الـ٨٢، بكينا معها وعليها عندما اجتاحتها إسرائيل، وعندما ودّعت مقاتلي المقاومة الفلسطينيّة ووزعهم بحرها إلى كلّ بقاع الأرض.

ها هي بيروت، أهبط إليها من المديرج وضهر البيدر في سيّارة أجرة. عند مدخلها لا تزال بقايا حروبها تذكّر أهلها والقادم إليها بأنّ كثيرين مرّوا من هنا!

بناء كامل يتكوّم بشكل طابقيّ فوق بعضه، مؤلّف من دبابات ومدافع وأسلحة صدئة تُركت للعبرة والذّكرى. وكما طعم القبلة الأولى، لا أزال أتذكّر لقائي الأوّل ببيروت!

استقبلني الصّديق عبدالله الهندي، فنّان تشكيليّ كان يعمل في إحدى ورش الدّهان في بيروت. نسّقت معه قبل قدومي إلى بيروت والإقامة معه. وهو الّذي سافر فيما بعد إلى بلجيكا بعد حصوله على اللّجوء من قبل مفوضيّة شؤون اللّاجئين.

اعتقدتّ أنّ عبدالله - وفي ظل أسوأ الظّروف - يقيم في غرفة بمفرده، أو في شقّة صغيرة سنتدبّر فيها أمرنا، لكنّه كان يقيم في مخيّم صبرا الفلسطينيّ المكتظّ، في مستودع لعلب الدّهان وأكياس الجبس وكثير من المستلزمات التي تحتلّ معظم مساحة المكان.

وضبّ عبدالله ركناً صغيراً من المستودع الكبير للنّوم والأكل، لكن مرّات كثيرة كنّا نخلد سوياً إلى النّوم، لكنّنا حين نستيقظ صباحاً نجد ثلاثة أو أربعة أو خمسة شباب افترشوا زاوية وناموا في فوضى لم أعهدها خلال حياتي، فصاحب الورشة السوريّ الحمصيّ كان يعطي مفتاح المستودع لكلّ من يعرفه من عمّال سوريّين تقطّعت بهم السّبل، ليصل عددهم أحياناً إلى ثمانية أو تسعة عمّال.

وضّبت ذاتي نفسيّاً على التّأقلم مع كلّ الظّروف، فكنت - وبعد أن أستيقظ صباحاً - أهيم في شوارع بيروت بلا هدف، وعند المساء أجد المستودع يغصّ بروّاده، سوريّين وفلسطينيّين. كنّا نمضي أغلبيّة أوقاتنا في لعب الورق الّذي تركته بعد اكتشافي أنّ الشّباب يستغرقون فيه استغراقاً تامّاً، ولأنّ الخسارة في عرفهم ليست واردة، فكثيراً ما كان يشتدّ غضبهم ليفرغوا معظم طاقاتهم وبؤس أوضاعهم في الشّتم وسبّ بعضهم بسبب غشّ من هذا وغمز من ذاك، وكثيراً ما تطوّر السّباب إلى عراك النّاظر إليه من بعيد - ولا يعرف السّبب - يعتقد أنّه نشب لسبب عميق!

بقيت على هذا الحال حوالي خمسة شهور. استأجرت وعبدالله بعدها في منطقة الفاكهاني شقّة صغيرة عرفنا فيها بعض النّظافة والتّرتيب والرّاحة واستثمار الوقت فيما يفيد. لم نستمرّ فيها أكثر من أربعة شهور. عدنا إلى الرّقّة، عبدالله ليرجع إلى بيروت بزوجه وأطفاله، فموعد سفره اقترب، لكنّي كنت أجهل ذلك، لأنّه من النّوع الكتوم ولا يحكي أسراره حتّى إلى أقرب النّاس إليه. دخلت سوريا بهويّة أخي الّتي جلبها لي أحدهم من الرّقّة. مرّت الأمور بخير. لم يتمّ اكتشاف أمري على الحدود. بقيت في الرّقّة قرابة أسبوع، اطمأننت على أهلي وأصدقائي. حين قررت العودة إلى لبنان بذات الطّريقة الّتي دخلت فيها إلى سوريا حدث ما كنت أخشاه.

انكشاف أمري والاعتقال

الطّريق إلى بيروت قادماً من الرّقّة كان لزجاً وثقيلاً. أثناء رحلة العودة في منطقة تلكلخ – الدبوسيّة عند الحدود السّوريّة اللّبنانيّة وقع قلبي.

صعد إلى الباص شابّان، واحد بلباس مدني، وهذا يعني أنّه من أحد فروع المخابرات السّوريّة الكثيرة، والثّاني في العشرينيّات من عمره يرتدي اللّباس العسكريّ النّظاميّ. السّاعة تقترب من الثّالثة فجراً، أمتار قليلة فقط تفصل بين "الهنكارين" السّوريّ واللّبنانيّ، ولو قدّر لي اجتيازها لتنفّست الصّعداء.

على غير المدن السّوريّة كنت أعشق حمص، ولا أدري لهذا سبباً، فهو الحبّ الّذي لا يعترف إلا بالحبّ. بعدها، كلّما دخلت حمص عابراً صرت أشعر بالاختناق، وبأنّ هذه المدينة تمّ إفراغها من كلّ أوكسجينها، كنت أتمنّى لو أنّ السّائق يطوي حمص ولا يمر بها!

طلب العسكريّ الشّابّ من كلّ الرّكّاب إبراز بطاقات هويّاتهم. كنت أجلس خلف السّائق مباشرة، إلى جانبي شابّ عرفت من خلال دردشات متناثرة

ومتقطّعة معه أنّه عسكريّ يؤدّي خدمته الإلزاميّة في بيروت. في المقعد الموازي على الطّرف الآخر جلس عبدالله الهندي وزوجه وطفليه الصّغيرين، وبشكل عامّ جلّ الرّحلات اللّيليّة بين الرّقّة وبيروت مسافريها إما عمّال أو عساكر في بيروت.

أمسك المجنّد الشّابّ بطاقة الهويّة التي أعطيته إيّاها، حدّق فيها محوّلاً نظره بين الصّورة الملصقة عليها ووجهي عدّة مرّات، قطع الشّكّ باليقين وقال بحدّة وثقة: (هذه ليست هويّتك). استجمعت كلّ هدوء العالم، ورددت عليه بابتسامة: (بل هويّتي). بين (هويّتي) و(ليست هويّتك) هرع زميله ذو اللّباس المدنيّ رجل المخابرات وأمسكني من ياقة قميصي، وزني الخفيف ساعده في قذفي بسرعة خارج الباص، وأمر السّائق بمتابعة طريقة إلى لبنان. لم يكن رجل المخابرات بحاجة كي يتأكّد من أنّها هويّتي أو ليست كذلك، فكلّنا بالنّسبة إليه بلا هويّة، وهذا سهل عليه إثباته.

جرجرني أكثر من مائة متر، وهي المسافة إلى غرفة الضّابط مسؤول الحدود. هناك فتّشاني بدقّة، كنت أحمل هويّتي الأصليّة، أصبح عندي الآن هويّتان، عثرا أيضاً على "فلاشة – USB" وضعها الضّابط في كمبيوتره، كانت مليئة بمقالات أغلبيّتها لمعارضين سوريّين، ومقالات (أحوال الرّقّة)، وصور أوراق ووثاق خاصّة بي. الجريمة ثابتة، أركانها متوافرة، وغباني قدّم لهم كلّ شيء، ليس على طبق من ذهب؛ إنّما في "فلاشة"!

ساقني المجنّد الشّابّ الّذي كان يمشي بخيلاء وكأنّه طارق بن زياد الّذي فتح إسبانيا، وتفنّن في جرجرتي حتّى أوصلني إلى "نظارة" الحدود، رماني داخلها كمن يرمي منديلاً قذراً.

أربعة شبّان كانوا ملتفّين ببطانيّات قذرة، رفعوا رؤوسهم، نظروا إليّ بحياديّة ثمّ عادوا إلى النّوم أو تظاهروا به. جلتُ بعيناي في المكان. غرفة لا تختلف عن إسطبل حيوانات، فيها مرحاض مسدود تناثر الخَراء في كل جوانبه.

في إحدى زوايا الإسطبل قرفصت أنتظر صباحاً لا يأتي، وبدا حلماً مشتهى بعيد المنال. في الثّامنة صباحاً دخل علينا مجنّد شابّ بلباس مهلهل كما كلّ جنود "الجيش العربيّ السّوريّ"، قال بلهجة وقحة: (إذا كنتم تريدون ترحيلكم وبسرعة إلى حمص فعلى كلّ واحد منكم دفع خمسمائة ليرة سوريّة لنستأجر لكم باصاً وتحلّون عن طيزنا). وافق الكلّ بلا تردّد.

في العاشرة صباحاً وصلنا إلى فرع الأمن السياسيّ. استقبلني في غرفة كبيرة محقّق بلكمة خفيفة على كتفي. أردتّ حرق كل الطّرق الطّويلة، "الفلاشة" تفضحني تماماً، سألته: (أهكذا تستقبلون الرّأي الآخر؟).

- (رأي آخر شو ولا حمار؟)، وأرفقها بلكمة أخرى أوقعتني أرضاً.

خمسة أيّام في فرع الأمن السّياسيّ، تعاملوا معي بعد أن عرفوا هويّتي السّياسيّة معاملة لا بأس بها. التقاني رئيس الفرع، قبلها كان المحقّق قد عرض عليّ العمل معهم، قال لي: (إذا تجاوبت بعد قليل مع السّيّد العميد فإنّك ستخرج من هنا إلى الرّقّة مباشرة، ولن نحيلك إلى القضاء).

عن حبّ الوطن وخدمته قدّم لي رئيس الفّرع محاضرة، وإنّي لو أشرت لهم عن الأعداء المتربّصين به فسوف أغادر من الفّرع إلى الرّقّة. كانت رأسي يابسة وكنت حماراً حسب المحقّق الّذي تمنّى ألاّ أكون "رأياً آخر" ليتفنّن في تدجيني.

حُوِّلت "موجوداً" إلى سجن تلكلخ الحدوديّ، بقيت فيه خمسة أيّام، وهناك عُرضت على قاضٍ بتهمة دخول لبنان ببطاقة هويّة الغير، رُحِّلت بعدها "موجوداً" إلى سجن حمص المركزيّ. في ذات الكلبشة كان معي شابّ عشرينيّ من "الكرباط" أو الغجر كما نطلق عليهم في سوريا، وتهمته أيضاً (محاولة دخول لبنان بدون هويّة)، ضحكت من المفارقة في سرّي، بهويّة أو بدون هويّة في سوريا الأمر سيّان. بعد قضاء خمسة أيّام في سجن حمص المركزيّ تمّ تحويلي "موجوداً" إلى فرع الأمن الجنائيّ في الرّقّة بتهم عديدة.

اكذب اكذب وستحصل على اللّجوء

بعد وصولي بيروت ببضعة أيّام ذهبت إلى مفوضيّة شؤون اللّاجئين، أتأبّط ملفّاً كاملاً عن كلّ ملفّات الدّعاوى الّتي كانت قد رُفعت ضدّي بسبب (أحوال الرّقّة)، كانت لديّ ثقةٌ كاملة بعدالة قضيّتي، وبأنّ ملفّي لا يرقى إليه الشّكّ، وبالتالي سأحصل على اللّجوء إلى الدّولة الّتي تختارها لي المفوّضيّة.

لم يكن اللّجوء هدفي عندما أقدمت على كتابة (أحوال الرّقّة) كما اتّهمني البعض، إنّما فكّرت فيه أثناء هروبي وانعدام الحلول، خفت وأخافني البعض لأنّ نكشي عشّ الدّبابير لن يمرّ هكذا. أعترف أنّي جبنت، فيما عقلي كان يقول لي إنّ القضيّة برمّتها لن تتجاوز (فركة إذن)، وأنّه كان عليّ البقاء في الرّقّة وأواجه، لكنّ خوفي غلبني. كلّ النّصائح بالهرب واللّجوء جاءت من أصدقاء ورفاق سابقين أمضوا سنوات طويلة في المعتقل، عانوا بمرارة وألم، وعرفوا معنى كلمة سجن.

وصلت المفوّضيّة غير البعيدة عن جسر الكولا في بيروت، أحد الموظّفين حدّد لي موعد مقابلة أولى بعد ٢٦ يوماً، هكذا هو الرّوتين لديهم: وصول، مقابلة أولى بعد شهر أو أقلّ قليلاً، ثمّ مسلسل طويل من المقابلات المتباعدة، يكره خلالها طالب اللّجوء ذاته.

المقابلات أشبه بتحقيقات رجال الأمن يجريها موظّف أو موظّفة، هو أو هي أشبه بالرّوبوت، من دون حسّ أو عواطف، ولا فقه بالوضع السياسيّ للبلد القادم منه. ذات الأسئلة تقريباً تتكرّر في كلّ المقابلات، مع التّركيز على التّواريخ الّتي أذكرها. كنت أدخل امتحاناً مع ذاكرتي حول الدّقة المطلوبة لتاريخ ما كنت قد ذكرته سابقاً. أمام هكذا معضلة دوّنت كلّ تواريخ الأحداث الّتي سُئلت عنها، ذكرتها وحفظتها، مثل: متى دخلت لبنان؟ ما تاريخ الدّعوى الفلانيّة؟ ما هو تاريخ المقال العلّانيّ؟ ...إلخ.

رُفض طلب لجوئي نهاية ٢٠٠٣ بعد عام كامل من مسلسل المقابلات وزيارة المفوضيّة، واكتشفت أنّي إن أردتّ الحصول على اللّجوء الإنسانيّ فيجب أن أتمتّع بالكذب، أو أن أملك خيالاً روائياً خصباً يصيغ الحبكة والقصّ البوليسيّ السّلس والمثير. بالمختصر المفيد: (اكذب اكذب وستحصل على اللّجوء).

خالد الحاج صالح الّذي لم ألتقه في الرّقّة مطلقاً كان من الأشخاص الّذين حاولوا مساعدتي بحقّ، وتمّت مراسلات كثيرة بيننا عبر النّتّ والهاتف. بذل الرّجل ما يستطيع من دون إحراز أيّ نتيجة. فثمّة من يأخذ فرصة غيره في اللّجوء، وربما أضرّني ذلك كما ألمح خالد في إيميل أرسله.

قبل الثّورة السّوريّة وبعدها؛ ملفّ اللّجوء وشؤون اللّاجئين يحتاج إلى وقفات كثيرة، وإلى فضح وتعرية، فعشرات الآلاف ممن يستحقّون اللّجوء يقيمون في مخيّمات وأماكن تفتقر إلى أدنى مقوّمات الحياة البشريّة، فقط لأنّهم لا يعرفون مسالك اللجوء وطرقه الملتفّة والمتعرّجة، والكثير ممن حصلوا على حقّ اللّجوء لم يكونوا يستحقّونه بالمطلق. لكنّ الفساد فعل فعله، وإلى جانب مفوضيّة شؤون اللّاجئين؛ كانت تأسّست وانتشرت منظّمات حقوق الإنسان السّوريّة في سوريا وخارجها كالفطر السّامّ بعد تولّي بشّار الأسد السّلطة.

الفصل الثاني

١٠٠ يوم في الكويت

تمّ توقيفي عدة أيّام في سجن الرّقّة المركزيّ، لكنّ المحامين الذين انبروا للدفاع عنّي - وعددهم كان حوالي خمسة عشر، على رأسهم المحامي عبدالله الخليل الناشط الحقوقيّ وعضو مجلس إدارة جمعيّة حقوق الإنسان السّوريّة – تمكّنوا من الإفراج عنّي، على ألاّ أغادر القطر وتتمّ محاكماتي طليقاً.

عدة دعاوى - كما أسلفت – رفعها ضدّي رؤوساء الدّوائر الّذين اتّهمتهم نشرتي (أحوال الرّقّة) بالفساد، فوقفت في محاكم مختلفة وأمام قضاة مختلفين، إضافة إلى دعوى رفعها ضدّي محافظ الرّقّة بتهمة "خرق قانون المطبوعات وإصدار نشرة من دون ترخيص"، ودعوى فوجئت بها رفعها إبراهيم العجاجي رئيس بلديّة الرّقّة آنذاك بتهمة "تحقيره"، واتّهامي له بالفساد، على الرّغم من أنّي لم أتعرّض إليه بأيّ كلمة، ولم آتِ على ذكر اسمه أبدًا، ليس لأنّه نزيه، إنّما بفعل النّسيان، فلم أتذكّره مطلقًا.

فيما بعد عرفت أنّ عدّة نشرات مزوّرة تحمل اسم (أحوال الرّقّة)، أصدرها إما أناس بسطاء أرادوا تقليد التّجربة، أو أشخاص أرادوا إغراقي بدعاوى وقضايا لا تنتهي، أو كما النّشرة الّتي عرضها عليّ عيسى الخليل أمين فرع حزب البعث، وحملت اسمي رغم أنّي منها براء، وكان الغرض منها هو التّهديد والوعيد.

أُطلق سراحي وعدتّ لأمارس حياتي الطبيعيّة، لكنّي خسرت وظيفتي بحكم انقطاعي عنها بعد تواريّ في الرّقّة، وهروبي إلى لبنان. دخلت القضايا

المرفوعة ضدّي طيّ النّسيان بعد صدور حكمين من المحكمة يغرّماني بدفع مبلغ خمسين ألف ليرة سوريّة للمدّعيين عليّ نجيب زعيتر رئيس دائرة الخدمات الفنيّة وجمال عبدو رئيس بلديّة سابق في الرّقّة تعويضاً لهما عن "الإهانة والتّحقير" اللّذين تعرّضا إليه كما ورد في نص الحكمين.

استأنف محاميّ الحكم، وعملت معه على إيصال رسائل غير مباشرة لهذين الفاسدين اللّذين تعرفهما الرّقّة جيّداً بفسادهما الّذي لا يشكّ به عاقل، مفادها أنّنا سنجمع تبرّعات من أهالي الرّقّة لدفع المبلغ الّذي حكمت به المحكمة، وسنجعل من القصّة فضيحة إضافيّة لهما ولكلّ المدّعين الآخرين. لم أدفع أيّ قرش سوريّ، ونامت كلّ القضايا، ففي سوريا سهل جدّاً معرفة آليّة اشتغال القضاء، وكيف يدار بالريموت كونترول.

أوضاعي الماديّة تدهورت تمامًا، وظيفتي خسرتها، ومحلّ العطورات كان يتنفّس بصعوبة كي يستمرّ، وأمّي الّتي كنت أعيش وإيّاها وحدنا توفيّت.

في شهر آذار ٢٠٠٥ غادرت إلى الكويت. لم يكن السّفر إليها سهلاً، مضمون النّتائج، هو مغامرة أخرى، اندفعت إليها كغريق يتعلق بقشّة.

في الفترة الّتي أعقبت وصول بشّار الأسد إلى السّلطة خلفاً لوالده؛ تجرّأ كثير من الكتّاب السّوريّين المعارضين على الكتابة في بعض الصّحف العربيّة الّتي فتحت صفحاتها لهم، وكانت صحيفة (السّياسة) الكويتيّة إحداها، فاستقبلت مقالات كتّاب سوريين يشرّحون الوضع السّوريّ وينتقدونه. واظبت خلال عامي ٢٠٠٤ و٢٠٠٥ على كتابة مقالين شهريّاً لتلك الصّحيفة. لكنّ سفري لم يكن بالتّنسيق معها، وإن كنت أطمح بالحدّ الأدنى الحصول على إقامة قانونيّة في الكويت عبرها.

معلوماتي عن العمل في الكويت كانت جيّدة، استقيتها من مدرّسين كُثر عملوا هناك، ففي أسوأ الظّروف أستطيع الإعلان في إحدى الصّحف الإعلانيّة عن اسمي وشهادتي والمادّة الّتي بإمكاني تدريسها، مع رقم هاتفي، والعمل

كمدرّس خصوصيّ أتقاضى أجرًا يعادل عشرة دنانير كويتيّة عن السّاعة الواحدة.

بأحلام مواطن سوريّ مقهور وصل إلى القاع ضربت وجمعت وخمّست وسدّست، فوجدت الجنّة هناك، وأنّي ربّما خلال سنتين أو ثلاث أعود واقفًا على قدميّ من جديد، معوّضاً كلّ خيباتي وخساراتي الماليّة وغير الماليّة، فأنا قادر على تدريس كثير من المواد. قرّرت تدريس مادّة اللّغة العربيّة للمرحلة الابتدائيّة والمتوسّطة.

عبر زميل في مديريّة تربية الرّقّة، زكي عصمان، استطعت شراء "كرت زيارة" إلى الكويت بخمسين ألف ليرة سوريّة، ما يعادل ألف دولار وقتذاك، علماً أنّ كلفته ثمن الطّابع الّذي لم يكن يتجاوز الدّنانير الثّلاثة أو الأربعة. استطاع زكي شراء الكرت من خلال صديقه المقيم في الكويت طريف (؟)، فالكثير من السّوريّين المقيمين هناك كانوا يتّخذون من استخراج الكرت تجارة رابحة، يصطادون من خلاله أناساً أوضاعهم تشبه وضعي، وهم كثر، ضاقت بهم السّبل في سوريا.

من مطار حلب الدّوليّ انطلقت إلى الكويت في مغامرة مجنونة أخرى لم أحصد منها إلاّ الخيبة.

استقبلني طريف في مطار الكويت الدّوليّ. لم أكن أعرفه قبل ذلك، وإرساله كرت زيارة لي "بزنساً" له لا يُلزمه باستقبالي، أو باستضافتي في بيته ليلة واحدة لأنفض عنّي تعب السّفر، لكن ربّما أراد الرّجل التّكفير قليلاً عن مبلغ كبير لطشه منّي برضائي، أو كرمى لعيون صديقه زكي عصمان.

تقول العرب: (إن عثرت فرسك ارجع). في الطّريق إلى بيته أراد طريف إفهامي بشكل غير مباشر أنّه يقيم مع صديقته، وبيته صغير جدّاً. وصلنا إلى البيت المؤلّف من غرفة نوم وغرفة جلوس صغيرة. مباشرة اكتشفت أنّ حقيبتي الّتي جلبتها معي استبدلتها بحقيبة أخرى تشبهها تماماً! كانت علامة سيّئة رغم

أنّي لست من أولئك الّذين يؤمنون بالحظّ. عدنا إلى المطار مباشرة، وجدت حقيبتي ورجلاً كويتيّاً لا يزال ينتظر، لربّما المعتوه الّذي أخذ حقيبته يعود. وها قد عدت.

نمت ليلتي الأولى في بيت طريف، كان نوماً قلقاً، ودماغي طاحونة لا تهدأ، ماذا أفعل؟ أين أذهب؟ لا يمكن البقاء ليلة أخرى هنا، المكان ضيّق، وطريف غير ملزم بي، وما أملكه من نقود جلبتها معي لا تكفي لإقامة أسبوع في فندق.

صباحاً، طريف وأنا في سيّارته، توجّهنا إلى مكتبه في مركز المدينة، تذكّرت أنّي دوّنت بعض أرقام هواتف أشخاص من الرّقّة يعملون في الكويت، أحدهم زميلي في كلّيّة التّجارة في جامعة حلب، وشقيقه زميلي في مديريّة التّربية، وهو من أعطاني رقم الهاتف، وطلب منّي أن أتواصل مع شقيقه إن لزمني أيّ شيء.

سألت طريف: (هل تعرف إسماعيل الحاج مصطفى؟). قال: (نعم. أعرفه معرفة بعيدة)، وناولني هاتفه الخليويّ، جاءني صوت إسماعيل باشّاً مرحبّاً، وأصرّ أن ألتقيه مباشرة.

بدل الذّهاب إلى مكتب طريف، توجّهنا إلى مكتب إسماعيل في شركة الهاتف الخليويّ الرّئيسة في الكويت، كان مديراً ماليّاً فيها. أصرّ الرّجل - بعد استقبالنا بترحاب - أن أقيم في بيته الكبير الواقع في منطقة السالميّة الرّاقيّة. قال إنّه يسكن وحده، فزوجه وأطفاله يقضون الإجازة في سوريا، و(نتونّس مع بعض) على حدّ تعبيره. تنفّست الصّعداء، وأجزم أنّ(طريف) تنّفس في سرّه أيضاً، فأسارير وجهه انبسطت، ربّما قال: (خلصت من هذه المصيبة)، رغم إلحاحه - كما تقتضي الأصول - أن أقيم في بيته يوماً آخر. ودّعت (طريف)، وأقمت أحد عشر يوماً في بيت إسماعيل.

لم أنجز أيّ شيء عمليّ خلال تلك الأيّام. أرافق إسماعيل إلى مقرّ عمله، أو أبقى في البيت، لكن كثيرًا ما كنت أذهب إلى الشّاطئ على الخليج الّذي لا يفصل مكان إقامتي عنه سوى شارع واحد فقط.

ذهبت مرتين إلى مقرّ صحيفة السّياسة علّي أحظى بمقابلة رئيس تحريرها أحمد الجار الله، وأسأله إن كان بإمكانه منحي إقامة قانونيّة، لكنّي لم أعثر عليه. كان في سفر دائم.

التقيت مدير التحرير العراقيّ الّذي أعرفه من خلال البريد الإلكترونيّ، أبدى الرّجل استعداده لمساعدتي، إنّما كان الأمر منوطاً بشكل كامل برئيس التحرير كما قال. نصحني خلال الزّيارة الثّانية بمقابلة شقيق أحمد الجار الله المدير الإداريّ للصّحيفة، والّذي استقبلني بجلافة لم أعهدها، وحوّل الأمر أيضاً إلى رئيس التحرير، فلا يملك صلاحيّات كما ادّعى. أدركت أنّ لا أفق يُرى، ولا أملاً يُرتجى من هكذا جريدة، فرئيس تحريرها - كما سمعت - يقيم بشكل دائم في البحرين (...)، ولقاؤه صعب.

قلّة المنابر الإعلاميّة الّتي تتلقّى مقالات لكتّاب سوريّين وتنشرها اضطرّتني وغيري للكتابة في جريدة السّياسة، فتوقّفت عن إرسال مقالاتي إليها لعدم قناعتي بها منذ البداية، لإدراكي أنّ الجار الله في معارضته للنّظام السّوريّ لم يكن ينطلق من مواقف مبدئيّة، إنّما من ظروف شخصيّة خاصّة به كتب هو عنها، وهي خصومة سببها مصادرة بيت كان يملكه في إحدى المصايف الواقعة في السّاحل السّوريّ، جرّده منه القضاء السّوريّ، ومنذ ذلك الحين بات يتصيّد أيّ شيء لينفث بعض غضبه، حتّى أنّ صحيفته باتت تختلق قصصًا عن رأس النّظام السّوريّ في غرف النّوم، ولا أعرف كيف لصحيفة محترمة أن تنشر أخبارًا كهذه؟ ومن أين تستقي معلوماتها!

ألححت على إسماعيل أن يعرّفني على بعض السّوريّين ممن يعملون في التّدريس، وإن أمكن - أيضاً الاستنجار معهم، فمن غير المعقول أن أبقى هكذا.

في اليوم الحادي عشر التقيت في بيت إسماعيل ومحمود (؟)، يكنّى بأبي مظفّر، عرفت فيما بعد أنّه أسمى ابنه مظفر تيمناً باسم الشّاعر العراقيّ مظفّر

النّواب، لفرط حبّه بالشّعر وبمظفّر النّواب تحديدًا. لم يتردّد أبو مظفّر بالموافقة على أن أقيم معه كأيّ مستأجر أدفع ما يدفع وزملاؤه بالتّساوي.

يدين أغلبيّة الرّقّاويّين الموجودين في الكويت – كما علمت لإسماعيل بالكثير، وضعه الماليّ ممتاز، ويشغل وظيفة محترمة، ولديه تجارة مع العراق، ووقتذاك التّجارة كانت مزدهرة.

لم يتردّد محمود بالموافقة. ذات اليوم حملت حقيبتي وذهبت وإيّاه إلى البيت في مدينة الفروانيّة. كان بيتًا واسعًا يستأجره وشابّ آخر من الرّقّة يعمل سائقاً إلى العراق، وشابّ مصري مهندس ديكور في التّلفزيون الكويتيّ.

محمود في الثّلاثينيّات من عمره، وإن بدا أكبر قليلاً، إذ غزا الشّيب كامل شعره. بدت علاقتي معه في البدايات جيّدة، فهناك تقاطعات واهتمامات مشتركة، عرفت منه أنّه كان يدرس الهندسة في واحدة من جمهوريّات الاتّحاد السّوفييتي السّابقة، في السّنة الثّالثة غادر إلى سوريا، ولم يعد نتيجة ظروف خاصّة، سجّل في إحدى الجامعات السّوريّة ولم يكمل، فأجبرته ظروفه الماليّة السّيّئة على المجيء إلى الكويت، وصار يعمل مدرّسًا خصوصيّاً لمادّة الرّياضيّات.

على مدى أسبوع - وفي بيتنا الجديد - تعرّفت على أكثر الرّقّاويّين، وخاصّة ممن يعملون في التّدريس الخصوصيّة، فالفروانيّة في الكويت تعتبر من مدن العمالة والضّواحي الفقيرة، وهي أشبه ما تكون بمدينة مصريّة في الكويت، حيث أغلبيّة سكّانها مصريّون، إلى جانب جنسيّات وافدة أخرى.

تعرّفت منهم على ظروف عملهم، وكوّنت فكرة لا بأس فيها عن مهنة جئت خصّيصًا لأعمل فيها. وضعت اسمي الكامل ورقم هاتفي وأنّي (مدرس لغة عربيّة لكافّة الأعمار)، هكذا تمّت نصيحتي، حيث هناك كبار في السّنّ ويودّون الدّراسة. وضعت هذه المعلومات في جريدتين إعلانيّتين بمساعدة محمود، وجلست أنتظر علّ الهاتف يرّن يطلب مدرّسًا.

المصائب لا تأتي فُرادى

كان محمود يجهل من أكون بالمعنى السّياسيّ. كنت حريصًا ألاَّ أتحدّث عن هذا الموضوع، فهدفي من المجيء إلى الكويت واضح ومحدّد، وهو البحث عن عمل وفقط. شخصيّة محمود ناقمّة وعصبيّة في آن، وفيها أيضًا من التّعالي الّذي يكتشفه أيّ شخص يتعرّف إليه. ومصدر نقمته أنّه كان سيكون أفضل لولا كذا وكذا.

شخصيّته من النّوع الّتي تردّ كلّ أسباب فشلها إلى الآخر، والآخر هنا "الظّروف"، ولا يعترف أنّ هناك - ربّما أسباباً ذاتيّة لذاك الفشل تتعلّق بقدرات الشّخص واختياراته وأخطائه، وما يرتكبه من حماقات.

تعاليه يأتي أيضاً من ذات المصدر، وأنّه كان سيصبح مهندساً وشهيراً، وكذلك هو بنظر ذاته مثقف ويكتب الشّعر، ومرّة زلّ لسانه ليفضح ما يعتمل في لا وعيه، كان يتمنّى أن يكون أفضل من إسماعيل، إنّما ظروفه السّيّئة لم تمكّنه. سقف طموحاته هو إسماعيل وما وصل إليه، لكنّه بقي مجرّد مدرّس خصوصيّ، يذهب في كلّ الأوقات ليدّق أبواب النّاس، ممتطياً سيّارته الصّغيرة والمتواضعة الّتي كثيراً ما تناسى تشغيل جهاز التكييف فيها توفيراً لمال هو بحاجته، كما أغلبيّة الرّقّاويّين الّذين ركبت سيّاراتهم، وشاهدتهم بأمّ عينيّ يضعون قمصاناً نظيفة ومكويّة معهم، يستبدلونها في سيّاراتهم فور وصولهم إلى بيوت تلاميذهم، ويلقون بتلك الّتي تبلّلت بالعرق في المقاعد الخلفية، لكنّهم في إجازاتهم الصّيفيّة يذهبون إلى الرّقّة، فيراهم الكلّ وهم يذرعون الشّوارع بسيّاراتهم متباهين بها، وقد وضعوا مرافقهم على نوافذها في مظهر خادع، مع أنّ أوضاعهم أفضل قليلاً من أوضاع أقرانهم العمّال السّوريّين في لبنان.

غرور محمود وتعاليه ونقمته كان يصبّها على الأوضاع الفاسدة في سوريا، وكان يهاجم النّظام براديكاليّة أفزعتني، كان أقصى اليسار منّي، على الرّغم من أنّي لم أجاهر بمعارضتي، ولم يكتشفها إلا ذات يوم حيث حديث الغرف المغلقة يمحوه النّهار.

البعثيّ المخمور في شوارع هاڤانا

قبل انقضاء شهر في إقامتي الجديدة، كان الرّقّاويّون يأتون للترحيب بي، إذ لا يزال بعض الرّقّاويّين كلّما سمعوا أنّ وافداً/ ضيفاً جديداً قادم من الرّقّة يرحّبون به كما تقتضي العادات والتّقاليد، وفي إحدى تلك الزّيارات حدث ما لم أرده، فما حاولت دائمًا إخفاءه؛ ها هو ينفضح!.

رشيد رمضان شخصيّة كانت معروفة على المستوى الرسميّ في سوريا، وفي كلّ أروقة حزب البعث في سوريا، شغل منصب أمين فرع حزب البعث العربيّ الاشتراكيّ في الرّقّة وكان من الشّخصيّات النّافذة فيها، وقبلها كان مدير إذاعة حلب، ويروي أهالي الرّقّة عنه أنّ حافظ الأسد وبّخه مرّة بسبب ما ارتكبه في كوبا حين كان في عداد وفد حزبيّ إليها، فقد عثر عليه في أحد شوارع هاڤانا مخموراً، مما سبّب فضيحة للوفد السّوريّ الرسميّ أمام نظرائهم الكوبيّين. هكذا إشاعات - وبغضّ النّظر عن مدى مصداقيّتها - تلقى سوقاً رائجة في الشّارع السّوريّ الّذي يتلقّفها ويلوكها حتّى مجيء إشاعة أخرى تنسيهم ما قبلها، وهكذا دواليك، ودائماً مصدر تلك الإشاعات الأجهزة الأمنيّة الّتي تبتغي من ورائها هدفاً، ففي إشاعة (البعثيّ المخمور في شوارع هاڤانا) ربّما أرادت الأجهزة الأمنيّة حرق أوراق تلك الشّخصيّة، نظراً إلى توقيتها، وتوقيتها كان انتخابات يجريها حزب البعث، الّذي ربّما أراد تقديم شخصية أخرى مكان رمضان. هكذا تُهان الانتخابات والسّياسة في سوريا.

شقيق البعثي المخمور كان يعمل في الكويت مدرّساً خصوصيّاً، جاء ومعه شابّان بحجّة السّلام والتّرحيب، كان يعلّق على كتفه حقيبة سوداء فيها كمبيوتراً محمولاً. لم ألتقه سابقاً، ولم أعرفه في الرّقّة، ولا أدري إن كان يعرفني بشكلي وهيئتي.

عندما تعارفنا صرخ عالياً مدّعياً إعجابه بي، وبات يكيل إليّ المديح وكلمات الثّناء، حتّى ظننت أنّي غابرييل غارثيا ماركيز، لكنّ قلبي كان يقرصني ويقول

لي شيئاً آخر، فليس من عادتي أن أأنس لمدّاحي الوجوه، وخاصّة عندما تأتي من شخص معروف عنه وعن كلّ عائلته أنّهم يفدون البعث وحافظ الأسد بأرواحهم كما يقولون. وكي يؤكّد للجالسين من أنا؛ فتح كمبيوتره وأراهم مقالاتي المنشورة.

لم أستطع فعل شيء، انكشف سرّي، وأُسقط من يدي. في ذات اللّحظة الّتي كان فيها شقيق البعثيّ المخمور يهرف ويستعرض مهاراته في الكلام، دقّقت النّظر في وجه مضيفي وشريكي في المنزل، ذاك الّذي أطلق على ابنه اسم "مظفّر" تيمّناً بالشّاعر الثّائر مظفّر النّواب؛ فوجدت علامات عدم الارتياح على وجهه بادية.

أسبوع- ثقيلاً ودبقاً- مضى بعد ذلك، مترافقاً مع حرّ بدأ يتواقح كثيراً ويلقي بلهيبه. المكيّف القديم الموجود في المنزل يبدو أنّه للزّينة. قيل لي إنّه بحاجة إلى إصلاح، لكن يبدو أنّ سكّان البيت ليسوا على عجلة من أمرهم، فالشّابّ المصريّ لا يأتي إلاّ للنّوم، وغالباً لا يأتي، والشّابّ الآخر دائماً على سفر، وصاحبي محمود كثيراً ما يكون في الخارج بحجّة الدّروس، فأبقى وحيداً أنتظر فرجاً من الهاتف الّذي أصرّ على الصّمت.

في البيت عثرت على مجموعات قصصيّة لكتّاب كويتيّين، بدأت أقتل عبرها الوقت. أغلبيّتها كانت تتحدّث عمّا خلّفه احتلال الكويت وغزوها من قبل صدّام حسين، وعن النفسيّة الكويتيّة الّتي رُضّت كثيراً من هول ممارسات الجّيش الشقيق. لُمت ذاتي كثيراً حين كنت أقرأ في تلك القصص. مثل أغلبية العرب؛ لم أتفهّم ولم أقدّر معاناة الكويتيّ والألم الّذي سبّبه له الغزو، فتعاطف غالبيّتنا مع الجلاّد ضدّ الضّحيّة، انخدعنا بشعارات صدّام حسين الكاذبة والمضلّلة.

قارنت بين الكويتيّين الّذين هبّ العالم فيما بعد لتخليصهم من الاحتلال العراقيّ من أجل النّفط، وبين اللّبنانيّين الّذين كانوا لا يزالون يرزحون تحت الاحتلال السّوريّ، واحتلال حافظ الأسد ووريثه من بعده، والّذي لا يختلف في

الجوهر عن احتلال صدّام، وإن كان قد سلك مسالك أذكى، مغطاة بما يسمّى "شرعيّة دوليّة"

لقاء السّفير السّوريّ علي عبد الكريم

انقضت أربعة أو خمسة أيّام بعد اللّقاء مع شقيق المسؤول البعثيّ المخمور، وانكشاف أمري بأنّي معارض للنّظام السّوريّ، شعرت بعدها أنّ في الأفق غيوماً كثيرة سوداء، فعلاقتي مع محمود باتت مضطرّبة، ووجهه يشي بضيق كبير، لم نعد نتبادل إلاّ كلمات قليلة جدّاً، ولم يعد أحد يزورنا مساءً كما العادة، وعندما نجلس أمام التّلفزيون في الأيّام الّتي تلت ذلك اللّقاء؛ باتت تعليقات محمود مستفزّة. وقتها كانت الأجواء السّياسة في دمشق تلتهب بعيد اغتيال الحريريّ و"إعلان دمشق" أحداث متسارعة كانت تجري هناك، ومحمود يهاجم المعارضة السّوريّة، ويختار مفردات يريد منها استفزازي، وفوجئت به في أحد تلك الأيّام يقول لي طارحاً اقتراحاً غريباً أذهلني!

ابتدأ كلامه الّذي جاء بعد نقاشات مع الشّباب، وكما قال كلّ الجالية الرّقّاويّة الموجودة ضمن محيطنا وعلاقتنا معها؛ أنّ رأيهم استقرّ بذهابنا إلى السّفارة السّوريّة في الكويت، وما تقوله السّفارة بشأني سيتمّ الالتزام به!

ذهلت، لم أستطع مباشرة فهم ما يقوله وما يطلبه. قلت له غير مصدّق: (وضّح لي أكثر ماذا تعني بالذّهاب إلى السّفارة السّوريّة؟).

قال بتكرار بليد: (نذهب إلى السّفارة وأشرح لهم وضعك، وإنّك معارض وتكتب في صحيفة السّياسة الكويتيّة ومواقع أخرى معارضة، وأسمع ما سيقولوه بشأنك)، وتابع: (إن سمحوا لي أن تظلّ مستأجراً معي فلا مانع أن تبقى في هذا البيت، وإن قالوا يجب أن تخرج، عندها نكون قد برّأنا ذمّتنا تجاهك، فنحن ـ قالها بصيغة الجّمع – مو ناقصنا وجع راس، والشّباب هنا كلّهم

التقوك، وبصراحة ما حدا يحبّ يتجرجر من المخابرات وقت نزوله في إجازة إلى سوريا).

ضاقت الدّنيا بي. شعرت بخذلان وخيبة أمل كبيرين. أصبحت كالجيفة أو مرض مُعد والكلّ يحاول التبرّؤ منه. لا يهمّني إن ذهبت إلى السّفارة أو لم أذهب، إنّما هالني حجم الرّعب والخوف السّاكن في قلوب السّوريّين، كما هالني حجم الجبن والنّفاق الّذي لوّث حياتنا، وبات كلّ منّا يبحث عن خلاصه الفرديّ.

لم أستطع أن أقول لمحمود اذهب أنت ومن تمثّل إلى الحجيم ولا يشرّفني السّكن معكم، لأنّ كرت الزّيارة مدّته ثلاثة شهور بقي منها شهران، ولا أستطيع القيام بأيّ شيء لأنّ وضعي غير مستقرّ، والقوانين الكويتيّة لا تسمح لزائر أن يستأجر باسمه، فهذا غير قانونيّ، ولا عمل لديّ، ويكاد وضعي أن يصبح في مهبّ الرّيح. قلت له بلغة تحدٍّ، وكنت أنظر إليه بكلّ احتقار: (لنذهب غداً صباحاً. لا مانع لديّ).

في التّاسعة صباحاً كنّا في السّفارة السّوريّة. قال لموظّف الاستقبال متأتئاً: (نريد مقابلة القنصل)، قاطعته بحزم موجّهاً كلامي للموظّف ذي اللهجة العلويّة: (نريد مقابلة السّفير). فتح الموظّف فاه دهشة: (لماذا؟)، قلت له: (مسألة أمنيّة).

قادنا إلى غرفة في الطّابق الثّاني على بابها لوحة صغيرة نحاسيّة كتب عليها (القنصل أمل تركاوي). استقبلتنا امرأة بجسد ضخم ووجه صبوح يبعث على الرّاحة. رحبّت بنا وجلسنا في مكتبها، قالت وهي مبتسمة: (خير يا شباب شو القصّة؟).

كنت مصمّماً على مقابلة السّفير، قلت لها: (المسألة أمنيّة، ونوّد مقابلة معالي السّفير). كنت بخبرتي وكأيّ مواطن سوريّ أعرف أنّ مجرّد طلب مقابلة المسؤول الأكبر من أجل "قضيّة أمنيّة"؛ فإنّ الأبواب ستفتح أمامي، ويخرس تماماً من يسمّون بالمسؤولين الصّغار. كذلك شعرت بالإهانة، وقرّرت رفع درجة التّحدي إلى أقصاها، لإفهام هذا المخبر الصّغير الّذي كان يمشي معي

كالأبله حجم وضاعته وصغره. وكما توقّعت، لم تنطق القنصل سوى بجملة واحدة: (تكرم عينكم، دقيقة وستكونون في مكتب معالي السّفير). غابت دقائق ثمّ عادت قائلة: (سعادة السّفير بانتظاركم)، والسفير السوريّ في الكويت آنذاك - أي منتصف نيسان ٢٠٠٥ - هو علي عبد الكريم الّذي أصبح سفير سوريا في لبنان، يقال إنّه يكتب القصّة والشّعر. استقبلنا الرّجل وقد خرج من وراء مكتبه مادّاً يده ومرحّباً. عرّفته بنفسي وبمحمود. بعد استقبالنا عاد ليجلس وراء مكتبه الفخم. جلست إلى الكرسيّ الّذي يقابل مكتبه مباشرة، فيما جلس محمود بعيداً وصامتاً إلى ما قبل نهاية انصرافنا وانتهاء الزّيارة الّتي استغرقت حوالي نصف ساعة.

كان مكتب السّفير واسعاً جدّاً وأنيقاً جدّاً. سألنا ماذا نشرب، قلت له ما تقدموه لنا، فجيء لنا بزهورات، ولا أدري سبب عشق البعثيّين وضبّاط المخابرات للزّهورات، المشروب الّذي شربت منه كثيراً في كلّ استدعاء إلى أحد الفروع الأمنيّة بالرّقّة، والّذي عادة ما يحصل بعد كلّ مقال.

ونحن نرتشف الزّهورات سألنا: (خير يا شباب شو القصّة، وشو المسألة الأمنيّة اللي جايين مشانها؟). لا زلت أذكر كلّ كلمة قلتها في ذاك اللّقاء. كان لساني طويلاً في سوريا، فلما لا يكون كذلك في الكويت، فهذا السّفير مهما أوتي من سلطات هنا فهو غير قادر على إلحاق أيّ ضرر بي. قلت له: (معالي السّفير؛ أجهزتكم الأمنيّة في سوريا أدخلت رعباً إلى قلوب السّوريّين، وبات يلاحقهم أينما حلّوا وأينما كانوا. منذ شهر جئت من سوريا بحثاً عن عمل، استقبلني هنا الأستاذ محمود، وأشرت بيدي إليه، وبعض الشّباب، وعندما اكتشفوا أنّي كاتب ومعارض لنظام الحكم في سوريا خافوا من وجودي بينهم، ومعهم حقّ في ذلك، فهو والشّباب يخشون أن تستدعيهم المخابرات، وربّما يقعوا في مشكلات أكبر بسبب سكني معهم، وكلانا هنا الآن من أجل إرشاده، ولتقول له ماذا عليه أن يفعل، وكيف عليه التّصرّف معي، هل أبقى معه؟ أم أفتّش عن سكن؟).

بكلّ أمانة أنقل تفاصيل دقيقة عمّا جرى، وعمّا دار في ذلك اللّقاء. نهض الرّجل من كرسيّه ووجهه يشي بالذّهول قائلاً وهو يضرب كفّاً بكفّ: (له له له معقول هذا الحكي). كان محمود في ركنه القصيّ الّذي اختاره وجلس فيه بعيداً عنّا، انتبهت إليه وهو فاغر فاه، رأسه انمطّ نحو الأمام، ونصف مؤخرته على مقدّمة الكرسيّ العريض والواسع الّذي جلس عليه، بدا كأنّه سيقع، وهو غير مصدّق ما سمع، ولسان حاله ربّما يقول: (كيف يتحدّث مع السّفير بهذه الجرأة!).

عاد السّفير بعد لحظة الدّهشة والاستغراب الّتي أخذته. جلس إلى كرسيّه وراء مكتبه قائلاً: (عيب يا شباب شو هالحكي، أنتما الاثنان سوريّان وأنتما أخوان، والخلاف بينكما يجب ألا يُفسد الودّ، وأؤكد على وجودكما وسكنكما معاً، ففي اختلافكما تناغم جميل ووحدة وطنيّة).

استمرّ السّفير يتحدّث بإسهاب عن سوريا والوحدة الوطنيّة والسّيّد الرّئيس الّذي أكد على ضرورة احترام الرّأي الآخر والمعارضة الوطنيّة الشّريفة ونحن نستمع إليه. بعد أن أنهى محاضرته التفت إليّ وسألني: (بس ما قلتلي وين تكتب؟)، أجبته في أغلبية المواقع الإلكترونيّة للمعارضة السّوريّة، وفي بعض صحف عربيّة مثل جريدة السّياسة الكويتيّة هنا). عندما ذكرت صحيفة السّياسة ضحك وقال مازحاً: (ما لقيت غير السّياسة تكتب فيها؟)، قلت له جادّاً: (افتحوا لنا تشرين والبعث والثّورة وعندها لن نكون مضطرّين للكتابة في الصّحف العربيّة).

عندما نهض الرّجل ليودّعنا معلناً انتهاء الزّيارة؛ كانت أسارير وجه محمود قد انفتحت، وإذا به يريد ارتجال أبيات من الشّعر الشّعبيّ هو مؤلفها، قال فقط بيتاً واحداً بأسلوب المهرّجين يمدح فيه بشّار الأسد، لم يدعه السّفير يكمل، قاطعه شاكراً "حسّه الوطني" عند باب مكتبه صافحنا، وأكّد على ضرورة أن نبقى في السّكن مع بعض.

في طريق عودتنا إلى المنزل قلت لمحمود: (كيّفت، ارتحت، هل اقتنعت الآن أنّ لا مشكلة ولا خطر عليك؟) هزّ رأسه، إنّما لا يبدو عليه ارتياح كبير، وربّما شعر بضآلته.

الجزيرة واتّجاهها المعاكس

استمرّ الوقت ثقيلاً، ولا كوّة تبدو في الجدار. بدأت أهرب من حرّ البيت. كنت حذراً ألا أبذّر ما أملك من نقود قليلة، فما لا ينبع ينفد، ولا أعرف ماذا يخبّئ غداً في بلد غريب لا أعرف فيه أحداً.

مركز مدينة الفروانيّة كان يبعد عن البيت حوالي خمس عشرة دقيقة مشياً، لكن لا أحد يمشي في الكويت. مشيت محاولاً اكتشاف المكان، كنت أمضي ساعات طويلة متسكّعاً، أدخل من شارع إلى آخر، من مقهى إلى مسجد، وساعات طويلة جلست في مسجد قريب من البيت، كنت ألجأ إليه من الحرّ، فأشعر باسترخاء لا مثيل له في أجوائه المكيّفة، وكم تمنّيت أن أتوسّد أيّ شيئ لأغفو بعمق في ذلك المسجد، لكن كان من الصّعب تحقيق تلك الأمنية، ولأبرّر وجودي للعيون الغريبة الّتي تحدق فيّ وتسأل من هذا الغريب، صرت أرتجل ركعات طويلة، مع أنّي لم أصلّ إلا عندما كنت طفلاً.

في واحد من مشاويري التسكعيّة ولجت مقهى نتّ، دخلت إلى بريدي الإلكترونيّ، وإذ بالرسالة التّالية: (سيّد طيّار، نتابع مقالاتك، نرجو إرسال رقم هاتفك من أجل لقاء محتمل في الجزيرة في الاتّجاه المعاكس). والمرسل معن شريطي معد برنامج الاتّجاه المعاكس.

ظننت أنّ في الأمر خطأ ما، فلست بتلك الشّهرة لتتصل بي الجزيرة. خمّنت أنّها رسالة مازحة، أو مقلباً من أحد أصدقائي ينتحل اسماً غريباً، فلا أعرف معن شريطي، ولا أنّه معدّ برنامج الاتّجاه المعاكس، إنّما أعرف من هو أمام

الكاميرا، ومن أمامها هو فيصل القاسم. رددت على الرّسالة بكلمة (أهلاً)، واتبعتها برقم موبايلي مسبوقاً برمز دولة الكويت.

الوقت الثّقيل واللّزج بدأ يتسارع، والأحداث أخذت تنحو باتّجاهات دراماتيكيّة.

صباح اليوم التّالي، وحوالي العاشرة صباحاً؛ كنت أتناول طعام الإفطار، بالقرب منّي كان يجلس محمود، رنّ هاتفي، حدّقت في الرّقم، وإذ به مسبوقاً برمز دولة قطر، على الطّرف الآخر كان معن شريطي. بعد السّلام وبعض كلمات المجاملة قال إنّه فوجئ بوجودي في الكويت وليس في سوريا، أخبرته أنّي في الكويت منذ شهر تقريباً بحثاً عن عمل، قال الرّجل: (ما في مشكلة، كنّا نوّد استضافتك في الجزيرة في حلقة من حلقات الاتّجاه المعاكس، عموماً انتظر منّي هاتفاً آخر).

عند هذا الحدّ انتهت المكالمة. لم أعلّق بشيء. حاولت جسّ نبض محمود وردّ فعله ورأيه في الموضوع. رغم ملامح الضّيق الّتي لمستها في وجهه، ونظرات تحمل قرفاً من كلّ شيء؛ إلا أنّه قال ببرود: (هي فرصة لمعارض أن يقول ما يريده على قناة يشاهدها الملايين، كما الجزيرة)، وزمّ شفتيه في حركة يكرّرها كثيراً عندما يريد إظهار لا مبالاته بأمر ما. قلت: (أظنّ أنّهم عدلوا عن موضوع استضافتي بسبب وجودي في الكويت، ظنّوا أنّي في سوريا، وعلى هذا الأساس أرادوا استضافتي، الوضع تغيّر بالنّسبة لهم الآن)، وتابعت: (استضافة معارض قادم من سوريا وسيعود إليها بعد عرض الحلقة أقوى وأكثر أثراً من استضافة معارض يقيم خارج سوريا، وفي ذلك حسابات لا يجهلها عاقل).

بعد أسبوع تقريباً، وفي ذات التّوقيت السّابق، وبوجود محمود أيضاً؛ رنّ هاتفي من جديد، كان معن شريطي هو الّذي يعطي لهاتفي معنى، ويبثّ الحياة فيه، قال الرّجل: (لا يزال موضوع استضافتك في استديوهاتنا هنا في الدّوحة

قائماً، إنّما لدينا غداً حلقة حول "جرائم الإبادة الجماعيّة"، ونودّ أن تقدّم مداخلة حول الموضوع إن أردتّ). معن اتّصل يوم الإثنين والبرنامج يعرض يوم الثّلاثاء. لم أتردّد، وافقت مباشرة من دون تفكّر وحساب أيّ تبعات يمكن أن تترتّب على ذلك، وليتني تأنّيت ولم أوافق، فقد كانت التّبعات كبيرة، كلّفتني مغادرة الكويت.

أسوأ ليلة في حياتي

نظرت إلى الشّابّ الرّقاويّ الّذي نسيت اسمه، وكان يمضي كلّ أوقاته بالسّفر إلى العراق على قاطرته الّتي تعود ملكيّتها إلى إسماعيل، فقد ازدهرت التّجارة آنذاك بين العراق والكويت أيام تنفيذ برنامج "النّفط مقابل الغذاء والدّواء" الّذي استمرّ ما يقارب عشر سنوات، وأسهم في إثراء كويتيّين وسوريّين وعرباً، وعبر البرنامج سمحت الأمم المتّحدة للعراق بتصدير جزء محدّد من نفطه مقابل شراء الاحتياجات الإنسانيّة الغذائيّة والدّوائيّة للعراقيّين الّذين كانوا يتضوّرون جوعاً، ولأطفالهم الّذين كانوا يموتون بسبب قلّة الدّواء.

كانت ملامح وجه الشّابّ باردة وحياديّة، لا تنمّ عن أيّ شيء. لمّا نظرت إلى وجه محمود أبو المظفّر كان شعره متطايراً كجنديّ فرّ من معركته، وآثار الهزيمة بادية عليه، ووجهه في اصفراره كان مثل ليمونة وقد عُصرت حتّى آخر قطرة فيها. يبدو أن كيله فاض، ولن تنفع معه كلّ تطمينات سفراء سوريا في الخارج.

سألته عن رأيه فيما قلت وعلامات الارتياح والزّهو تتملّكني. هرول نحو المرحاض وكأنّه كان يريد أن يفرغ فيه كلّ ضيقه، هزّ رأسه بحركات مضطرّبة وسريعة قائلاً: (زين زين ماشي الحال)، ثم دلف إلى المرحاض.

اللّيلة الّتي سبقت "الاتّجاه المعاكس"؛ أمضيتها أقرأ وأفتّش في "جرائم الإبادة الجماعيّة" لم أرد الارتجال في الحلقة، إنّما تقديم مداخلة مكتوبة تكثّف

ما أريد إيصاله استثماراً للدّقائق القليلة الّتي ستعطى لي، فهذه هي تجربتي الأولى في الإعلام المرئيّ، ولا أريد التّأتأة والفشل، فالكلام مسؤوليّة في محطة تتابعها الملايين، وعليّ أن أعرف ما أريد إيصاله وبسرعة.

في فترة الثّمانينيّات في سوريا ارتكبت جرائم إبادة جماعيّة في مدينة حماه، وفي غيرها من المدن السّوريّة، راح ضحيّتها الكثير من الأبرياء. ظلّ الجرح السّوريّ مفتوحاً وينزف، لكن لم تكن لدى النّظام السّوريّ نيّة بمداواته، وهو (مسؤول بأحيائه وأمواته عمّا حدث) كما قلت في معرض مداخلتي في الجزيرة.

خرج محمود من المرحاض، أمسك هاتفه الخليويّ مباشرة، وغادر إلى الفناء. أمام البيت الّذي نسكنه - وهو أشبه بالبيت العربيّ - حوش كبير يكاد يكون مهجوراً، رأيت محمود يذرعه ذهاباً وإياباً وهو يتكلّم، أمضى حوالي عشرين دقيقة ثمّ عاد وعلامات النّصر والزّهوّ مرتسمة على محيّاه. عرفت أنّه كان يتكلّم مع إسماعيل الحاج مصطفى الّذي أعطاه صلاحيّة التّصرّف، وكما يحلو له.

قال لي محمود والثّقة تتسرّب من كلامه: (أستاذ أحمد استضفناك هنا مدّة شهر وأهلاً وسهلاً بك، لكن أرجو منك أن تفتّش منذ الغد على بيت وتخرج من هنا).

لم يكن محمود يستضيفني. قلت له: (أنا هنا مستأجر، أدفع ما عليّ من الإيجار وكلّ المصاريف الأخرى مثلما تدفعون).

النّظام السّوريّ بأحيائه وأمواته المسؤول الأول عمّا حدث في الثّمانينيّات - عبارتي الّتي قلتها - القشّة الّتي قصمت ظهر محمود، رغم عدم إمكانيّة تشبيهه بالبعير.

جدل بيزنطيّ استمرّ أكثر من ساعة بعد انتهاء البرنامج. الشّابّ الّذي نسيت اسمه ذهب للنّوم، وبين شدّ وصراخ قال محمود أبو المظفّر: (تقصد حافظ الأسد

عندما قلت كلمة أمواته، ولست على استعداد أن تجرجرني المخابرات عندما أنزل إلى سوريا من ورا حضرتك، إحنا جايين ناكل خبز هين، مو نسوّي معارضة)، فالرّجل الّذي كان في قمّة الراديكاليّة في الغرف المغلقة وقبل اكتشافه معارضتي؛ أصبح (يمشي الحيط الحيط ويقول يا ربي السترة)، وكان يصرّ أن أغادر صباحاً.

ضمن تلك الأجواء المتوتّرة كدنا أكثر من مرة أن نتهجّم على بعضنا بالضرب. في هذه الأثناء جاء الشاب المصري، عائدًا من عمله، وشاهد ما نحن فيه من توتر، وبعد أن عرف بالموضوع، وبدبلوماسيّة المصريّين المعروفة انفرد بمحمود في إحدى غرف البيت الدّاخليّة حوالي عشر دقائق، ثمّ خرج بعد أن لعب دور الوسيط وخاطبني بتهذيب قائلاً: (محمود وافق على إعطائك مهلة عشرة أيّام لتتدبّر أمرك وتجد بيتاً بديلاً).

وسادة أخرى وبيت جديد

لم أكن أعرف له عنواناً أو رقم هاتف كي أتّصل به، ولم يأتِ في بالي مطلقاً. خليل تمّي مدرّس اللّغة الفرنسيّة المتعاقد مع وزارة التّعليم الكويتيّة والّذي يدرّس في مدارسها، وهو كرديّ سوريّ أعرفه في الرّقّة من خلال عملي في مديريّة التّربيّة عندما كان يأتي إليها، كما كنت التقيته مرّات قليلة من خلال أصدقاء كُرد مشتركين، علاقتي به زمالة واحترام لا أكثر.

بعد انتهاء حلقة الاتّجاه المعاكس هاتفني، فرقم هاتفي عُرض على شاشة الجزيرة، سلّم بحرارة، وأثنى عليّ مبدياً إعجابه بمداخلتي، اتفقنا أن نلتقي دون تحديد موعد، وتركت الأمور للمصادفة.

اتّصلت به صبيحة اليوم التّالي لتلك اللّيلة العاصفة، صمّمت أن أغادر البيت حتّى وإن اضطرّني الأمر للمبيت في الشّارع، فالأجواء مكهربة جدّاً ولا يمكن

الاستمرار، اتفقت وخليل أن نلتقي في السّابعة مساء، حيث لم يكن بالإمكان تقديم الموعد لانشغاله بالدّروس الخصوصيّة.

وضّبت كلّ ملابسي وأشياني الصّغيرة في حقيبتي الوحيدة ووضعتها في ركن من غرفتي، قلت لمحمود الّذي كان يراقب ما أقوم به بوجه وعيون صعب عليّ تفسيرهما، فقد كانا مزيجاً من دهشة وندم واستغراب، وربّما حتّى انتصار، وكأنّ هذا المخلوق لم يستطع يوماً إصدار قرار واحد في حياته له معنى وحجماً وتأثيراً، لكنّ الفرصة جاءته اليوم، فاعتقد أنّ لديه من القوّة والإرادة لإصدار قرار. وأيّ قرار!

قلت له: (سأترك حقيبتي هنا حتّى المساء أو الغد، وسأترك لك هذا البيت ولن أعود إليه، لكن سأقول لك جملة وحيدة أرجو أن تقولها لابنك حينما يكبر، قل له أباك الّذي سمّاك مظفّر، وفي يوم ما، طرد من بيته ضيفاً وليس لأيّ سبب، فقط لأنّه كان يعارض الظّلم والقهر).

الدماء الآن تغلي وتصعد داخلي وأنا أكتب هذا السّرد بعد سنوات على انقضاء الحادثة. لا أزال أتذكّر أنّ محمود أطرق برأسه تأثّراً، ولم ينبس بحرف. أدرت له ظهري وغادرت، وبقيت أتسكّع من الصّباح وحتّى السّابعة مساءً.

على صوت قرقرات الأركيلة، وبوجود الشّاي المصريّ، وحاضر يا فندم، وحاضر يا بيه؛ جاء خليل. كان موعدنا في مقهى كلّ ما فيه مصري، اتفقنا أن نلتقي فيه.

وجه خليل الوسيم المائل إلى البياض كان يتموّج لونه، فيصبح أحمر ووردياً أحياناً وهو يسمع بإنصات شديد إلى تفاصيل طردي ليلة البارحة. فور انتهائي شعرت أنّ عبئًا كبيرًا ألقيته على كتفيه. هذا ما بدا لي مرسوماً، إذ صار يزدرد لعابه، وبؤبؤا عينيه كانا يحاولان الهروب من نظراتي. ولكي أريحه قلت له: (أرجو أن تساعدني في: إمّا أن أنام في بيتك اليوم وغداً أسافر إلى سوريا، أو إن كان بالإمكان أن تستأجر لي استديو باسمك لأن القانون هنا يمنع أن أستأجر

باسمي، إذ لا أملك "إقامة"، أو الحلّ الثّالث - في حال صعوبة ما سبق - دلّني على فندق رخيص أمضي فيه ليلتي، وغداً أحاول السّفر إلى سوريا).

أثناء تسكّعي وقبل لقاء خليل؛ مررت على الفنادق الّتي صادفتني في مدينة الفروانيّة، وللأسف كانت كلّها من ذوات النجمات، وبحسبة بسيطة وصلت إلى أنّي لو أمضيت أسبوعاً أو عشرة أيّام فيها فهذا يعني أن أرفع يديّ عالياً معلناً استسلامي وإفلاسي.

قال لي خليل؛ وقد شعرت بالحرج الّذي وضعته فيه: (أسكن مع مدرّس سوريّ من دمشق، وهو من استأجر البيت أوّلاً، أي أنّ له الكلمة الأولى في قبول أو عدم قبول مستأجر جديد فيما لو طرحت عليه أن تستأجر معنا، عموماً تعال معي الآن إلى البيت لتمضي ليلتك معنا، وسأطرح عليه الموضوع، وإن كنت متأكّداً أنّه لن يوافق).

ذهبت وخليل إلى بيته بسيّارته. كنت أشعر بألم كبير، عيناي زائغتان، ووجهي يرتسم فيه كلّ التّيه، قدماي ثقيلتان أجرجرهما بصعوبة. شعرت أنّي مصيبة وحجر ثقيل ألقيه بذاتي على أشخاص يحاولون ما أمكن تجنّبه، وعندما كان خليل يحاول ركن سيارته أمام البناية حيث يسكن جاء الحلّ الّذي يعيد لي بعض توازني، صاح خليل مشيراً بيده اليمنى إلى البناية المقابلة: (انظر، استديوهات للإيجار).

كانت بناية مؤلّفة من أربعة طوابق، كلّها أعدّت كي تكون سكناً يناسب أمثالي. استديوهات صغيرة، الواحد منها عبارة عن غرفة صغيرة ملحق بها كونتوار صغير مع حمّام بالكاد يستطيع المرء التحرّك فيه براحة، ولا شيء آخر عدا مروحة سقف ستكون صديقتي وعدوّتي في آن معاً خلال الأيّام الأخيرة التي سأقضيها في دولة الكويت. عاينت الاستوديو في الطّابق الأرضيّ، لم أدقّق كثيراً به، لم أكن أملك ترف الاختيار، فوافقت مباشرة. كان إيجارها الشّهريّ يعادل ١٣٠٠٠ ليرة سورية، أكثر من مائتي دولار، وهو مبلغ كبير بحساباتي، خاصّة عندما أقارن كلّ العملات الأخرى بالعملة السّوريّة.

وقّع خليل العقد مباشرة مع البوّاب الآمر الناهي في البناية، استلمت المفتاح وذهبت وخليل إلى بيته المجاور.

كان خليل وشريكه في السّكن لبقين جدّاً معي. استحممت واستعدتّ بعض روحي. كانا قد أعدّا العشاء، أكلت كما يجب أن يأكل الضّيف، سهرنا قليلاً، تفرّجنا على التّلفزيون. نمت بعدها بعمق.

في اليوم التّالي، أو الّذي يليه، وكان يوم جمعة، أشار عليّ خليل بالذّهاب إلى ما نسميه "سوق الجّمعة"، وأظنّ أنّ هذا اسمه أيضاً في الكويت، وفيه باعة لكلّ شيء، وبأسعار تتناسب مع ما أريد، فغرفتي الّتي استأجرتها أربعة جدران وسقف وتحتاج إلى بعض الأساسيّات. اشترينا غازاً صغيراً أتدبّر أمور الطبخ عليه، وبعض الصّحون، وركوة قهوة، وإبريق شاي، وإسفنجة، ووسادة صغيرة ولحافاً، بالإضافة إلى حصيرة صغيرة وضعتها تحت إسفنجتي الّتي سأنام عليها. ارتحت قليلاً وشعرت باستعادة استقلاليّتي وكرامتي الّتي أهدرت.

أي، وماذا بعد؟ مضت الأيّام ثقيلة كأجواء الكويت الحارّة المحمّلة أحياناً بالغبار الّذي يجعل المرء يختنق. كان عليّ تحقيق مسألتين كي أستمرّ في الكويت، الأولى: تأمين عمل، والثّانية - وهي الأهمّ الحصول على إقامة قانونيّة، وهذا أمر ليس سهلاً. أملت بالحصول عليها عبر صحيفة السّياسة الكويتيّة لكنّ أملي خاب.

إسماعيل الحاج مصطفى وكثير من السّوريّين قالوا بإمكاني شراء إقامة، إنّما يصل سعرها إلى حدود ثلاثمائة ألف ليرة سورية، ولا أملك هكذا مبلغ، كان من الممكن أن أدفع قسماً منه وأكمل بقيّته بعد أن أعمل كما وُعدت، وخاصّة من قبل إسماعيل، إنّما بعد كلّ ما جرى خرس هاتفي تماماً، وخلا الزّيارات المتقطّعة جدّاً لجاري خليل؛ لم ألتقِ لا إسماعيل، ولا أيّ سوريّ آخر، فأفراد الجالية الرّقّاويّة الصّغيرة الّتي تعرّفت عليها في البداية؛ تعاملوا معي فيما بعد كالأجرب، ولم يتواصلوا معي مطلقاً. قلت في سرّي (يا ولد الغريق يتعلّق

بقشّة)، وأقنعت ذاتي بمهاتفة معن شريطي وفيصل القاسم وأشرح لهما وضعي، وأنّ برنامجهما جلب لي كلّ المصائب والويلات، علّهما يساعداني في تأمين عمل يخرجني ممّا وصلت إليه. تواصلت ومعن عبر الإيميل حوالي أربع مرّات. كنت أرتاد مقاهي النّتّ كي أتابع بشكل مقتضب الأخبار، وإن كانت هناك إيميلات أريد أرسالها أو أردّ عليها، لكنّي لم أكن أمكث طويلاً في تلك المقاهي لغلاء أسعارها آنذاك عام ٢٠٠٥، وميزانيّتي حينها لا تسمح لي ببعثرة ما أملك من مال قليل. كان معن دمثاً ومتعاوناً، أعطاني اسم وعنوان أحد المسؤولين في اتحاد الصّحافيّين الكويتيّين لا أذكر اسمه الآن، على أن أتّصل به وأبلغه أنّ هناك توصية باسمي من قبل فيصل القاسم شخصيّاً. ذهبت أكثر من مرّة إلى العنوان المحدّد ولم أستطع لقاء الشّخص. كان في سفر دائم، وعلى ما يبدو أنّ الكويتيّين لا يقيمون في الكويت!

ينست من مشاويري الّتي كانت تكلّفني كثيراً بسبب آجار التّاكسي المرتفع، فلم أعاود الذّهاب إلى النّقابة، ولم أعاود الاتّصال بمعن أيضاً. شعرت أنّي أريق ماء وجهي لو واظبت على الاتّصال. لم يكن أمامي من خيار آخر سوى تجديد الإعلان عن اسمي في الصّحف الإعلانيّة بأنّي مدرّس لمادّة اللّغة العربيّة و(على استعداد لتدريس الكبار والصّغار)، لم أعد أفكّر بالإقامة، بل أريد أن أعمل علّي أوقف نزيف ما أملك من نقود بدأت تتقلّص كثيراً.

أوّل هاتف جاءني من طالب كان مفاجئاً وغريباً، كان الصّوت أجشّ، وبعد أن تأكّد أنّي مدرّس لا يشقّ له غبار، طلب منّي أن أعلّمه ابتداءً من الصّفر فوافقت، لمّا سألته عن سنّه، قال: في أواخر العشرينيّات، لم أعلّق، وقلت له أن لا مشكلة لديّ، لكنّه رفض أن آتي إلى بيته لإعطائه الدّرس، وأصرّ أن يأتي هو إلى غرفتي، لم أمانع، ولأنّ وضع غرفتي لا يسرّ، ولم أرد أن أبيّن له سوء حالي؛ تعلّلت بأنّي مستأجر جديد، وليس لديّ حالياً جهاز تكييف والجوّ خانق، ولا أظنّه يحتمل الحرّ. هكذا قلت له. رفض ورفضت، وفشلت في إلقاء القبض على أوّل طالب.

الهاتف الثّاني من امرأة، وكان موعد الامتحانات في الكويت على الأبواب، ومن المفترض أنّ "السّاعات الإسعافية" كما يسمّيها المدرّسون السّوريّون تكثر، أيّ أنّ سوق العمل تزدهر مع اقتراب موعد الامتحانات.

قالت لي إنّ ابنها في الصّف الرّابع، وهو بحاجة إلى من يساعده في مراجعة دروسه. وافقت، وقلت بعد انتهاء المكالمة: (يالله يا ربّ هاي إجا الخير). أعطتني المرأة عنوان البيت، كنت هناك في الخامسة مساءً كما اتّفقنا. بقيت مع الطّفل ساعتين راجعت وإيّاه كلّ دروسه، وعند باب البيت نقدتني والدته عشرين ديناراً كويتيًّا كما اتفقنا، فأجر السّاعة عشرة دنانير، كان سائق التّاكسي الّذي جئت معه عاد وينتظرني، نقدته خمسة دنانير الأجرة المتّفق عليها، وقبل ذهابي إلى البيت أردتّ الاحتفال، فمررت على مطعم قريب، أكلت بنهم ولأوّل مرّة منذ مجيئي إلى الكويت.

المروحة اللّعينة

توالت الأيّام وأصبحت كلّي آذان، كنت أقبض على موبايلي بكلتا يديّ، وأنظر إليه بين الدّقيقة والأخرى، في البيت والشّارع والمول والمقهى والمرحاض، كنت أخشى أن يرنّ ولا أسمعه فيذهب مني "درس خصوصيّ" أعلّق عليه كلّ الآمال.

مرات قليلة رنّ، وكانت لا تتجاوز أصابع اليدين، وكلّ درس لم يتجاوز السّاعة، لتذهب الدّنانير العشرة مناصفة بيني وبين سائق التّاكسي. الحرّ والجوّ الخانق بدأ يشتدّ، دخلنا شهر أيّار، غرفتي تلتهب والمروحة السّقفيّة اللّعينة تأتي بهواء حارّ، فباتت عدوّتي، صوتها يزنّ في دماغي ويحيلني إلى رجل فقد كلّ أعصابه، في اللّيل كنت أتمدّد تحتها مبللاً قميصي الدّاخليّ ببعض الماء، فأغفو ساعة أو أقلّ، وحين يجفّ القميص يتحوّل الهواء إلى لهيب لا يطاق. على هذا المنوال كنت أمضي الليل كلّه، ثمّ أغادر الغرفة فجراً لأجلس أمام مدخل البناية،

معتقداً أنّ الخامسة صباحاً في الكويت تشبه الخامسة صباحاً في سوريا، حيث الصّبح يأتي بهواء منعش، لكن في صيف الكويت لا هواء، وخارج الغرفة كما داخلها، والطّقس في الخامسة صباحاً مثله في الخامسة عصراً. كنت أعود إلى الغرفة منتظراً على جمرٍ اقتراب عقرب السّاعة من الثّامنة صباحاً، أرتدي لباسي وأذهب إلى مول قريب، أعبّئ صدري بهواء لطيف صارد من مكيفات ضخمة لا تُرى.

فكّرت بشراء مكيّف صغير لغرفتي، لكنّ سعره سيلتهم نصف ما معي، وما تبقّى معي من مال لا يتجاوز ستّين ألف ليرة سوريّة من أصل مائتي ألف ليرة كنت قد جلبتها معي، و"كرت الزّيارة" سينتهي أوائل حزيران، كان الوقت يمضي، ولا أزال عالقاً في أوّل النّفق!. خليل في كلّ مرّة يراني فيها يسألني عن إقامتي، ومتى تنتهي مدّة "كرت الزّيارة"، ويلمّح لي أنّه لا يستطيع الاستمرار في إبقاء الاستوديو على اسمه بعد انتهاء المدّة، فلو علمت السّلطات الكويتيّة بذلك فإنّها تسفرّه وتنهي إقامته. الرّجل معه حقّ، ولا أقبل أن أسبّب له أيّ أذى، فقد تعامل معي بنبل عندما تخلّى الجميع عنّي. قبل أسبوع من موعد انتهاء إقامتي؛ قرّرت العودة إلى سوريا، وذهبت إلى مكتب "السّوريّة للطّيران"

الكويت – دمشق – حلب

قالت مضيفة الطّائرة إنّنا وصلنا دمشق، وسنمكث فيها ساعة، ثمّ نتابع الرحلة إلى حلب. مرّت السّاعة كأنّها الدّهر كلّه، بين دقيقة وأخرى كنت أتوقّع قدوم ضابط أمن يجرّني خارج الطّائرة، لتبدأ رحلة عذاب جديدة أشدّ وأقسى من كلّ حرارة الكويت. مداخلتي على الجزيرة كانت قاسية جدّاً بحقّ النّظام السّوريّ، وقولي (النّظام السّوريّ مسؤول بأحيائه وأمواته عما حدث) كانت تخيفني. عشت مونولوجاً داخلياً تلك السّاعة أوّنب ذاتي: هل كانت كلمة "أمواته" ضروريّة؟ أما كنت قد اكتفيت أيّها الأحمق بكلمة "أحيائه" فقط؟ لماذا

لا تفكّر بهذه السّاعة الّتي أنت فيها الآن؟ هل تستحقّ مداخلة لم تتجاوز خمس دقائق سجناً قد يصل إلى خمس سنوات؟ لم أستيقظ من هذا المونولوج والهذيان إلاّ والطّائرة تغادر إلى حلب. تنفّست قليلاً، إنّما لا تزال طائرتي معلّقة في الأجواء السّوريّة، وعندما ستحطّ في حلب؛ ربّما حينها سيفرّ قلبي من بين ضلوعي، ولا أدري أين سيحطّ.

في حلب كان كلّ همّ ضبّاط الجمارك والشّرطة كيف ينتزعون المال من المسافر، فهذا مائة ليرة، والأعلى رتبة خمسمائة ليرة، والموظّف الصّغير خمسون ليرة، فالقادم من الكويت أو الإمارات أو السّعوديّة جيوبه ملأى بالدّنانير أو الدّراهم أو الرّيالات، ومهمّتهم كيف يشلّحونه إيّاها، وإلا أعادوا تفتيش حقيبته ألف مرّة حتّى يفهم ماذا يريدون. في قاعة الانتظار كانت رنا ورسميّة ابنتا شقيقتي ومعاذ صديقي ينتظرون القادم الخائب من الكويت. ركبت في سيّارتهم الّتي توجّهت بنا مباشرة إلى الرّقّة.

في اليوم الثّاني استُدعيت لـ"شرب فنجان قهوة" في مكتب العقيد تيسير كحلة معاون رئيس فرع الأمن السّياسيّ في الرّقّة حينها، وشرب القهوة تعبير شائع في سوريا في الأوساط المعارضة.

بكلّ صراحة أقول إنّي لم أستطع كره هذا الرّجل، على العكس من ذلك، كنت أأنس له رغم قفّازه المخمليّ، وقبل أن يبادرني بأيّ شيء ونظراً لاستدعاءاته المتكررة لي بتّ أعرفه، قلت له مباشرة وهو يستقبلني في مدخل مكتبه الواسع: (أكيد مزعوج من مداخلتي في الجزيرة؟)، ردّ بابتسامة: (بالعكس، كانت مداخلة جيّدة)، وتابع: (يفترض أنّ يسوّوا ملفّ الثّمانينيّات وننتهي منه)، ولم ينس أن يسأل غامزاً بعينه (ولكن من تقصد بأمواته؟).

انتهى اللّقاء سلساً، وبدل أن يطووا ملفّ الثّمانينيّات، طُوي ملفّي عند هذا الحدّ. وفي تلك اللّحظة.

الفصل الثالث

مسقط الرّأس

رغم كلّ شيء، رجوعي إلى الرّقّة حرّك وأجرى النّسغ فيّ، وأعاد إلى روحي توثّبها. كنت أقول دائماً: (أنا كالسّمك متى خرج من الماء مات، وعندما أغادر الرّقّة أموت). فالأماكن تحتفي بناسها، وأن أعيش في أجمل مدن العالم لكن من دون أهل وأصدقاء ولمّات وسهرات؛ فلن أستمتع بجمال المكان الّذي أعيش فيه.

الحواري والأزّقة والذّكريات نقوش ارتسمت في مجرى الرّوح، هي المعادل لمعنى الحرّيّة. قد يستغرب البعض تلك المزاوجة، فما علاقة الحرّيّة بالغربة والشّوق. لا سعادة حقيقيّة في الغربة، قد يستعاض عنها بالإنجاز، بالنّجاح، بالشّهرة، بالمال، إنّما خلاصة السّعادة الّتي تضجّ بالفرح وتطير بي بأجنحة عالية ومحلّقة غير موجودة.

في غربتي سواء في لبنان أو الكويت أو كندا الّتي أكتب منها الآن؛ أدركت معنى كلمة "مسقط الرّأس"، ومعنى أنّ فلاناً أعيد جثمانه ليدفن في مسقط رأسه، وفلاناً عاد إلى مسقط رأسه بعد قضائه ثلاثين عاماً في المغترب، وفلاناً قرّر أن يمضي أواخر أيّامه في منزله الهادئ ليقضي أيّاماً هانئة مما تبقّى له منها أواخر العمر، ولا يموت في الغربة. هذا حال المغتربين، لا استقرار في المكان، وبوصلة الروح تشير دائماً إلى سمتها، مسقط الرّأس هو شمالها الّذي لا يحيد.

تلك هي العلاقة مع الحرّيّة. أليست الحرّيّة "ارتواء"؟

فتّشت في قواميس اللّغة العربيّة لأروي ظمئي، علّي أعثر على مرادف يروي تماماً معنى هذه المفردة، لم أجد. الغربة هي تشقّق الرّوح، العين الكسيرة، ضياع العلامات الفارقة في زحمة المدن، في زحمة المترو في اصطخاب الأنفاق، تغدو بلا ملامح، تكنّى بلونك أو قوميّتك أو ديانتك؛ ينسحب اسمك إلى الوراء، وإن نوديت به تتشوّه حروفه، ويغدو اسمك غير اسمك.

أبحث عن صحن الفول، ذاك الّذي يشكّل صبغة قوميّة أو وطنيّة كما عبّر مرّة أحد الكتّاب العرب. أظنّ أنّه المرادف الحقيقيّ لمعنى "ارتواء" صحن الفول يوم الجّمعة ليس طبقاً عاديّاً، أو نفساً دنيئة تتشهّى ما لذّ وطاب، إنّهم أناس ملتصقون مع بعض، رؤوسهم قريبة من بعضها، يحملون ملاعقهم ويغرفون من صحن واحد، لا يقرفون من رائحة البصل المنبعثة منهم، لأنها رائحة الحبّ، وللحبّ رائحة أقوى من شانيل، وكريستيان ديور، وكلّ ماركات العطر الباريسية.

الحرّيّة ليست فقط حرّيّة تعبير وإبداء موقف سياسي من دون تبعات ديكتاتورية، إنّها أكبر من ذلك بكثير، فهنا في منفاي اكتشفت أنّ أيّ شخص متوارٍ في سوريا في قبو حقير تنبعث منه كلّ الرّوائح العفنة هو حرّ أكثر منّي، وأيّ شابّ يتظاهر ضدّ النّظام المجرم حرّ أكثر منّي. ما نفع حريّتي هنا وأنا أعاني الحرمان من كلّ شيء. أتشهي المشي في الحارات، أتشهى كأس عرق مع أصدقاء حميمين يتظاهرون ويدخلون إلى الزّنازين تباعاً، أتشهى لقاء فتاة من فتيات سوريا تأتيني تحت جنح الظلام، أتشهى معانقة وجوه أحببتها، أتشهى زيارة قبر أمي، أتشهى السّفر في باصاتنا بين المدن السّوريّة، أتشهى أشياء كثيرة، وحرماناً يراكم فوقه آخر.

دون تسلسل زمنيّ قفزت من عام ٢٠٠٥ إلى ٢٠١٤، حيث الثّورة السّوريّة في عامها الرّابع تدخل في مأزق خطير. جرجرني "الكيبورد" الّذي ألفظ منه

حروفي وأنفاسي في متاهات الغربة وتشققات الرّوح، غامت الصّور أمام ناظريّ، وقفزت تتراقص أمامي شاحبة من الكويت إلى الرّقّة إلى ڤانكوڤر في لحظة لا مجرى للزمن فيها، فقد امّحت كلّ المسافات، وتوقّفت السّاعة في تجمّد بليد.

سوريا والذّهاب إلى الوراء

في سوريا عام ٢٠٠٥، والرّقّة الّتي عدت إليها، لا حوادث كثيرة تستحقّ الذّكر، خلا عنواناً وحيداً وكبيراً: عقارب السّاعة تمشي إلى الوراء، والسّوريّون تواطأوا على الصّمت. في تفاصيل ذلك العنوان الرّئيس والوحيد؛ السّوريّون رهائن نظام "الجملكيّة"، ومنظّمات حقوق الإنسان الدّوليّة تصنّف سوريا بأنّها من أكثر دول العالم استبداداً وفساداً، وأكثر الجمل ترديداً من قبل السّوريّين (الوضع أشبه ما يكون بقنبلة موقوتة لا أحد يعرف أحد متى ستنفجر).

تلك الأيّام سرت إشاعة بأنّ الرّئيس الوريث يعتزم الإفراج عن مجموعة معتقلين سياسيّين قبيل سفره إلى نيويورك لإلقاء كلمة سوريا في الأمم المتّحدة خلال "قمّة الألفيّة"، لم يذهب الرّئيس الشّابّ كما كان يأمل، واستمرّت أفواج المعتقلين في حركة ذهاب وإياب من وإلى السّجون. الاغتيالات استمرّت في لبنان، وكلّ الّذين قُتلوا كانوا من أشدّ أعداء النّظام السّوريّ، بدءاً من رفيق الحريري، وانتهاءً بجورج حاوي وسمير قصير، وما بينهما من رموز ثورة الاستقلال والانتفاضة ضدّ نظام الوصاية السّوريّ. لم ينتهِ العام قبل اضطّرار الوريث لسحب قواته من لبنان ذليلاً بعد أن رأى العصا الأمريكيّة جادّة هذه المرّة بشجّ رأسه.

استقرّ بي المقام بعد عودتي من الكويت في بيت أختي المجاور لفرع أمن الدّولة!

نحن والقمر جيران. كان الفصل صيفاً، ولا عمل لديّ، أصبحت كائناً ليليّاً، وتعرّفت خلال تلك اللّيالي على الكثير من الكتّاب والرّوايات، أضعها إلى جانب فراشي في الخامسة أو السّادسة صباحاً، بعدها أذهب للنّوم.

محلّي العتيق لتركيب العطور كنت قد رهنته عاماً بمبلغ مائة ألف ليرة سوريّة قبيل سفري، كنت بحاجة إلى المال لأغطّي تلك السّفرة المشؤومة. دخلت في مفاوضات مع الشّخص صاحب المبلغ لاسترجاع المحلّ، وبعد جهد كبير أعدتّ له المبلغ بعد أن استدنت أكثره، فعاد إليّ محلّي الّذي رافقني في مراحل مهمّة من حياتي، لم أستطع التّخلي عنه، ولا هو أيضاً، وظلّت علاقتي بالعطر أقوى من كلّ العلاقات.

الذّهاب والإياب من وإلى المقبرة

لا شيء يستحقّ الذّكر في سوريا. ماذا أكتب عن تلك السّنوات الثّلاث ٢٠٠٥ ـ٢٠٠٨؟! النّاس يمشون في الشّوارع وكأنّهم في جنازة كبيرة، يحملون تابوتاً خشبيّاً ويمضون به، لكنّهم لا يصلون إلى المقبرة، والطّريق كلّما تناهبوها زادت طولاً، وزادت طوابير المشيّعين. النّاس يمشون بصمت ورؤوسهم منكّسة، أطفال، نساء، شيوخ ورجال، وكأنّ إسرافيل نفخ في الصّور. هل كانت تدرك تلك الجموع إلى أين تمضي؟! ربّما تعرف، وتعرف أنّه حتفها، فقرّرت الانتحار هكذا، كلّها دفعة واحدة. ماذا يوجد في التّابوت؟ يقال إنّ الجموع تواطأت ووضعت فيه أرواحها، وتتهيأ في حفل مازوخيّ لإلقاء النّظرة الأخيرة عليها.

بعد دفن أرواحهم، استمرّ السّوريّون ولسنوات طويلة في رواحهم ومجيئهم من دون هدف. عيون غائرة، وجوه شاحبة، وأرجل تجرّ أجساداً فوقها، وقد اعتلّت ووهنت، وتكاد تسقط عند كلّ منعطف أو زاوية. لا شيء يستحقّ الذّكر في سوريا، تاريخها هو الذّهاب والإياب من وإلى المقبرة.

الفصل الرابع

حلب الّتي كانت تهرم

من قبري المدفون به حياً، تراءى لي من بين الشقوق أنّ يداً تمتد نحوي، أهلت التراب جانباً، صعدت إلى أعلى مستعيناً بقبضتي، لاقت يدي اليد الممدودة، سحبت جثتي، أخرجتها ومشيت بها. قدحت الدماغ وأشعلت فتيله، لا يزال فيه شيء يعمل، لم يعطب بالكامل، ناقشت الأمر مستفيضاً مع جثث أخرى، رفضت تلك الجثث القرار الّذي اتخذه دماغي، دافعها إلى الرفض كان عاطفياً، فلا يزال في تلك الجثث قلب ينوس.

قالت لي أختي شريفة، وكنت ألمح دمعة في عينها يمنعها كبرياؤها من السقوط: (إذا ذهبت لن نراك ثانية).

كانت فرصة ذهبية – هكذا اعتقدت آنذاك - ولا أودّ أن تفلت منّي. خليل الحاج صالح هو من جلب العرض معه بعد زيارته الخاطفة إلى لبنان.

كان حلمي أن أكون كاتباً أو صحفياً، وها هي الأقدار تقدّمها لي، ولا مبرر للرفض. عندما نجحت في البكالوريا عام ١٩٨٣ الفّرع الأدبيّ حلمت بدراسة الصحافة، إنّما في تلك السّنة قيل لي إن المعهد العالي للصّحافة لا يقبل إلا دارسي الفّرع العلميّ، إضافة إلى شروط يتوجب على الطّالب تحقيقها، ومن بينها أن يكون عضوًا عاملاً في حزب البعث العربيّ الاشتراكي، وهذا الشّرط لا ينطبق عليّ أبداً، لست عضواً ولا عاملاً!

كنت أكره دراسة الحقوق، وأنظر إلى المحامين في بلدي بأنّهم "بطالة مقنّعة"، لا يختلفون عن أيّ سوبر ماركت يبيع ويشتري، كما كانت النّظرة إلى

المعلّمين والتّدريس في سوريا متدنيّة، لكن (الشّغل مو عيب)، هكذا كانت النظرة الشّائعة إلى عملهم، فدور المعلّمين ومعاهد المدرّسين لا يأتي إليها إلاّ أصحاب العلامات الدّنيا والطّلبة غير المتفوّقين.

لا أدري كيف صار اسمي في "قوائم المفاضلة"، لأجد أنّي مقبول في كلّيّة الاقتصاد والتّجارة، كما يمكنني التّسجيل في كلّ الفروع الأدنى منها، أعجبني اسم اقتصاد وتجارة، لا أدري لماذا، ربّما غرورًا ركبني بأنّ تلك الكلّيّة هي الأعلى من حيث معدل علامات القبول بالنّسبة للفرع الأدبي، فيما معدّلات القبول أدنى في الكليّات الأخرى مثل الحقوق والفلسفة وغيرهما.

ناقشت كثيراً مع الزّملاء والأصدقاء من أقراني ماهية المقرّرات الدّراسيّة في كلّيّة التجارة، وهل هي صعبة، وما مدى حضور الرياضيات فيها؟ كانت تؤكّد الإجابات على أنّ لا صعوبة تذكّر فيها.

هو طيش الشّباب ربّما، وغياب الأب أو الأخ الأكبر الّذي ينصح ويساعد، خاصّة في مثل السنّ التي كنت فيها، حيث مفترق الطّرق. ذهبت إلى الكلّيّة الّتي لم أفكّر فيها يوماً، وأصبحت طالباً في كلّيّة الاقتصاد في جامعة حلب. أمضيت فيها حوالي ربع قرن ثمّ تخرّجت.

طالب مثلي يكره الأرقام والرّياضيّات يفترض أن يداوم بشكل نظاميّ في الكلّيّة، لكنّي أمضيت فيها فصلاً دراسياً واحداً كطالب نظامي أحضر المحاضرات، وأتسكع في مقاصف الجامعة، وتحديداً في مقصف كلّيّة الآداب الّذي كان يتميز بفتياته الجميلات، وأذهب أيضاً إلى المكتبة المركزيّة أدرس هناك.

حلب كانت عشق أهالي الرّقّة، تلك المدينة الصّغيرة الّتي يأتيها كلّ شيء من هناك. لكن حلب الّتي أتذكّرها صغيراً عندما كنت أزورها رفقة أبي أو بعض أقاربي في السبعينيات، ليست حلب ١٩٨٣

حلب المدينة الّتي كانت لا تنام؛ بدا وجهها شاحباً، وكان هناك قرار يلزم محالها بالإغلاق في الثامنة مساء، باستثناء المطاعم وبعض المحال الأخرى.

لا أزال أتذكّر في مراهقتي عندما كنت أحاول اقتحام الحياة؛ طابور الطّلبة الّذين ينتظرون أمام مدخل الجامعة بانتظار تفتيشهم بدقّة وبشكل مهين وممل من قبل العساكر وعناصر الأمن، وأحياناً من قبل طلاّب الاتّحاد الوطنيّ لطلبة سورية، وهو واحد من المنظّمات الكثيرة الّتي أنشأها حزب البعث الحاكم.

لا تختزن ذاكرتي الكثير مما جرى لحماه وحلب وجسر الشغور في حرب النّظام الشاملة ضد المجتمع السّوريّ بحجة القضاء على الإخوان المسلمين، لكنّ عوقبت حلب كما لم تعاقب مدينة، وباتت المدينة تهجع باكراً في فراشها، تمسّد أوجاعاً لن تنتهي! أنهيت الفصل الدّراسيّ الأوّل من السّنة الأولى، وعدت نهائياً إلى الرّقّة.

كنت طالباً متفوّقاً في الصّف التّاسع حين مات أبي، قبلها، وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة أوصى خالي بي: (أوصيك بأحمد، أوصيك بدراسته)، لكنّ خالي الميسور لم يفِ بوعده، وقطع عنّي المصروف بعد شهرين أو ثلاثة. بقيت أمّي الأرملة تكافح لاستمرار راتب تقاعد أبي، عندما التحقت بالجامعة لم تكن تستطيع إرسال مصروف شهري لي دائماً، وإن فعلت تقتطعه من أفواه إخوتي الصّغار. قرّرت العودة، وبدأت رحلتي في العمل.

معلّم وكيل

قصّة "المعلّم الوكيل" في سوريا سفر خاص، تلخّص تاريخاً لهذا البلد الّذي كان يكوّر ويولد خارج ما يسمّى علم التّخطيط والاستشراف وكيفيّة صناعة المستقبل.

المعلّم الوكيل؛ وظيفة تدرّ راتباً شهريّاً مقداره ٧٥٠ ليرة سوريّة في الثّمانينيّات، حيث سعر صرف الدّولار الأمريكي آنذاك لا يتجاوز سعر

الصّرف الرّسميّ بأكثر من خمس ليرات سوريّة، لكنّ المعلّم الوكيل لم يكن يتقاضى راتبه نهاية كلّ شهر، بل تجمع الرّواتب لتصرف مرّتين في العام، فتصطّف الطّوابير الطّويلة وكأنّ النّاس في يوم الحشر. أمّا كيف يصبح المرء معلّماً وكيلاً؛ فهذا سهل، خاصّة إن لم يكن لديه مانع في الذّهاب إلى الرّيف البعيد، والتّدريس فيه.

مدارس المدينة أو الرّيف القريب تلعب "الواسطة" دوراً كبيراً للحصول على مكان فيها، لكنّ الفتاة الجميلة جدّاً لا تحتاج إلى ذلك، فيتسابق لخدمتها الموجّهون التربويّون الّذين تجتمع في شخصيّاتهم كلّ عقد الذّكورة في مجتمع شرقيّ، ويمكن أخذهم كمقطع عرضيّ لدراسة كلّ عقد التّخلف.

يستطيع المعلّم الوكيل التّدريس في المدارس الابتدائيّة من الصّف الثّاني إلى الصّف الخامس، وأذكر تماماً في الرّقّة ونتيجة النّقص الكبير في أعداد المعلّمين المؤهّلين – كان يمكن للحاصل على الشّهادة الإعداديّة الحصول على وظيفة معلّم وكيل، لكنّه ممنوع من تدريس الصّفين الأوّل والسّادس وفق الفلسفة التّربويّة لوزارة التّربية، حيث يشترط أن يكون المدرّس فيهما حاصلاً على الشّهادة الثّانويّة.

انتشرت هذه الظّاهرة الّتي أضرّت كثيراً بالتّعليم في المحافظات النّامية، أيّ الرّقّة والحسكة ودير الزّور كما انتشرت أيضًا في ريف حلب وإدلب وريف دمشق، حيث النّقص هائل في الجهاز التدريسيّ فيها.

في سوريا؛ المعلّم الّذي يتخرّج من المعهد أو دار المعلّمين أو الكلّيّات الجامعيّة، والّذي يفترض أن يتوجّه إلى التّدريس، يعاني من نقص هائل في أدوات العمليّة التربويّة والتدريسيّة، فكيف هو الحال مع من هو حاصل فقط على الثّانويّة العامّة أو الشهادة الإعداديّة وسيضّطلع بمهنة التّدريس. تلك الظّاهرة ظلّت مستمرّة حتّى ما قبل الثّورة السّوريّة؛ وهي جريمة حقيقيّة بحقّ أجيال تضرّرت كثيراً.

بقيت معلّماً وكيلاً في الرّيف القريب من الرّقّة والأبعد لسنوات عديدة ومتقطّعة، لكن لا استمراريّة في العمل، فقد أذهب إلى المدرسة يوماً لأجد معلّماً أصيلاً تخرّج حديثاً وجاء ليحلّ محلّي، فالأولويّة دائماً له، أو ربّما يحلّ محلّي معلّماً وكيلاً له "واسطة ثقيلة" وأكبر من واسطتي؛ ليأخذ مكاني الّذي كافحت كثيراً للحصول عليه، فأجرّ أذيال خيبتي وأعاود البحث من جديد عن مدرسة أخرى فيها شاغر نتيجة إجازة مرضيّة لمعلّمة أصيلة أو معلّم أصيل، أو بسبب إجازة الأمومة الّتي تحصل عليها المعلّمة الّتي تلد، وتمتدّ إجازتها حتى ثلاثة شهور، ثمّ تمدّدها شهراً آخر بنصف الأجر. كنّا نتندّر نحن الوكلاء، متمنين أن تلد المعلّمة ولداً آخر كي نستمرّ في أماكننا.

من مدرسة إلى أخرى، وفي رحلة عذاب لا تنتهي، وبمقابل ماليّ لا يسدّ جوعاً؛ كنت أقضي أيامي، لذلك قرّرت ترك هذه المهنة والهروب إلى الأمام للاستفادة من الزّمن، عاقداً العزم على إلغاء تأجيلي الدّراسيّ، والالتحاق بخدمة العلم.

في جيش أبو شحّاطة

نظر إلينا المساعد في شعبة التّجنيد وأثنى على قرارنا (الوطنيّ والرّشيد)، فلم يصادف في حياته العسكريّة المديدة كما قال (شباباً شجعاناً يقرّرون من تلقاء أنفسهم إلغاء تأجيلهم الدّراسيّ للالتحاق بالخدمة العسكريّة). قلت له: (أودّ اختصار الزّمن. عليّ الانتهاء من خدمة العلم والتّخرّج من الجامعة في ذات الوقت). حيث يحقّ للعسكريّ إجازة مدّتها شهر يقدّم خلالها امتحاناته الجامعيّة.

اتّخذت وأحمد الحجّي وإحسان عبود صديقاي الأقرب ذلك القرار. ذهبنا في يوم واحد إلى "الجّيش العربيّ السّوريّ" أردنا الاستعاضة عن نار الحياة برمضاء الجيش، معلّلين النّفس بأن ننهي خدمتنا العسكريّة الإجباريّة، علّ كوّة من أمل - بعد ذلك - تفتحها لنا الحياة.

أردنا أن نكون سويّة، نخفّف من جحيم الخدمة العسكريّة وإذلالها الّذي لا ينتهي. في حلب أعطونا الفرز، وكان لنا ما أردنا، أُرسلنا جميعاً إلى الفرقة العاشرة في مدينة قطنا في ريف دمشق. أمضينا ستّة شهور في دورة الاختصاص، التحقت وإحسان بدورة قائد دبّابة، أما أحمد فقد التحق بدورة المشاة كقائد عربة مدرعة بي إم بي، وكان يبعد عنا قليلاً. بعد إنهائنا الدّورات ذهبنا إلى لبنان، إنّما كلّ كان في مكان. أحمد أمضى خدمته في مناطق البقاع القريبة من شتورا في اللّواء ٩٣ مشاة، وإحسان في اللّواء ٥١ دبّابات الّذي كان عام ١٩٨٨ في منطقة خلدة القريبة من بيروت، فيما أنهيت خدمتي العسكريّة نهاية عام ١٩٩٠ في اللّواء ٦١ دبّابات في المتن الشّماليّ، في بولونيا وضهور الشّوير ومناطق أخرى.

كنت أتساءل: لماذا نحن هنا؟ لماذا تهدر سنوات الشّباب الأولى وتذبح فاعليّتنا وطاقاتنا في جيش أبو شحّاطة؟ ما الجدوى وما النّتيجة الّتي سنجنيها؟ أسئلة كثيرة عبثية والإجابات صفر، في جيش صفر، في عالم صفر، لإنسان صفر بلا معنى ولا هدف.

عون والجنديّ السّوريّ الّذي قتل قائده

هكذا هو جيشنا "العقانديّ" كما يطلق عليه، كنّا نعد الأيّام، ومتى "نتسرّح" على أمل العودة مجدداً إلى حياتنا المدنيّة. كنّا نقول (بالتّسريح) عندما نريد المباركة لشخص على عمل قام به، أو ننهي طعامنا أو بعد شرب الشاي وشكر المضيف؛ وأيّ شيء كنّا نلحقه دائماً بهذا الأمنية، وهي أقصى أماني العسكري المجنّد. كثيرون كانوا يحسبون مجموع خدمتهم الإلزامية بالدّقائق والساعات، والبعض يبالغ ويحسبها بالثّواني ليخرج بأرقام فلكيّة! غير أنّنا كنا نتحاشى ذكر تلك التّهنئة في حضرة مجنّد أو ضابط متطوّع، فلهذه الكلمة الّتي لها وقعها المؤذي عليه يكرهها ويوبّخنا لقولها، فنضطرّ لاستبدالها (بالنّصر). لكن النّصر على من؟!

كانت ضهور الشّوير خطّاً أماميّاً للجّيش السّوريّ في تلك المنطقة من لبنان، والخطّ الأماميّ في اللّغة العسكرية يعني أنّ الجنديّ مرابض أمام عدوّ ويتحيّن الفرص إمّا للهجوم عليه أو اتّقاء شره، والعدوّ حينها ليس إسرائيل، إنّما كانت ميليشيا قائد الجّيش اللّبنانيّ السّابق عماد عون، فمحارسنا لا تبعد عن محارسهم سوى أمتار قليلة.

في تلك الأمتار الفاصلة مجنّد سوريّ من محافظة الحسكة أفرغ مخزن رصاص روسيّته كاملاً في رأس الملازم أوّل قائده المباشر، ولم يكلّفه هروبه والنّجاة سوى القفز ليصبح في الطّرف الآخر، فاحتفت به بعض القنوات التّلفزيونيّة اللّبنانيّة ليحدّثها عن سبب هروبه، ولماذا قتل قائده المباشر.

كان يتحدّث بصدق ومعاناة حقيقيّة، بصرف النّظر عن توظيف كلامه من قبل تلك القنوات لمآربها الخاصّة، والضّابط القتيل مثل كثيرين من ضبّاط الجّيش العربيّ السّوريّ، كان يتعامل بعنجهيّة وإذلال مع ذاك العسكريّ الّذي فاض كيله بعد أن كلّفه الضّابط بتنظيف غرفته و"تشميس" بطّانيّاته، وغيرها من الأعمال المتدنّية، وبدل أن يشكره بدأ يوبّخه وإهانته وضربه لتقصيره في أعمال النظافة، فما كان من العسكريّ إلا التقاط باردوته مفرّغاً كلّ ما فيها من رصاص وما فيه من قهر في قلب ورأس قائده، ثم فرّ مباشرة إلى الجهة المقابلة بقفزة واحدة.

تكرّرت حوادث قتل الضّباط، وتكرّر الفرار العسكريّ كثيراً في لبنان. فالمجنّد الّذي يؤدي خدمته الإلزاميّة يحتاج إلى صبر أيّوب ليحتمل كمّ الإهانات الّتي ترافقه حتّى انتهاء خدمته، ينجو منها فقط أولئك الميسورون ماليّاً الّذين يدفعون لضبّاطهم المباشرين مبالغ شهريّة متّفق عليها، ليقضوا الخدمة في منازلهم، ولا يأتون إلى قطعهم العسكريّة إلا مرّة واحدة في الشّهر، ينقدون رئيسهم المباشر المبلغ ثمّ يغادرون. تلك الظّاهرة الّتي أطلق عليها "التّفييش" باتت معروفة في جيش أبو شحّاطة.

بروباغندا إعلاميّة متبادلة

أوائل عام ٢٠٠٨ كثر الحديث في أوساط المعارضة السّوريّة عن مشاريع إعلاميّة تحاول اختراق الصّورة وتفنيد البروباغندا الإعلاميّة الّتي ينفرد بها النّظام السّوريّ عن الأوضاع في سوريا، هذا من جهة، ومن جهة أخرى تريد المعارضة إيصال صوتها وبرنامجها إلى السّوريّين أوّلاً، ثمّ إلى العالم. هذا الهدف بالتّأكيد يستحقّ أن تنصبّ عليه كلّ الجهود البشريّة والماديّة والإمكانات والخبرات، فالإعلام حجر الزّاوية وضرورة قصوى في أيّ مشروع تغيّير، ولتعرية الاستبداد وفضحه بهدف إسقاطه، ولا يمكن في وضع كالوضع السّوريّ الاعتماد فقط على إعلام بائس يتمثّل بمنشورات سريّة لا توّزع ولا تقرأ إلا في نطاق ضيّق جدّاً، وهي عموماً لا صدى لها، ولا جدوى منها.

من هنا بدأت محاولات لإطلاق أكثر من قناة تلفزيونيّة فضائيّة تحاول شرح ما يجري في سوريا للسّوريّين وللعالم، ومن هذه القنوات الّتي كانت تتحضّر للانطلاق من الأراضي البلجيكيّة؛ قناة أطلِق عليها بداية اسم "سوريا اليوم"، بهذا الاسم استمرّت في بثّها أكثر من ثلاثة شهور، ومع كلّ تشفير كان يُمارس عليها من قبل النّظام السّوريّ وتشويش على"الحزمة الفضائيّة" الّتي تبثّ منها؛ يتوقّف بثّها فترة قصيرة لتعاود التّسجيل والبثّ من جديد من خلال اسم جديد آخر، حدث هذا ثلاث مرّات، واستقرّ بها الأمر في النّهايّة على اسم "زنوبيا" قبل أن تتوقّف نهائياً، ليس بسبب التّشويش كما قيل، إنّما بسبب انعدام التّمويل، وعدم القدرة على الاستمرار بدفع مبالغ ماليّة باهظة لتشغيلها، وبالتّأكيد لا يمكن إغفال العامل السّياسيّ، وتشابّكه مع جهة التّمويل.

كان خليل يتحدّث لي ولمعاذ الهويدي، لم يكن اجتماعاً رسمياً كوننا ننتسب إلى حزب الشّعب المعارض، إنّما كنّا أشبه بمطبخ صغير لمنظّمة الحزب في الرّقّة، قال إنّه التقى في بيروت - أثناء مراجعة شؤون جامعيّة خاصة به - حسن الهويدي رفيقنا في الحزب ومعتقل سابق فرّ إلى بيروت وكان يتحضّر

للسّفر إلى أمريكا، وشابّ عشرينيّ اسمه عهد الهندي مسؤول مكتب القناة في بيروت أوكلت إليه مهمّة تجهيز فريق عمل تلفزيونيّ خاصّ بمكتب بيروت. وكانت القناة تعمل على تجهيز فريق عمل كامل من المراسلين السّريّين لها في كلّ مدينة ومحافظة سوريّة، وأردف خليل موجّهاً الكلام إليّ: (اسمك مطروح للعمل إمّا في مكتب بيروت كمعدّ ومقدّم، أو مراسلاً سريّاً من الرّقّة تزوّد القناة بما تستطيع عمله من تقارير وريبورتاجات مصوّرة، وسيتمّ تزويدك بعدد من الكاميرات الصّغيرة الّتي ستصلنا قريباً، وهي حديثة جدّاً لا يمكن كشفها، بشكل قلم أو زرّ يعلّق في القميص، وغيرها من المعدّات الحديثة المتطوّرة. أنت من سيختار، إما العمل من هنا، أو الذّهاب إلى بيروت).

قبل ذلك تسرّب خبرٌ عن قرب انطلاق بثّ فضائية تديرها وتشرف عليها جبهة الخلاص، وهي تحالف سياسيّ بين الإخوان المسلمين، الّذين كانوا يضعون أقدامهم هنا وهناك، ونائب الرّئيس السّوريّ المنشقّ عبد الحليم خدّام.

"إعلان دمشق" كان موقفه من الإعلان عن تلك الفضائيّة اللاموقف، وسياسة رياض التّرك المتمثّلة بقوله (لنشجّع كلّ من يرمي حجراً على هذا النّظام) طبعت الموقف من الفضائيّة المزمع انطلاقها، وإن رفض رياض التّرك شخصيّاً - كما أذيع وتسرّب - افتتاح القناة حين بثّ صورتها الأولى، فكان أن أطلّ عليها السّيّد خدّام فيها، ليحاكي في إطلالته تلك بشّار الأسد في احتلاله صور التّلفزيون العربيّ السّوريّ.

كان خليل يملك تصوّراً شبه كامل تقريباً عن معظم ما يتعلّق بالعمل لأنّه سيكون مشرفاً عن الرّقّة ومحافظات أخرى، مشفوعاً ببراغماتيّة سياسية كنّا نتشاطرها سويّاً، على أن نلغي حساسيّات لا جدوى منها، فهذه الفضائيّة لو قدّر لها أن تنطلق بشكل صحيح؛ فسوف تحدث فرقاً جوهرياً في عمل المعارضة السّوريّة، ولقاء العمل في القناة سيتقاضى المراسل حوالي ثلاثمائة دولار لقاء

التّقرير، في حين سأتقاضى مرتّباً شهريّاً مقداره ١٢٠٠ دولار وسكنًا مجّانيّاً إذا قرّرت الذّهاب إلى بيروت.

القرار الصّعب والخاطئ

الأوضاع السّيّئة على المستويّين الشّخصيّ والعامّ؛ ربّما دفعتني لاتّخاذ أصعب قرار في حياتي بالموافقة على العمل في فضائيّة ولدت خديجاً ومشوّهة، وعاشت مشوّهة، وماتت غير مأسوف عليها، بالإضافة إلى البراغماتيّة السّياسيّة الّتي زيّنت بها قراري.

كنت مخطئاً في تقديري وقراءتي السّياسيّة، هذا ما اكتشفته في وقت متأخر، فقد اعتقدت أنّ الفضائيّة ستسهم في عمليّة تغيير طويلة يحتاجها المجتمع االسّوريّ، وستكون منبراً إعلاميّاً مؤثراً يسهم في خلخلة بنية الاستبداد، ويخترق انسداداً وصل إلى مرحلة الاستعصاء في ظلّ نظام فاق في طغيانه كلّ الديكتاتوريّات قديمها وحديثها.

وصلت إلى بيروت فجرًا بتاريخ ٢٣ – ٥ – ٢٠٠٨، كان في وداعي في كراج الباصات في الرّقّة إسماعيل الحامض وخليل الحاج صالح وخليل حمسورك وعروة المهاوش وأحمد الحجّي، كان وداعاً صعباً ومؤثّراً، إذ أدركت وأدركوا أنّ سفري هذا ربّما يكون نهائيّاً، ولا عودة لي إلى سوريا حتّى يقضي الله أمراً يضع فيه حدّاً ليس أقلّ من سقوط النّظام الديكتاتوريّ، حينها قد يعود كثير من السّوريّين إلى أحضان وطن أبعدوا عنه مرغمين.

من بور بيروت ركبت سيّارة أجرة، أنزلني السّائق بالقرب من فندق البريستول حيث كان حسن الهويدي ينتظرني عند زاويته.

الشوارع كانت خالية، وبيروت كانت غافية ترفض مغادرة فراشها. فوجئت بالمدينة حيث المربّعات الأمنيّة الّتي كنت قد سمعت عنها من نشرات الأخبار، وها أنذا في واحد منها.

دقّق العسكريّ اللّبنانيّ في هويّتي، ورأى ما تحتويه حقيبتي، فسح لي طريقاً للمرور. سألت حسن: أين نحن؟ وما اسم هذه المنطقة؟ أجابني مزهوّاً وابتسامته البريئة مرسومة على وجهه كما هو دائماً: قريطم. وأشار لي بيده قائلاً: (هذا قصر الشّيخ). ببلاهة سألت: (أيّ شيخ؟) قال: (سعد الحريري).

كانت المنطقة من البريستول حتّى السّفارة السّعوديّة نزولاً إلى الحمرا؛ مربّع أمنيّ مغلق، على مداخله ومن كافّة الجّهات نقاط تفتيش ومحارس ودشم، وأيّ زائر يتمّ التّدقيق جيّداً في هويّته، لكن يبدو أنّ حسن وبقيّة الشّباب أصبحت وجوههم معروفة للحرّاس الّذين يرابطون هناك، لذلك لم أتعرّض لتفتيش دقيق.

كانت شقّتنا الّتي يفصلها شارع فرعيّ صغير عن سور قصر سعد الحريري معروفة بأنّها "للمعارضة السّوريّة"!. فيما بعد اكتشفت أنّ عدداً من شخصيّات ١٤ آذار تقيم في ذاك المربّع، من سياسيّين وصحافيّين وحزبيّين. غير بعيد عنه، وفي منتصف الشّارع الّذي ينتهي إلى البريستول قادماً من شارع الحمرا؛ كان مربّعاً أمنيّاً آخر يتحصّن فيه القياديّ في الحزب القوميّ السّوريّ أسعد حردان، ذلك الشّارع الّذي أجبرني زميلي عهد الهندي مرات عديدة على عدم المرور به خشية "فلسفات زائدة "من الحرّاس الّذين ربّما يكتشفون من نحن!

قبل قدومي إلى بيروت كنت قد عرفت مِن خليل الحاج صالح أنّ زملائي في الشّقّة الّتي سأقيم فيها هم حسن الهويدي وعهد الهندي وأديب طالب اللّذين لم أكن قد سمعت بهما سابقاً. استعنت بغوغل علّه يقدّم لي بعض المعلومات، عثرت على مقال يتيم لعهد، عرفت من خلاله أنّه اعتقل مدّة قصيرة تتجاوز الشّهر فترة الحراك الشّبابي في جامعة دمشق الّذي تلا ما أشاعه خطاب بشّار الأسد "القسم" من حريّات موعودة ليتضح لاحقاً أنّها كانت خدعة وسراباً، ومن عهد عرفت أنّه غادر سوريا بعيد الإفراج عنه إلى مصر والأردن، ثمّ استقر في بيروت.

اعتقال عهد فترة قصيرة مقارنة بزملائه من أمثال عمر العبدالله ودياب سريّة وطارق الغوراني الّذين أمضوا حوالي خمس سنوات؛ كانت له عدّة

أسباب، ربّما من بينها انحداره من الطّائفة المسيحيّة، ولا يخفى على أحد الشّعارات الّتي يرفعها النّظام السّوريّ بأنّه حامي الأقليّات، والمنصب الرّسميّ المهمّ الّذي يشغله والد عهد في إحدى الوزارات السّوريّة، وكونه أحد المفاوضين الرّئيسيّين من أجل الشراكة السّوريّة الأوروبيّة، وهذان السّببان بالتّأكيد لا يعيبان ذاك الشّابّ الذّكي والطّموح.

أمّا أديب طالب فقد كان في منتصف العقد السّادس من عمره، مارس مهنة الطب في دمشق، ثمّ غادر إلى الولايات المتّحدة الأمريكيّة لحضور أحد مؤتمرات المعارضة السّوريّة الّتي ازدهرت آنذاك، بقي هناك أربع أشهر لكن لم يطب له العيش فيها، فعاد إلى بيروت وعلِق فيها، إذ لم يعد باستطاعته دخول سوريا مخافة الاعتقال، وقد تعرّف إلى مأمون الحمصيّ الّذي كان يقيم في بيروت في ذات المربّع الأمنيّ مع زوجه وأطفاله. في تلك الفترة أسس مأمون "إعلان بيروت دمشق" محاولاً استثمار رصيد "إعلان دمشق" لكن من دون تنسيق مع الإعلان في الدّاخل، كما كان يحاول ضم أيّ سوريّ إلى تنظيمه الوليد. التقت مصالحه مع ظروف أديب الّذي كان يبحث عن ملاذ آمن فوجده في مأمون بميكيافيلّيّة لا يخطئها عاقل، فعملا معاً، مأمون يلقي بتصريحات ناريّة ضدّ النّظام السّوريّ، وأديب يترجمها في بيانات يصدّرانها إلى الإعلام وإلى موقع إلكترونيّ صغير كانا يديرانه. ضاق أديب بتسلطية مأمون - كما كان يعبّر عنها - فحصل طلاق بينهما، ما كان له أن يقع لولا تيقّن أديب من أنّ البديل كان جاهزاً، أي الشّقّة الّتي استأجرها عهد كسكن ومقرّ للفضائيّة المزمع انطلاقها، فهي واسعة وكبيرة وتتّسع لكثيرين. أقام معنا أديب دون أن يكون له أيّ دور في عملنا، إذ كان يكتب في صحيفة المستقبل أسبوعيّاً تقريباً، وكانت مقالاته تدرّ عليه دخلاً لا بأس به يقيه من يوم أسود ربّما يأتي.

فيما كانت تربطني بابن الرّقّة حسن الهويدي صداقة متينة، وعملنا معاً في حزب واحد. كان قد اعتقل في سجن تدمر لسنوات ستّ وعمره لم يصل بعد إلى

العشرين بتهمة الانتماء إلى "بعث العراق"، هرب إلى لبنان ومنها سافر إلى الولايات المتّحدة.

قبل مجيئه إلى بيروت أقام في طرابلس، وعن طريقه التقينا ببعض ممثلي الإخوان المسلمين من أجل تنسيق مشترك لأحوالنا كمعارضين سوريّين في لبنان، وكانت الدّردشات عاديّة استمرّت اللقاءات ثلاث أو أربع مرّات، ولم تتكرّر.

فضائيّة خديج

بعد أقلّ من أسبوع على إقامتي في بيروت بدأت تتكشّف لي مفردات وطبيعة العمل في الفضائيّة الّتي انطلقت في بثّها التّجريبيّ قبل أكثر من شهرين من بروكسل العاصمة البلجيكيّة. الكثير من تصوراتي لطبيعة العمل خابت، فالارتجال كان واضحاً فيها، وعدم الخبرة، وضعف المهنيّة، كما أن إدارة الأمور في مكتب بيروت متروكة للأقدار!

بدايةً اعتقدتّ أنّي سأخضع لدورة في أصول وألف باء تقديم البرامج التّلفزيونيّة، لكن طلب منّي أن أباشر العمل مع أنّي لا أمتلك على الإطلاق أيّ خبرة في هذا المجال، ثم إنّ عملنا كان يشبه عمل المعارضة السّريّ الّذي كانت تنتهجه في سوريا، فالمكتب لا ترخيص له، ولا يمكنني وعهد حمل بطاقة صحافيّة تعريفيّة، ما يعني أنّنا سنعمل خارج القانون. تجاوزنا هذا الإشكال وارتضينا العمل في ظلّ ظروف سيّئة ومعقّدة، وتشكّل خطراً كبيراً على سلامتنا الشّخصيّة، خاصّة وأنّ بيروت لم تكن قد تعافت من اجتياح حزب الله لها في ٧ أيار ٢٠٠٨، أي في ذات الشّهر الّذي وصلت فيه، ووجدت الشّباب ينفضون عنهم هول الرّعب الّذي عانوا منه، فقد اضطرّوا إلى مغادرة البيت أثناء الاجتياح، وهربوا مع الهاربين إلى فندق في الأشرفيّة في بيروت الشّرقيّة.

لقاء من بيروت

كانت تصوّرات إدارة القناة لي شخصيّاً أن أقدّم برنامجاً أسبوعيّاً أو مرّتين في الشّهر حسب الإمكانات المتوافّرة، وفي (لقاء من بيروت) أُستضيف شخصيّات سياسيّة لبنانيّة وغير لبنانيّة، أحاورها حول مجمل الأوضاع السّياسيّة، وخاصّة ما يتعلّق منها بالشّأن السّوريّ.

من أين أبدأ؟ من هي الشّخصيّات الّتي تتجرّأ وتقبل بإجراء حوار مع محطّة مغمورة، وتنطق باسم معارضة سوريّة؟ أيضاً وبعدما آلت القناة كاملة لعبد الحليم خدّام بعد انسحاب "الإخوان المسلمون" منها؛ من سيعطينا حواراً لقناة يمتلكها رجل لا مصداقيّة له، لا في الوسط السّوريّ ولا اللّبنانيّ؟

كنّا في اللّقاءات القليلة الّتي أجريتها؛ عندما نُسأل عن هوية المحطّة نتلعثم ونقول: (جبهة الخلاص).

لم يتوقّف اللّبنانيّون عند تبريراتنا، فقد كانوا براغماتيّين أكثر منّا، ويعرفون طبيعة التّحالفات السّياسيّة، ربّما وحده إلياس عطاالله النّائب اللّبنانيّ وعضو حركة اليسار الدّيموقراطيّ وافق على إجراء حوار معه بعد أن عرف انتمائي السّياسيّ، لكنّه قال: (سأعطيك الحوار كرمى لعيون رياض التّرك، أمّا عبد الحليم خدّام فهذا واحد ....).

اللّقاء الأوّل... المسمار الأوّل

اقترح عليّ عهد أن يكون اللّقاء الأوّل مع أديب طالب، فالرّجل لا يمانع، ويقيم معنا، وهو متحمّس للظّهور. أعجبتني الفكرة، وقلت: (البداية مهمّة، ولا بأس من التّمارين الضّروريّة وبعض البروڤات قبل الانطلاق لإجراء لقاءات أخرى). جلست وأديب بوجود حسن وعهد، وتناقشنا في المحاور الّتي يمكن أن يتضمّنها الحوار وفي العديد من التّفاصيل الأخرى، وأجرينا الكثير من البروڤات.

استقلّينا تكسي أجرة، عهد وأديب وحسن وربيع - الشّابّ اللّبنانيّ الّذي عمل معنا مصوّراً ومونتيراً – وأنا؛ إلى شقّة في منطقة الحازميّة الواقعة على طريق الشّام - بيروت لإجراء التّصوير فيها. كان عهد وقبل يوم واحد من إجراء المقابلة قد استأجر كاميراتي تصوير تلفزيونيّ لأربع وعشرين ساعة مقابل مائة دولار للواحدة، وهكذا دأبنا في كلّ لقاء، فلا أجهزة نمتلكها خاصّة بالقناة عدا جهاز الكمبيوتر الخاصّ بالمونتاج.

هالتني أناقة وسعة الشّقّة والأثاث الموجود فيها وإن كساها الغبار، فقد هجرها ساكنوها، وربّما باتت عودتهم إلى بيروت حلماً مستحيلاً. كانت أشبه بقصر صغير، وعلمنا من عهد الّذي يمتلك مفتاحها أنّها لجهاد خدّام، ويمكننا استخدامها حال احتجناها للتّصوير كما هو اليوم.

٤، ٣، ٢، ١ بدأ العدّ العكسيّ، انطلق التّصوير والتّسجيل. سار الحوار مع أديب طالب كما هو مخطّط له، وعند انتقالي من المحور الّذي ناقشنا فيه "طبيعة وبنية النّظام السّوريّ" إلى المحور الثّاني المخصّص لـ"الفساد والإفساد" الّذي عمل عليهما النّظام السّوريّ ببراعة؛ حدث ما هو غير متوقّع. ففي معرِض كلامه كان أديب يتحدّث عن الخراب الّذي أشاعه النّظام عبر فساده الممنهج، وتدميره بنية وروح المجتمع السّوريّ، ولم أكن على خلاف معه فيما ذهب إليه، إنّما حين بدأ يضرب الأمثلة، بدأ وبلا أيّ اتّساق منطقيّ يكيل المديح لعبدالحليم خدّام، محاولاً تلميعه وتمييزه عن بقيّة رموز النّظام الفاسدة! أمام هكذا كلام، وبانفعال وعصبيّة شديدين؛ طلبت من المصوّر إيقاف التّصوير. فلا يمكن لأيّ معدّ أو مقدّم برامج يمتلك ذرّة واحدة من الكرامة أوّلاً، والمهنيّة ثانياً؛ أن يترك ما يقوله ضيفه ويمرّ دون التّوقّف عنده!

وقف ربيع وحسن بُعيد توقّف التّصوير في زاوية قصيّة من الصّالة الفارهة والكبيرة ينتظران انتهاء الجدل الّذي دار بيني من جهة، وبين عهد وأديب من جهة. احتجّ عهد، وأن ليس من حقّي مصادرة آراء الضّيف، فهو حرّ في أن يقول ما يشاء. قلت له: (هذا يتوقّف أيضاً عليّ، وهل يحق لي متابعة الأسئلة وقول ما أشاء؟)، قال: (نعم). قلت: (إذن سأتابع التّصوير من النقطة الّتي توقّف

فيها، وسيكون سؤالي هو: لكنّ عبد الحليم خدّام أحد رموز النّظام الفاسدة، فكيف تستشهد به في مجال النّزاهة؟)، ثمّ تابعت موجّهاً كلامي إلى عهد: (إذا ضمنت لي أن لا اقتطاع لهذا السّؤال أثناء بثّ الحلقة فلا مشكلة لديّ، أما إذا بُثّت الحلقة من دون سؤالي هذا، وربّما تعقيباتي الّتي ستكون تبعاً لأجوبة الضّيف؛ فإنّي سأكتب حول هذا الموضوع، وسأقلب الدّنيا. لم آتِ إلى هنا لألمع خدّام أو غيره).

كان أديب طالب يتابع جدلي مع عهد وهو صامت تماماً، وقد أحسّ أنّ قدمه زلّت إلى هاوية عميقة. أدرك تماماً أنّ عهد لا يستطيع ضمان أيّ شيء من هذا، لذلك، وبدبلوماسيّته الفائقة؛ اقترح حلاًّ وسطاً، موجّهاً كلامه إلى أديب، بألاّ يذكر اسم خدّام مطلقاً، لا مدحاً ولا ذمّاً وهكذا كان، وبثّت الحلقة بعد أن قصّ ربيع في المونتاج كلّ المديح الّذي كيل لخدّام، لكنّ هذا كان أوّل مسمار يُدقّ في عملي الّذي لم يستمرّ طويلاً في القناة، إذ أعلنت انسحابي منها غير آسف على ذلك.

فساد آل خدّام، الانفصام، الاستقالة

تابعت العمل بعد ذلك، لكن من دون انتظام، فالقناة في مركز بثّها الرّئيس كانت تتخبّط بسبب ضعف الإمكانات الماديّة وقلّة الكوادر المؤهّلة والتّشويش الّذي كان يوقفها تماماً مدداً قصيرة.

أنجزنا بعد اللّقاء مع أديب طالب لقاءات أخرى مع فارس سعيد النّاطق والمنسّق لتحالف ١٤ آذار اللّبنانيّ، ومع أحمد الأيّوبيّ أحد الوجوه الإسلاميّة في مدينة طرابلس اللّبنانيّة الّذي كان يدور في فلك ١٤ آذار، وكذلك مع النائب اللّبنانيّ وعضو حركة اليسار الدّيموقراطيّ إلياس عطاالله، ومع نديم حوري مدير مكتب هيومان رايتس في بيروت، ومع مصطفى كيّالي، وهو سوريّ من مدينة حلب، وأحد الحاضرين اجتماع "إعلان دمشق" الشّهير الّذي عقد في قلب العاصمة السّوريّة.

أنجزنا كلّ تلك اللّقاءات في الشّهور الأربعة الأولى من بداية عملنا. كان عهد يتولّى التّنسيق مع الضّيوف واستئجار الكاميرات، كما كان صلة الوصل مع جهاد خدّام عبر الهاتف، وهو أيضاً من كان يستلم كلّ الدّفعات الماليّة، ومن ضمنها مرتّبي الشّهريّ.

تحدّثت هاتفيّاً ثلاث مرات مع جهاد خدّام، الأولى عند قدومي إلى بيروت، والثّانية كانت متابعة لمكالمة كان يجريها مع عهد وتبادلت معه بعض الآراء حول تطوير العمل، وللإنصاف فقد كان الرّجل مهذّباً، ولم يكن يتدخّل مطلقاً في عملنا، أقلّها من ناحيتي. لا أعرف ما الّذي كان يدور بينه وبين عهد، لكنّي لم أستطع الانفتاح عليه، ولم أكن أنوي كسر الحاجز الموجود، كان بالنّسبة لي حاجزاً كبيراً صنعه هو وأبوه، ليس معي فقط، إنّما مع الأغلبيّة العظمى من السّوريّين الّذين عانوا من كلّ موبقات عبد الحليم خدّام وأبنائه، لكنّ الصّدمة الّتي رجّت مشاعري ودماغي ولم أستطع تجاوزها، إذ لمستها لمس اليد، عندما رأيت شقّة الحازميّة، حيث فساد آل خدّام بات متجسّداً وماثلاً بكلّ فظاظته في تلك الشّقّة ـ القصر الّتي ولجناها لنصوّر حلقة أحد محاورها الفساد!

أيّ انفصام أعيشه؟ وأيّ خدعة انطلت عليّ وزيّنتها لنفسي؟ وأيّ براغماتيّة سياسيّة تلك الّتي أقنعت بها ذاتي؟!

هذا الصّراع الدّاخليّ لم يغادرني طوال الشّهور السّبعة الّتي عملت خلالها في القناة كانت الهوّة تتّسع وتزداد لصالح الخروج والانسحاب منها بأقلّ الأضرار الأخلاقيّة والنّفسيّة، ساعد على ذلك مشاهدتي المستمرّة للقناة، ونوعيّة البرامج الّتي كانت تُبث عليها، حيث البروباغندا تحتّلها ومهاجمة النّظام السّوريّ بطريقة شوارعيّة، تضرّ ولا تفيد، والأهمّ من ذلك محاولات عبد الحليم خدّام غسل تاريخه الأسود عبرها، واحتلاله شاشتها فترات طويلة.

كنت أشفق على الصّديق غسّان المفلح الّذي كان يحاور خدّام عبر برنامج اتّخذ طابع السّلسلة، وفيه يحاول خدّام كشاهد على عصر؛ إعادة كتابة تاريخ

سوريا كما يحلو له، إشفاقي على غسّان المعتقل السّابق سنوات طويلة في سجون النّظام الّذي كان خدّام أحد أعمدته الرّئيسة؛ جاء من كون الضّحيّة (تحاور) جلّادها، لكن لا يزال الجلاّد جلاّدًا، والضّحيّة تبحث عن ثقب تحاول التّسلل منه.

كنت أعرف دوافع غسّان النّبيلة، يبدو أنّه انطلق من ذات الدّوافع الّتي انطلقت منها، إنّما فشلنا، أو فشلت، فلست إلا لسان حالي، وأستطيع القول إنّ "زنوبيا" كانت "التّلفزيون العربيّ السّوريّ" إنّما المقلوب.

بعد سفر عهد الهندي إلى الولايات المتّحدة الأمريكيّة "لاجئاً"، بقيت في القناة شهرين تقريباً مع شابّ لبنانيّ اسمه نادر الحشّاش تولّى المونتاج والتّصوير، فأنجزنا ريبورتاجين، واحد جاءنا من سوريا عن ظاهرة التّشيّع الّتي غزت محافظة الرّقّة، والثّاني كنت أجريته عن العمّال السّوريّين في لبنان، وكان ميدانيّاً، في أماكن عملهم، وفي بيوتهم البائسة، وفي شركة "سوكلين" للنّظافة، وربّما هو العمل الوحيد الّذي كنت راضياً عنه رغم الصّعوبات الّتي رافقته، فالدّرك اللّبنانيّ عندما يشاهدنا كان يمنعنا من التّصوير بحجّة عدم وجود ترخيص، لكنّي والمصوّر كنّا نغافل الدّرك بعد ذهابهم، ونصوّر، حتّى أنجزنا التّقرير كاملاً.

المرّة الثّالثة الّتي تكلّمت فيها مع جهاد خدّام كانت بشأن رواتبي المتأخّرة ثلاثة شهور، توقّف عن إرسالها بعد سفر عهد، وكنت قد بيّت أمر الانسحاب، حيث لم يعرف عني التّنازل عن حقّ.

وصلتني رواتبي المتأخّرة، سلّمت الشّقّة الّتي أسكنها في منطقة قريطم إلى أصحابها، واستأجرت في منطقة برج حمّود، حيث الإيجار رخيص، والمنطقة شعبيّة أستطيع تدبّر فيها أمري، وستكون لي فيها تجربة جديدة.

الخوف عمودُ أنظمة الطّغيان؛ متى سقط سقطوا

عند قدومي إلى لبنان لم أكن أنتوي التّقدّم إلى مفوضيّة شؤون اللاجئين وطلب اللّجوء إلى أيّ دولة كانت، فتجربتي السّابقة مع هذه المنظّمة بين عامي ٢٠٠٢ و٢٠٠٣ لم تكن مشجّعة، فقد خبرت فسادها وبيروقراطيّتها. كنت أدرك أنّ من يتقدّم إليها عليه امتلاك نفس طويل، وشبكة علاقات عامّة، وخاصّة مع منظّمات حقوق الإنسان الدّوليّة. لكن بعد أن أحرقت مراكبي تماماً مع ظهوري على فضائيّة معارضة، واستضافتي ألدّ أعداء النّظام السّوريّ الّذين فتحوا النّار عليه من كلّ الاتّجاهات؛ لم يعد أمامي سوى سلوك طريق تلك المفوّضيّة ذهاباً وإيّاباً، صيفاً وشتاءً، صحواً وغيماً.

قال لي أصدقاء في الرّقّة: (أجهزة الأمن عينها حمرا عليك، ولو مسكتك لشربت من دمّك)، بعد بثّ الحلقة الّتي استضفت فيها إلياس عطاالله، وكانت مخصصة لتاريخ المقاومة الوطنيّة اللّبنانيّة قبيل ظهور حزب الله، ودور النّظام السّوريّ، وتحديداً غازي كنعان؛ في إعطاء المقاومة مثل "مقاولة" إلى حزب الله بُعيد ظهوره، ودورهما - أي النّظام والحزب - في الاغتيالات الّتي طالت كثيراً من رموز اليسار اللّبنانيّ، مثل مهدي عامل، وحسين مروّة، وآخرين.

كان عطاالله عنيفاً في هجومه على النّظام، وأتذكّر تماماً جملة مونتسكيو الّتي ختم بها كلامه في اللّقاء: (الخوف عمود أنظمة الطّغيان، متى سقط سقطوا)، وكان يتحدّث آنذاك عن الخوف الّذي دجّن به النّظام الشّعب السّوريّ.

في الشّهر الرّابع من إقامتي في بيروت؛ جهّزت ملفّاً كاملاً، وتوجّهت إلى المفوّضيّة في مقرّها الكائن بالقرب من جسر الكولا في بيروت الغربيّة.

استمرّت إقامتي في منطقة برج حمّود حوالي خمسة شهور، رواتبي الثّلاثة الّتي كانت متأخّرة ووصلتني قبيل انسحابي من القناة؛ كانت كلّ مدّخراتي. في بيت برج حمّود سكن معي أديب طالب وسمير الدّخيل الّذي تعرّفت عليه في

بيروت، وكان قد أقام معنا فترة قصيرة في قريطم، ثمّ غادرنا أديب بعد شهر واحد فقط، فخلافاتي معه انفجرت، وبات سكننا معاً مستحيلاً.

جديتا ثمّ جونيه واللّاعنف

اضطرّرت وسمير للانتقال إلى قرية جديتا في البقاع اللّبنانيّة الوادعة، حيث السّكن وكلفة المعيشة أرخص. بعد خمسة شهور من السّكن في القرية الّتي لا تبعد سوى ثلاثة كيلومترات عن بلدة شتورا البقاعيّة عدتّ وسمير إلى جونيه الّتي لا تبعد عن بيروت إلا كيلومترات قليلة، وسبب انتقالنا التّجهيز والتحضير لدورات "الكفاح اللّاعنفي"، أشرف عليها آنذاك "إعلان دمشق" منظّمة الخارج، ممثلة بأنس العبدة.

نسّقت وسمير في لبنان، وأنس من لندن مقرّ إقامته، فوقع الاختيار على جونيه لطبيعتها السّكّانيّة، وللأمن الّذي كانت تنعم فيه، حيث كنّا نستقبل النّشطاء القادمين من سوريا عبر حمص مباشرة في جونيه، وقبل دخول البولمان إلى بيروت.

استمرّت الدّورات شهرين، وبلغ عددها ثماني، مدّة الدّورة ثلاثة أيّام، حضرها ستّة وثلاثون ناشطاً وناشطة، جاءوا من أغلبيّة المحافظات السّوريّة، حاضر فيها محاضر أمريكيّ من أصل صربيّ، وسمير الدّخيل الّذي كان قد اتّبع دورة في تركيّا حول آليّات وطرق وأساليب النّضال اللّاعنفي، وكاتب هذه السطور.

مع انتهاء الدّورات لم يمكث سمير سوى شهر، بعدها حصل على اللّجوء في الولايات المتّحدة الأمريكيّة، فغادر إلى شيكاغو حيث أقام. بقيت وحدي وغادر أغلبية السّوريّين الّذين أعرفهم إلى أمريكا، عهد الهندي، سيروان كجو، جهاد صالح، محمّد العبدالله، وكثير من السّوريّين عرباً وكورداً، تخونني الذّاكرة الآن

في استرداد أسمائهم، لكن كلّهم هربوا بسبب ملاحقة النّظام السّوريّ لهم، بعضهم كان صادقاً، وبعضهم اتّخذ من اللّجوء ذريعة ليغادر إلى بلاد العمّ سام، حيث احتوت ملفّاتهم الكثير من الكذب والدّجل عن قصص وسيناريوهات وهميّة لا تحدث إلا في أفلام الأكشن الهوليوديّة!

أمريكا لا تستقبل الشّيوعيّين

وحدي بقيت في بيروت، إذ رفضت أمريكا استقبالي. الموظّف/ المحقّق المصريّ الّذي كانت جلّ مقابلاتي في المفوضية معه؛ قال لي: (أنت شيوعيّ، وأمريكا لا تستقبل الشّيوعيّين، وعندما أرسلنا ملفّك إليهم رُفض)، ولمّا أجبته إنّ تلك المعلومات قديمة، وإنّي الآن لست شيوعيّاً، قال: (يبدو أن الأمريكان وضعوا قانوناً منذ أيّام حربهم الباردة مع الاتّحاد السّوفيتي ولا يزال سارياً، فربّما نسوه)، ثمّ تابع مازحاً: (يجب أن ننكشهم ليتذكّروه).

أما كيف عرف الأمريكان أنّي شيوعيّ؟ فهذه سهلة. ملفّي القديم في المفوّضيّة منذ عام ٢٠٠٢، ويومها رُفض بحجّة أنّي (لا أتعرّض إلى أيّ اضطهاد حال عودتي إلى سوريا)، وردّاً منّي على أحد أسئلة التّقرير حول انتمائي السّياسيّ كتبت إنّي أنتمي إلى الحزب الشّيوعيّ السّوريّ المكتب السياسي، وهو اسم الحزب قبل أن يصبح اسمه "حزب الشّعب"

ثم أبلغني المحقّق أنّ ملفّي سيجول على سفارات كندا وأستراليا والنّرويج، وعليّ انتظار موافقة واحدة من هذه الدّول.

قبّ إلياس وفرن الكعك وزيّاد ماجد

الانتظار مكلف في بيروت، لا عمل لديّ، ومدّخراتي تنزف، كما لم أتقاضَ مكافأة على مقالاتي الثّلاث عشرة الّتي كتبتها آنذاك في صحيفة المستقبل،

وكنت معوّلاً عليها لسدّ جزء يسير من كلفة معيشتي؛ لكنّ الصّحيفة كانت تعاني من أزمة ماليّة، ونقص في التّمويل. كانت الأمور تسير من سيّئ إلى أسوأ، لا سفر يلوح في الأفق، وغداً لا أعرف ماذا يحمل!

في يوم واحد اتخذت قرارين: العودة إلى البقاع والسّكن في قرية قبّ إلياس بلا إيجار مع زوج شقيقتي وولديه أحمد ومصطفى في مخبز الكعك الّذي يعملون فيه، وستنخفض بالتّالي كلفة معيشتي كثيراً معهم، ففي الفرن شقّة صغيرة للمالك، يقيمون فيها وبعض من عمّال الفرن مجّاناً، وسبق أن أقمت معهم في فراري الأوّل إلى لبنان عام ٢٠٠٣، أما القرار الثّاني الّذي نفّذته بعد تردّد طويل، فهو كتابة رسالة إلكترونيّة للكاتب والباحث اللّبنانيّ زياد ماجد.

عرفت زياد ماجد في وقت مبكّر، من خلال مقالاته الّتي كان ينشرها في الصّحافة اللّبنانيّة، وكنت من أشدّ المعجبين به.

المرّة الأولى الّتي التقيت فيها زيّاد كانت في أحد مقاهي الأشرفيّة في بيروت الشّرقيّة. فمرّة قال عهد الهندي إنّ زيّاد يودّ التّعرّف إلى شباب المعارضة السّوريّة الموجودين في بيروت، وهكذا كان. كنت وعهد ومحمّد العبدالله وسمير الدّخيل وأسعد راغب البشير حاضرين، وكانت الجلسة دردشات عاديّة، تقفز من موضوع إلى آخر.

اللّقاء الثّاني مع زيّاد كان في إحدى قاعات الجامعة الأمريكيّة في بيروت، وكان يحاضر حول قانون الانتخابات اللّبنانيّة وقضايا الأكثريّة والنّسبيّة، وما إلى ذلك ممّا يشغل اللّبنانيّين. رأيت (زيّاد) مفوّهاً وخطيباً بارعاً، وراقبت العلاقة بينه وبين الطّلبة والحوار الّذي كان يدور بينهم، فزاد إعجابي به أكثر.

تردّدت كثيراً في الكتابة إليه، فالعلاقة الّتي بيننا لا تسمح لي بطلب المساعدة، لكن لا حلول لديّ، وأوضاعي في انحدار، ولا أفق في الأفق، لم أفاجأ بردّه، فكتاباته، هيئته وشكله الخارجي، حديثه، عيناه - وهو النّاقد الذّكيّ - المليئتان بالبراءة، كلّ شيء فيه يوحي بالنّبل، حتّى اسمه زيّاد وماجد، ودائماً

عند ما تأتي سيرته أتذكّر قول الكواكبيّ وتمييزه بين المثقّفين الماجدين والنّبلاء، والمثّقفين الّذين يسمّيهم المتمجّدين الممتلئين زيفاً وكذباً، كان زيّاد ماجد من الماجدين، ويصعب حصر الجهود الكبيرة والمساعدات الّتي يقوم بها للسّوريين قبل الثّورة السّوريّة وبعدها، سواء كان في بيروت، أو في مقرّ إقامته في فرنسا، وهو الأستاذ في جامعة باريس الثّالثة.

أرسل لي زيّاد رقم هاتف جيزيل خوري، وقال لي اتّصل بها، فقد كلّمتها عنك. كانت جيزيل تشغل رئيس مجلس إدارة "سكايز" مؤسّسة سمير قصير، والّتي تعنى بحماية الصّحفيّين.

التقيت جيزيل وبعدها؛ من (ربّما ستأكل منّي شوارع بيروت تسكعاً وتشرّداً)، انتقلت إلى وضع آخر مختلف تماماً، فقد خلق منّي سمير قصير ومؤسّسته شخصاً آخر. بدأت كتابة مقالات وتحقيقات للمؤسّسة حول كلّ ما يتعلق بالشّأن السّوريّ، براتب شهريّ ثابت استمر عاماً ويزيد، حتّى تاريخ سفري إلى كندا.

وساطات

طلب المحقّق المصريّ منّي الانتظار، فملفّي سيجول سفارات أستراليا وكندا والنّرويج. أعرف تماماً أنّ في تلك المنظّمة آلاف الملفّات تنتظر، خاصّة وأنّ الدّياسابورا العراقيّة كانت في أوجها آنذاك، قبل أن تبدأ السّوريّة بمنافستها.

أن أنتظر الانتظار؛ يعني مستنقعاً راكداً لن تتحرّك مياهه مطلقاً! هذا الانتظار يجب كسره بإلقاء حجر فيه، ورغم أنّ ملفّي كان دسماً وموثّقاً بالمقالات وأشرطة الفيديو والمقابلات والصّور، وبحكمٍ غيابيّ أصدرته محاكم النّظام السّوريّ بحقّي مدته خمس عشرة سنة بعد محاضرات الكفاح الّلاعنفي، وفي قضيّة جمعتني وإيّاها وفائق المير وسمير الدّخيل وآخرين، حيث تمّ إلقاء القبض على رغدة الحسن وبحوزتها بيانات تفضح ما كنّا نقوم به.

لا بصيص أمل، فكلّما راجعت المفوّضيّة و: (ماذا حلّ بملفّي؟)، يكون الجواب: (لا شيء، عليك الانتظار).

في ملفّ اللّجوء هناك مرحلتان مهمّتان في سيره، وكلّ واحدة تتطلّب تحريكاً لدفعه إلى الأمام. الأولى أن تقتنع المنظّمة بحقّي في اللّجوء، وبأنّي سأتعرّض إلى السّجن والاضطهاد حال عودتي إلى البلد.

كلّ مقالاتي وأشرطة الفيديو الّتي قدّمتها لم تنفع، وأجزم أنّ لا أحداً في المفوّضيّة رآها أو قرأ منها أيّ حرف، غير أنّ ما حرّكها وأفادني كثيراً وثيقة واحدة صدرت عن منظمة هيومان رايتس ووتش الأمريكيّة الّتي تشهد على صحّة كلّ ما أدليت به من أقوال، ساعدني في الحصول عليها مشكوراً محمّد العبدالله الّذي كان يعمل آنذاك في مكتب بيروت إلى جانب نديم حوري، وهو أيضاً لم يكن له أن يساعدني لولا الكثير من الأخبار المتواترة والمتقاطعة الّتي جمعها حولي، واللّقاء التّلفزيونيّ الّذي أجريته معه، وكان في معظمه مخصّصاً للحديث عمّا جرى من اضطّرابات وأحداث مؤلمة في سجن صيدنايا عام ٢٠٠٩

أن يجد المرء بلداً يرحّب به لاجئاً هذا يأتي أوّلاً، ثمّ يعطيه إقامته الدّائمة، وجنسيّته في نهاية المطاف؛ تلك هي المرحلة الثّانية، وهي مرحلة تطول وتقصر، محكومة ببيروقراطيّة المنظّمة، والإجراءات الطّويلة والمملّة للوفود الّتي تأتي من سفارات الدّول المستقبلة، وتلك المرحلة تختلف من ملفّ إلى آخر، فهناك من أعرفه حصل على اللّجوء في ظرف مائة يوم، وآخر لم تتجاوز مدّة حصوله على اللّجوء ستّة شهور، وهناك من انتظر سنة، فيما انتظرتُ أكثر من سنتين.

عندما غادرت إلى كندا؛ بقي أديب طالب الّذي لا أكنّ له الكثير من الودّ والاحترام ينتظر، ولم يحصل على اللّجوء إلا بعد ثلاث سنوات، علماً أنّ طبيعة

العمل الّذي كان يقوم به مع مأمون الحمصيّ تجعل منه مطلوباً بشدّة لدى مخابرات النّظام السّوريّ.

أذكر تماماً لقاءه ومأمون مع وليد جنبلاط في المختارة، والصّورة الفوتوغرافيّة الّتي جمعتهم وانتشرت في الصّحف، وكانت قد ضمّت إليهم بضع سوريّين تطفّلوا على هامشها. حمل الكومبارس الصّورة وذهبوا بها إلى مفوضيّة شؤون اللّاجئين، وقدّموها كدليل على أنّهم إن عادوا إلى سوريا سيعتقلهم النّظام السّوريّ، وبسببها حصلوا على اللّجوء، وهم يقيمون الآن في بلاد العم سام.

لم يتوقّف انتظاري إلاّ بعد اتّصال هاتفيّ أجرته جيزيل خوري بالسّفارة الكنديّة. جيزيل كانت متعاطفة، وهي الّتي تحمل قلب امرأة تفحّم حين اغتال النّظام السّوريّ زوجها سمير قصير، والّتي خبرت جيداً قبل ذلك وحشيّة ذاك النّظام، كيف لا وهي ابنة الأشرفيّة!

بعد اتّصالها الهاتفيّ ذهب سعد كيوان مدير تحرير المؤسّسة متأبّطاً ملفّي كاملاً، وفيه حكم غيابيّ ضدّي مدّته خمس عشرة سنة، ووضعه أمام مسؤولي السّفارة الّذين عجّلوا بعدها بالإجراءات، إلى أن جاء موعد السّفر.

القسم الثّاني

في كنـــــــــــدا

الفصل الأوّل

اليوم الأوّل

(رسائل إلى جولييت)؛ واحد من أفلام ثلاثة شاهدتها كلّها خلال وجودي في الطّائرة متوجّهاً إلى ڤانكوڤر. هل هي المصادفة؟ وما هو المشترك بين قصّة بطلة الفيلم الّتي تبحث عن حبيبها منذ خمسين عاماً، وقصّتي أنا ابن الثّماني والأربعين القادم من أقصى الشّرق إلى أقصى الغرب أبحث عن وسادة واحدة أضع عليها رأسي وأرتاح؟!

هل هي مفارقة حبكتها الأقدار أن أشاهد هذا الفيلم فوق المحيط، أثناء الطّريق إلى ملجأ ووطن؟!

ربّما اختلفت بعض التّفاصيل الصّغيرة بين شخصيّة الفيلم وبيني، فتلك المرأة كلير سميث - الّتي أدّت دورها الممثّلة الشّهيرة ڤنيسيا ريد غريف - فقدت حبّها منذ زمن طويل، وأنا فقدت سوريا منذ زمن بعيد.

كلير وبعد عقود خمسة وجدت حبّها في مدينة ڤيرونا الإيطاليّة حيث جرت أحداث قصّة روميو وجولييت. ففي عام ٢٠١٠ وصلها ردّ على رسالة كتبتها عام ١٩٥٧ وعلّقتها على جدار أثريّ يلصق عليه العشّاق عادة رسائلهم التي يكتبونها على قصاصات ورق ملونة، طالبين من جولييت "ربّة العشق" النّصيحة والعون. سافرت من الولايات المتّحدة الأمريكيّة بعد الرسالة، وجدت حبيبها بعد بحث ومعاناة، وبدأ الحبّ بينهما من جديد.

هبطت طائرتي في مطار ڤانكوڤر، كانت كريمة تنتظرني، رفعت ذراعيها عالياً قابضة بكفيها على كرتونة بيضاء ارتسمت حروف اسمي باللّغة العربيّة

عليها. كريمة السمراء التونسية الجميلة بدت لي في أواخر العقد الثّاني من عمرها، هي مندوبة وزارة الهجرة الكنديّة، وقد حضرت لاستقبالي.

أنجزت كلّ الأوراق المتعلّقة بإجراءات الإقامة مع سلطات المطار، كنت أمشي إلى جانبها مثل ذكر نحل من دون أيّ نفع، وعيناي تلوبان مستطلعتين بدهشة وإعجاب ممرّات وقاعات المطار الجميل، ووجوه وسحنات المسافرين.

فرغنا من كلّ تلك الإجراءات. سألتني إن كنت جائعاً، أجبتها بالنّفي. طلبت منّي الانتظار قليلاً، رأيتها تدخل إلى أحد المطاعم في المطار، خرجت وقد أحضرت معها وجبة طعام وبعض العصير، قالت لي: (ستجوع بعد قليل). خرجنا من بوّابة المطار حيث تكسي أجرة ينتظرنا، ومباشرة توجّهنا إلى بيت الضّيافة في داون تاون ڤانكوڤر.

البدايات

Welcome House

"بيت الضّيافة" في داون تاون ڤانكوڤر. لكنّ وسادتي الأخيرة ليست فيه.

كلّ الدّول والأفراد والجمعيّات والنّوادي الرياضيّة والمؤسّسات لديها علمها الخاص أو شعارها، إلا شعاري الخاصّ الّذي كنت أضعه في المقدّمة، فقد طوته ديكتاتوريّة "فيس بوك" إلى الخلف كثيراً، اجتاحته التّغييرات المتلاحقة للسيد مارك "رئيس جمهوريّة الفيس بوك"

(أبحث عن وسادة واحدة أضع عليها رأسي وأرتاح). لا أزال أتذكّر "كومنت" الكاتبة السّوريّة والصّديقة المنفيّة أيضاً في فرنسا فلورانس غزلان. كتبت لي ما معناه (قطّعت قلبي بهذا الكلام). فلورانس كتلة المشاعر الإنسانيّة الّتي تتحرّك على قدمين مثل كلّ النّاس، خبرت وعرفت معنى "الوسادات" الكثيرة!

ربّما الوسادة ترادف القلق عند البعض، وربّما ترادف للاسترخاء والدّعة والسّكون عند بعض آخر، والوسادات أنواع: واحدة مثل الشّوك تنغرز في مؤخّرة الرأس، ولا توفّر الوجه أيضاً، يتصارع المرء وإيّاها، يقلب عليها وتنقلب عليه، يغلبها وتغلبه، وفي ذروة الصّراع التّراجيديّ يتمكّن منها ويرمي بها بكلّ ما أوتي من قوّة إلى أقرب جدار يصادفه أمامه، لكنّه لا يستطيع الاستغناء عنها، يكوّر مرفقيه، ويصنع منهما وسادة! في اللّيالي الباردة وهو وحيد؛ يخترع وسادته، يتذكّر صدر حبيبته ويغفو، وإن لم تكن لديه حبيبة فإنّه يرسم حبيبته بكلّ ألوان الفرح. رحم أمّه يتشهّى الرجوع إليه، وحده الكفيل بأن يجعله يغمض عينيه لتطفو على وجهه ابتسامة هانئة.

أدركت فيما بعد، في الأسابيع الأولى من وصولي إلى كندا ومَن معي مِن اللّاجئين؛ لماذا كان الكنديّون يحاضرون فينا ويعطونا النّصائح في كيفيّة التّأقلم في حياتنا الجديدة. تحدثوا كثيراً عن الانتحار وأسبابه، وعن كيفيّة مقاومته، وعن القوّة والشّخص الإيجابيّ والمتفاعل. في البدايات تحتاج الغربة إلى حمار ليحتمل قسوتها.

بدأت رحلتي مع الوسادات في عام ٢٠٠٠ كلّفني تغييرها المستمرّ ثمناً غالياً: أمّي.

وهل سأظلّ أندب الغربة، وأكتب الرّومانسيّات، وأعيش تبكيت الضّمير، وأقتات على النوستولوجيا؟ هل سأظلّ في كربلاء دائمة؟

لا... سأعمل مثلما نصحني الكنديّون. فأجعل لحياتي معنى. متفاعلاً. شخصاً إيجابيّاً. أضع هدفي، مدّته الزّمنيّة، وسائلي لتحقيقه، معنى حياتي وامضِ. سأتعب، سأتألّم، سأشقى، وسأجد في النّهاية وسادتي المريحة.

كنت كلّما ضَعُفت أنهر ذاتي وأقسو عليها، ملقياً عليها الكثير من المحاضرات عن القوّة والشّجاعة والإيجابيّة، فقد اخترت هذه الطّريق، ولن أكون مثل الحيوانات آكل، أشرب، أنام، أمارس العادة السّريّة.

حوالي الخامسة عصراً توقّفت السّيّارة التي تقلّني أمام بناء مؤلّف من طبقتين. بدت لي ڤانكوڤر وكأنّها مسحت دموعها منذ قليل، فكثيراً ما تبكي هذه المدينة، لكن هو بكاء الفرح، حيث دموعها المستمرّة تحيل كلّ شيء إلى أخضر.

بكاؤها هذا وضعها في المرتبة الأولى بين شقيقاتها الكنديّات، وكما استحقّت لندن العاصمة البريطانيّة لقب مدينة الضّباب، فإنّ ڤانكوڤر هي مدينة المطر بامتياز. أمطارها لا تتوقّف، ما أكسبها طقساً رائعاً، معتدلاً في الصّيف والشّتاء، تندر ثلوجها، وتتباهى على شقيقاتها ببردها الّذي لا يقسو كثيراً.

أنّى نظرت وجدت الأخضر. ولأنّ فيها السّهل والجبل والمحيط، فقد أطلق على المقاطعة التي تنتمي إليها "كولومبيا البريطانيّة الجميلة"، وثبّتت تلك العبارة على لوحاتها.

قبيل قدومي إلى المقاطعة بحوالي ثمانية شهور؛ قيل لي إن منظّمي الألعاب الأولمبيّة الشّتويّة في شهر شباط ٢٠١٠ وقعوا في حرج كبير. لم يهطل الثّلج وقتذاك، فاضطرّوا إلى نقله من الجبال المحيطة لترميم بعض الملاعب، وقيل أيضاً إنّ خطأً كبيراً حدث في استضافة ڤانكوڤر تلك الألعاب، الّتي تكاد تنعدم الثلوج فيها، وإن هطلت فإنّها لا تمكث كثيراً، لأنّ الأمطار ستهطل تغسلها، ومن المفترض والمنطقي أن تنظّم في مونتريال أو تورنتو أو المقاطعات الكنديّة الّتي تتميز بكثافة ثلوجها.

ترجّلت من السّيّارة ومعي حقيبتي. دخلت وكريمة المكان. اعتذرت موظّفة الاستقبال، فلا يوجد جناح خاصّ أقيم فيه، فألحقتني بغرفة خاصّة ضمن جناح تقيم فيه عائلة أثيوبيّة، زوجين وطفليهما.

صعدت معي إلى الطّابق الثّاني، أرتني غرفتي والمرافق الّتي أحتاجها، عرّفتني على العائلة الّتي سأقيم وإيّاها مؤقتاً، تمنّت لي ليلة جميلة ونوماً هادئاً، وذكّرتني أنّ هناك من سيأتيني غداً في التّاسعة صباحاً، ثم انصرفت.

أغلقتُ باب الغرفة، وضّبت ثيابي في خزانة صغيرة، استحممت. كانت وجبة الطّعام الّتي أحضرتها كريمة لا تزال تنبض ببعض حرارة، التهمتها على مهل غير مصدّق أنّي موجود في مدينة لا أعرف فيها أيّ أحد على الإطلاق. تمدّدت في فراشي، وبين يدي كتاب (تعلّم اللّغة الإنكليزيّة). كم مرّ من الوقت لا أعلم، استيقظت على صوت نقرات على الباب، كانت عقارب السّاعة تشير إلى التّاسعة صباحاً.

خرجنا عبدالله وفتاة في الثّلاثينيّات اسمها أنجيلا وأنا. عبدالله شابّ فلسطيني الأصل، في الثّلاثينيّات من عمره، كانت مهمّته التّرجمة خلال سبعة عشر يوماً، وهي الفترة الّتي أمضيتها في بيت الضّيافة، وأنجيلا بملامحها الآسيويّة ظننت أنّها من الصّين أو كوريا أو الفليبّين، لكنّي فوجئت أنّ أصولها أرجنتينيّة وتحمل الجنسيّة الكنديّة. مرّة مازحتها بلغتي الإنكليزيّة الرّكيكة، وقلت لها: (ربّما والدتك زارت الصّين يوماً ما). ضحكنا، ولا أدري إن فهمت ما عنيت.

كانت أنجيلا هي المسؤولة عن ملفّي، ومهمّتها مساعدتي وتجهيز كلّ الأوراق الخاصّة بي، من بطاقة الصحّة، ورقم التّأمين، وتصريح العمل، وفي اختيار المدرسة والسّكن، وغيرها من الأمور يجب أن تتمّ خلال الفترة المقرّرة لي في بيت الضّيافة.

كانت أنجيلا معي في أولّ خطوة أخطوها في شوارع ڤانكوڤر. أبلغتها أنّي أريد شراء بطاقة هاتف للاتّصال بأهلي في سوريا كي أطمئنهم عنّي، وبأنّي وصلت بخير وسلامة. شرحت لي - وعبدالله يتولّى التّرجمة - كلّ حقوقي وواجباتي، والبرنامج الّذي سأتّبعه يوميّاً خلال تلك الأيّام.

على مدى عشرة أيّام التزمت بمحاضرة تبدأ في التّاسعة صباحاً، وتنتهي في الثّانية عشرة ظهراً، بينهما استراحة مدّتها نصف ساعة. حضرت معي المحاضرة سيّدة عراقيّة وصلت ذات يوم وصولي إلى ڤانكوڤر، وفي اليوم

الثّاني حضرت أيضاً عائلة عراقيّة مؤلّفة من زوجين وبناتهما الثّلاث، وكنّ في العشرينيّات.

كانت المحاضرات شبيهة بتلك الّتي حضرتها في بيروت، مع بعض التّفاصيل الإضافيّة الأخرى، مثل كيفيّة استخدام وسائط النّقل والنّظام الصّحيّ، بدت المحاضرات لي وكأنّها مصمّمة لكيفيّة التّأقلم مع الحياة الجديدة، والصّعوبات الّتي يمكن أن تعترض الوافد الجديد، وكيفيّة حلّها والتّغلّب عليها.

في قلب فانكوفر والخطوة الأولى!

الواحدة ظهراً من اليوم الثّاني، وبعد انتهاء المحاضرة، خطوت وبارتباك خارج بيت الضّيافة محاولاً استطلاع المكان. التّاريخ هو الخامس من أكتوبر ٢٠١٠. الجوّ معتدل ولطيف، والسّماء لا تنذر بكثير من المطر.

كنت في قلب فانكوفر. تساءلت: (يا إلهي أين أذهب؟ ماذا لو ضللت طريقي؟ كيف سأعود؟)، مثل طفل يخطو خطواته الأولى بدأتُ. مائة متر تقريباً وأصبحت في غرانفِل قلب الدّوان تاون وأجمل شوارعه. كنت أسير بتمهّل وبلا هدف، أراقب النّاس، أدقّق في لغاتهم، في وجوههم، تصرّفاتهم، في الشّوارع والمحال وجمالها وتنسيقها. لم أشعر بالوقت ولا بالمسافة الّتي قطعتها، وجدتّني حيث المحيط الهادي/ الباسيفيك.

لي مع البحر علاقة ودّ مديدة. أُفقه المترامي واللامحدود يبعث فيّ الهدوء والسّكينة. تشكّلت هذه العلاقة مذ كنت في بيروت، حيث كنت ألتقيه بشكل شبه يوميّ عندما كنت أسكن غير بعيد عنه. لكنّ البحر هنا مختلف، لا أفق له، إنما هو مجموعة خلجان، لذلك لا يحلّق النّظر بعيداً.

رغم جمال الباسيفيك وهدوئه، لكنّه لم يُعرني بعضاً من ذاك الهدوء، لم يستطع إخماد القلق الّذي ينهبني. شعرت أنّي ريشة في مهبّ الرّيح، لم ألتقط أسراره، ولم يعبأ بأسراري.

كلّ شيء هنا أجمل من بيروت، إنّما بلا روح. كلّ شيء متناسق ومرتب وجميل ويبعث على الدّهشة بالنّسبة لواحد مثلي قادم من مدن بعيدة ومنسيّة، إنّما تلك الّتي نسمّها لذّة الاستكشاف؛ يبدو أنّي فقدتها.

مشيت طويلاً بمحاذاته، خجولاً مرتبكاً كالشّمس الّتي كانت تناطح غيمة هنا وتغلبها أخرى هناك، في صراع لم ينتهِ إلا ورذاذ من المطر قد بدأ يهطل ويغسل وجوه فتيات جميلات كن يتمشّين مع البحر، ويقهقهن بأصوات مرحة صاخبة، لا يعرفن أيّ شيء عن بحار أخرى حزينة تقع في مناطق أخرى من هذا العالم المترامي.

في طريق عودتي لم أكن جائعاً كثيراً، إنّما وجب عليّ أن آكل، فبيت الضّيافة لا مطعم فيه، وعلى نزلائه تأمين كلّ احتياجاتهم. في شارع روبسون الشّهير، وغير بعيد عن مكتبة ڤانكوڤر المركزيّة حيث تضج وتنبض الحياة بألوان من قوس قزح؛ صادفت مطعماً جميلاً وأنيقاً لبيع الفلافل والشّاورما، اتّضح لي أنه لبنانيّ، وقد وضع صاحبه بعض الطّاولات على الرّصيف. كان المنظر ساحراً.

طلبت سندويشة فلافل وعلبة كولا، جلست إلى طاولة على الرّصيف، ألتهم السّندويشة وعيناي تراقبان حركة السّيّارات والنّاس. سندويشة الفلافل هنا سمينة جدّاً تشبع شخصين، إنّما لا طعم لها مقارنة بفلافل سوريا، حيث المطاعم تنتشر في أزقّة شعبيّة عنوانها وروحها البساطة.

أردتّ دفع الفاتورة، تسعة دولارات؟! تذكّرت جاري في شارع ٢٣ شباط في الرّقّة ومحلّ الفول والفلافل الّذي يملكه، حيث سندويشه الفلافل مع كأس لبن لا يزيد سعرهما عن خمس وعشرين ليرة، أي ما يعادل ربع دولار آنذاك. حلفت ألاّ آكل فلافل بعد ذلك اليوم، وألاّ أدخل إلى أيّ مطعم عربيّ.

الأسعار في كندا غالية لكنّها تتناسب أحياناً مع الدخل المرتفع، فقط المطاعم والبقّاليّات العربيّة هي الأغلى مقارنة مع غيرها. لم أستطع المحافظة على

قَسمي الّذي نقضته، حيث لا أستطيع الاستغناء عن الزّيت والزّعتر واللّبنة والقهوة وبعض أنواع الجُبن والخبز اللّبنانيّ والعربيّ.

عندما تهت في ستانلي بارك

الأيّام التّالية مرّت كما هو مبرمج لها. بعد انتهاء المحاضرات كنت أخرج دون هدف محاولاً اكتشاف المدينة. في اليوم الثّامن وصلت من حيث لا أدري إلى المتنزّه الشّهير ستانلي بارك الّذي له سور بحري وحديقة تصل مساحتها إلى عشرة كيلو مترات. عرفت فيما بعد عن طريق غوغل أنّه أحد أجمل خمسة متنزّهات في العالم.

سحر المكان والطّبيعة الخلاّبة والبحر الّذي يحيط بالحديقة من كلّ الاتّجاهات وبداية جوّ الشّتاء الأخّاذ الّذي أعشقه؛ كلّ ذلك جعلني أمشي بلا توقّف. مضيت مأخوذاً بتلك الطبيعة. تقدّمت أكثر في محاولة لمعرفة ماذا في المتنزّه بعد! لم أشعر إلا والشّمس توشك أن تسقط في البحر. مشيت كثيراً حتّى وصلت إلى مثلث يلتقي عنده الجُرف البحريّ مع البحر، قرّرت العودة، إنّما كثرة طرق ومداخل المتنزّه أفقدتني البوصلة. جعلتني في حيرة من أمري، فأيّ طريق للعودة أسلك؟! أمشي وأمشي محاولاً مسك الخيط، لكن يبدو أنّي دخلت في متاهة من الطّرق الملتوية الّتي لا تؤدي إلا إلى بعضها، وكلّها أقفرت، ففي هذا الوقت من العام أكتوبر- يقلّ روّاد المتنزّه. الظّلام بدأ ينشر خيوطه السوداء. لا أدري من عثر على الآخر، أنا أم الطّريق. وجدت صبية وفتيات في العشرينيّات، يرتدون لباساً موحّداً، ينتشرون بالقرب من يخت كبير فيه حفلة كبيرة، حيث موسيقى عالية كانت تصدح، ومدعوّين ومدعوّات حضروا بأجمل ما لديهم من ألبسة، يبدو أنّ مهمّة الفتية كانت تنظيم دخول المدعوّين وركن سيّاراتهم. اقتربت من أحدهم، شرحت له. أخبرته عن عنواني، قادني الشّابّ بكلّ تهذيب حتّى أوصلني إلى المدخل الأقرب الّذي يؤدّي إلى بيت الضّيافة. شكرته كثيراً، ولعنت المتاهة الّتي أدخلت نفسي فيها.

حقوق وواجبات وثقافة التّطوّع

في اليوم الحادي عشر، وكما هو مقرّر في البرنامج، كان اجتماعاً مع ثلاثة أشخاص بحضور أنجيلا وعبدالله الّذي يتولّى التّرجمة. عرّفوا عن أنفسهم، هم ممثّلون عن الحكومة الفيدراليّة، ومهمّتهم توقيع العقد بيننا نحن اللّاجئين وبين الحكومة. يتضمّن العقد كلّ الحقوق والواجبات الّتي لنا وعلينا. قالوا إنّ الحكومة ستتولّى رعايتنا، وهي مسؤولة أمامنا مدّة عام كامل، تمنح كلّ واحد منّا راتباً شهريّاً يبلغ ٨٩٥ دولارًا كنديّاً، كما ستمنحه فوراً مبلغ ألفي دولار، وفور انتقال الشّخص إلى مسكنه الجديد سيتّم تأثيثه كاملاً. وبالطّبع كلّ واحد سيدفع إيجار البيت من الرّاتب الّذي سيحصل عليه.

بعد انتهاء العام ستنتهي تلك العلاقة، وسيتولّى كلّ واحد منّا تدبير شؤون حياته، من يعمل يعمل، ومن لا يستطيع تأمين العمل سيحال إلى الضمان الاجتماعيّ، مثله مثل أيّ عاطل عن العمل، سواء كان مقيماً على أراضي الدّولة الكنديّة أو مواطناً، وسيتقاضى مبلغ ٦١٠ دولارات، كما سيخضع إلى برامج ودورات حول كيفيّة البحث عن عمل، وكيفيّة تجهيز السّيرة الذّاتية. وفيما يتعلّق بالدّراسة، من يريد تعلّم اللّغة الإنكليزيّة فهذا متوافر مجّاناً لمن يرغب، باستثناء المرحلة الجامعيّة. عرضوا أمامنا أوراقاً كثيرة تتعلّق بكلّ الحقوق والواجبات المنصوص عليها في الدّستور الكنديّ، تمّت ترجمتها إلينا بتفصيل مملّ. وقّعنا عليها ووقّعوا، ثمّ انصرفوا متمنّين لنا حياة جديدة وسعيدة. نظرت إلى العراقيّين الموجودين معي، تبادلنا النّظرات ونحن غير مصدّقين. ما أثار دهشتنا واستغرابنا تصرّفات وفد الحكومة الفيدراليّة، وحرص أعضائه وشعورهم بالمسؤوليّة لإفهامنا كلّ حقوقنا وواجباتنا بأسلوب في قمّة اللّطف والتّهذيب والإنسانيّة.

أخبرني عبدالله في اليوم الّذي سبقه أنّ شابّاً متطوّعاً سيأتي في العاشرة صباحاً، وسيأخذني لمعاينة بيت للإيجار، والقرار سيكون لي حال أعجبتني المنطقة والسّعر، وإن لم يتمّ ذلك سنواصل البحث عن بيت مناسب كما قال. كان

شاباً لا يتجاوز الخامسة والعشرين، التقيته في صالة الاستقبال، سلّمنا على بعض وتعارفنا، وانطلقت وإيّاه في أوّل مشوار خارج منطقة الدّاون تاون.

الشّابّ الّذي جاء لمساعدتي في تأمين السّكن؛ طالب جامعيّ، يعمل بدوام جزئيّ في إحدى شركات الكمبيوتر، ويخصّص يوماً واحداً في الأسبوع للقيام بأعمال تطوّعيّة. كان دمثاً ولطيفاً، عرفت منه خلال السّاعات السّتّ تقريباً الّتي أمضيناها معاً أنّه جاء من إيران إلى كندا وعمره اثنا عشر عاماً، لم تساعدني اللّغة كي أتواصل معه جيداً، خاصّة بعد علمي أنّه إيراني. كنت أريد معرفة رأيه بما يجري في سوريا، ودور النّظام الإيرانيّ في مساعدة بشّار الأسد. كنت أتوق للتحدّث مع أيّ كان، ومناقشة ما يحدث حيث ثورات الرّبيع العربيّ تجتاح المنطقة. فهمت منه أنّه غير مهتمّ كثيراً بالسّياسة، ولا يحبّذ نظام الحكم الموجود في إيران الّذي أعادها سنوات طويلة إلى الوراء. وصلنا إلى منطقة كوكتلام، كان المؤجّر أيضاً إيرانيّاً يقيم في كندا منذ ثلاثين عاماً، ما فاجأني - بعدما عرّفته بنفسي ومن أين - أنّه لا يعرف أن تقع سوريا، ولم يسمع بها.

البيت جميل ولي غرفة مستقلّة، لكن عليّ الاشتراك في "منافع" البيت مع ثلاثة مستأجرين. لم أوافق. عدت ورفيقي. في الطّريق - وكانت السّاعة قد تجاوزت الثّالثة عصراً - دعاني إلى الغداء في مطعم بسيط وجميل، اعتقدتّ أن بيت الضّيافة هو من يتولّى الدّفع، وأنّ هذا ضمن البرنامج. لمّا أخبرت عبدالله بأنّ الشّابّ قد دعاني إلى الغداء ودفع الفاتورة؛ قال لي ضاحكاً: (نحن لا علاقة لنا بالموضوع، يبدو أنّه شابّ كريم).

ثقافة التّطوّع غير مجذّرة لدينا، وإن وجدت فهي ضمن نطاق ضيّق، وفيها الكثير من النّواقص. ما لاحظته هنا في كندا - فيما بعد - أن أكثر من نصف الشّعب الكنديّ يقومون بأعمال تطوّعيّة، وتكاد تصبح ثقافة راسخة ومؤسّسة بشكل ممنهج وعظيم، يتمّ زرعها وتنميتها لدى الأطفال منذ سنواتهم الأولى في المرحلة الابتدائيّة.

دهشتي كانت كبيرة عندما رأيت ابن صديق لي هنا لا يتجاوز عمره ثماني سنوات، كلّفته المدرسة مع زملاء له بجمع التبرّعات لمرضى السّرطان، كان يحمل قلماً وورقة يكتب فيها اسم كلّ من يتبرّع له، ويسجّل المبلغ بكلّ دقّة. ومكافأة على عمله وعدته المدرسة أن تشتري له درّاجة هوائيّة إن تمكّن من جمع ٥٠٠ دولار. سألته مازحاً: (هل هدفك الحصول على الدّراجة أم مساعدة المرضى؟)، وبحزم أجاب: (مساعدة المرضى أوّلاً). لاحقاً علمت أنّ عدد الجمعيّات التّطوعيّة في كندا حسب الأرقام الرسميّة تزيد عن ١٦٠ ألف جمعيّة، يعمل فيها مليونا موظّف، يساندهم ١٢ مليون متطوّع لا يتقاضون أيّ أجر.

بعد انتهاء المحاضرات؛ لم يعد هناك أيّ شيء يستحقّ الذّكر. بقيت وحدي في الجناح الّذي أقيم فيه، فقد غادرت العائلة الأثيوبيّة إلى منزل جديد بعد انتهاء الأيام السبعة عشر المقرّرة لها. صحيح أنّ اللّغة لم تساعدني في التّواصل مع أفرادها بشكل جيد - فهم لا يتكلّمون الإنكليزيّة، وحده الأب الأربعينيّ كان يتكلّم مفردات قليلة بالعربيّة - إنّما كنت أتسلّى معهم، نجلس كلّنا نتابع بعض القنوات التّلفزيونيّة الكنديّة دون فهم أيّ شيء. وكنت أهرب أحياناً من البيت عندما تبدأ الزّوجة بالطّبخ، لأنّ روائح غريبة تنتشر لم أعتد عليها سابقاً. فيما بعد شاركتهم بعض الوجبات الّتي تطبخها. كانوا بضجيجهم وصخبهم يشعروني أنّي لست وحيداً.

غربة روح وسجن

كنت مهيّئاً نفسي قبل الوصول إلى كندا للتّأقلم مع كلّ العادات والثّقافات، ومدركاً أنّ العادة خير معلّم، فلا مطبخ أفضل من غيره، ولا ثقافة أرقى من سواها، كلٌّ يعتزّ بمطبخه وعاداته وثقافته. المسألة تتلخّص باختلاف العادات والأذواق، فالوجبة الأثيوبيّة الّتي كنت أهرب من رائحتها ستصبح لذيذة لو اعتدتّ عليها. العكس أيضاً صحيح، ما أعتزّ به قد لا يستسغيه الآخر ويهرب

منه. إذن؛ القضيّة برمّتها قرار، وعلى المرء أن يتأقلم مع الواقع في كلّ الظّروف. يكفّ عن قول هذا يعجبني وذاك لا يعجبني بميزان أحكام القيمة القاطعة والحدّيّة. العيش ضمن كمّ هائل من العادات والثّقافات هو غنى، إنّما في الجانب الآخر هو غربة حقيقيّة، ومعاناة تصل أحياناً إلى حدّ احتراق الأعصاب. في بلاد الغربة قد يشعر المرء مرّات كثيرة أنّه أبله، لا يحسن التّصرّف، وربّما يقع في المحظور لأنّه لم يقدّر ردّ فعل الآخر. وعدم التّقدير هنا ناتج عن اختلاف ما تربّى عليه النّاس والبشر.

اختلاف الطّبائع والعادات والمعايير الأخلاقيّة من جماعة إلى أخرى، ومن شعب إلى آخر، وبين الأفراد ضمن الجَماعة الواحدة؛ أمور تحتاج إلى استبصار وبصيرة تعقّل هذه القسوة، حيث ترك العنان لها يرضّ الجسد والرّوح، وتقود إلى اغتراب مضن وموجع.

في ذلك الجوّ الغريب بكلّ شيء، القاسي، الكئيب، البارد، ولا أقصد البرد العاديّ؛ تحضرني تجربة السّجن، وقدرة السّجين على ترويض الرّوح لتقاوم الزّمن كيلا يفترسها. استفدت كثيراً من تجربة ياسين الحاج صالح الّتي تحدّث عنها في كتابه (بالخلاص يا شباب)، حيث في السّجن (لا أخبار جديدة، لا طعام شهيّاً، لا زاد عاطفيّاً، لا شيء طازجاً من أيّ نوع. زمن آسن متجانس، أبديّة لا فوارق فيها ولا مسام لها. سجناء يقتلون الوقت بما يتاح من وسائل التّسلية، وآخرون يروّضونه بالكتب والأقلام. عالم بلا نساء، لا أسرار فيه ولا خصوصيّات). قد يستنكر البعض المقارنة، وربّما سيقول أحدكم بماذا تهرف.

كندا أو "المنفى" أرحم ألف مرّة من السّجن، وخاصّة السّجن السّوريّ الّذي فاق بوحشيّته المعتقلات النازيّة، ما أتحدّث عنه هو الرّوح عندما تكون سجينة، وسجن الرّوح لا يحتاج إلى قضبان، ولا أصفاد ولا أغلال. ألسنا نردّد دائماً أنّ (الجنّة بلا ناس ما تنداس)؟ نعم، كندا جنّة الله على الأرض، احترام وقانون وحقوق إنسان، و..و..و، لكن عندما تكون بلا أهل وبلا أصدقاء وبلا معارف،

عندما تتمنّى أن يرنّ هاتفك ولا يرنّ ربّما لشهر كامل، عندما تهيم وحدك في الشّوارع والحدائق بلا أنيس أو رفيق، عندما يغدو الشّتاء قاسياً ومدبباً كحدّ السكّين، عندما تتناول طعامك وحيداً، عندما تلوك لقمتك وعيونك ساهمة وتنسى أين دسست اللقمّة في فمك أم في أنفك، عندما ترتمي من على حجرة المرحاض وتفقد وعيك عدّة دقائق، ومن ثمّ تعاود النّهوض ولا تجد أحداً حولك يقدّم لك كأس ماء؛ عندئذ تخشى على روحك من الصّدأ، تخاف عليها أن تنزف كلّ ذكرياتها، تخاف عليها من التشوّه، ومن أن تفقد توازنها.

كما السّجين الواعي يحاول ترويض السّجن وتدجينه؛ المنفى أيضاً يحتاج إلى ترويض الرّوح، وتصالح مع الذّات، وإلا ستغدو معلّقاً بين مكانين لا جسر بينهما. السّجين الّذي يحسب أيّام سجنه بالدّقائق والثّواني يرهق روحه، ويغدو مضطرّباً وناقماً ومشوّهاً، والمنفيّ الّذي لا يُقبل على مكانه الجديد بأفعال مخطّطة ومدروسة وواعية، ويضع هدفاً وغاية وبرنامجاً؛ فإنّ الملاهي اللّيليّة والبارات والكازينوهات وفتيات اللّيل ستتلقفه، وسيدخل في ثقب أسود، فتغدو حياته تافهة بلا معنى وبلا قيمة.

الفصل الثّاني

أنا مسلم

أجبت عبدالله بعيون مفتوحة، وبنظرات كانت مزيجاً بين إشارات التعجب والاستفهام: (نعم مسلم). كان يقول لي إن هناك شابّين واحد من السّودان والثّاني من أوغندا، لديهم بيت مؤلف من ثلاث غرف ويبحثون عن شابّ مسلم لتأجيره الغرفة الثّالثة، ويطلبان ٣٧٥ دولاراً قيمة إيجارها شهريّاً.

جاءني عثمان الشّابّ السّوداني إلى بيت الضّيافة ليصحبني إلى بيته ويريني إياه، وفي حال موافقتي سأنتقل إليه في اليوم التّالي. كان الوقت عصراً عندما وصل عثمان، الجوّ لطيف خلا بعض الغيوم الّتي تسبح في السّماء. سرنا في شوارع الدّاون تاون وصولاً إلى محطّة غرانفل لنستقل مترو ڤانكوڤر، حيث بيته يقع في مدينة بيرنبي.

ڤانكوڤر أو ڤانكوڤر الكبرى؛ تضمّ تسع ضواحٍ أو مدنًا، تتمتّع كلّ واحدة منها باستقلاليّة إداريّة كاملة، أكبر هذه المدن مساحة ڤانكوڤر، ثمّ مدينة سيري، كما هناك، ريتشموند، كوكتلام، بورت كوكتلام، نيو ويست مينستر، بيرنبي، مبيل ريدج، ووايت روك.

مدينة بيرنبي الّتي توجّهت إليها مع عثمان؛ تحدّها مباشرة ڤانكوڤر، ومترو ڤانكوڤر أو السكاي ترين الّذي يوصل أغلبية هذه المدن ببعضها. المسافة بين ڤانكوڤر وبيرنبي لا تتجاوز عشرين دقيقة في السكاي ترين الّذي يختلف عن مترو تورنتو ومونتريال وبقيّة المدن العالمية الّتي تستخدمه، فخطّ سيره يكون عبر الأنفاق، أمّا في ڤانكوڤر خطّ سيره وبنسبة ٨٠% على جسور عالية.

رفقة عثمان كنت لأول مرّة أستقل هذا الشيء في حياتي، القطار أو المترو أو السكاي ترين، سمّوه ما شئتم، كانت محطّة غرانفل من أكبر المحطّات الرّئيسة، مداخلها كثيرة، وكلّ مدخل ينتهي إلى أحد شوارع الدّوان تاون، ولو كنت متّجهاً إلى عنوان ما وأخطأت في اختيار الطّريق المناسبة؛ فإن ذلك سيكلّفك وقتاً، كثيراً ما أضعت طريقي في الشّهور الأولى، فغياب التّركيز، ولا مبالاتي بضع مرّات قاداني إلى مواقف مضحكة ومحرجة في آن واحد. في إحدى المرّات وجدتّ نفسي عالقاً على سلّم إحدى الأبنية الّتي دخلت إليها من مركز تسّوق يقع داخل المحطّة، ولما أردتّ الخروج من منفذ الخروج وجدتّ أنّي داخل حلقة حلزونيّة من السّلالم الّتي لم أعرف مبتداها من منتهاها. اضطررت إلى طرق أحد الأبواب. فُتح الباب، وإذ بشابّين طويلي القامة مفتولي العضلات، وقد ارتديا ملابس "السّيكيورتي" أي الأمن. فوجئا بوجودي. شرحت لهم بصعوبة أنّي ضللت طريقي مُدارياً حرجي.

الجميل في هذا البلد لطف وتهذيب النّاس، هم لا يبخلون بتقديم المساعدة حتّى قبل أن تطلبها. عموماً وكما يقال: (الواحد ما يتعلّم إلاّ من كيسه).

انطلق القطار نحو محطّة إيدموند في مدينة بيرنبي حيث يسكن عثمان. كان القطار مزدحماً، وأكثر الرّكّاب كانو يقفون، فلا مقاعد شاغرة. تمكّنت وعثمان من الجلوس لاحقاً في مقعدين متقابلين. كنت أتفحّص بفضول وجوه وسحنات الرّكاب، هذا أسمر، وتلك سوداء، إلى جانبها صبيّة شقراء، ذاك يحدّث صديقه بالصّينيّة، واثنان يرطنان بلغة لا أعرفها، وبين محطّة وأخرى كانت الإذاعة تعلِم الرّكّاب عن اسم المحطّة التالية.

قال لي عثمان ونحن نقف أمام مدخل المحطّة: (المسافة مشياً من هنا إلى بيتي حوالي عشر دقائق، هل تحب أن نمشي أم نستقلّ الباص؟)، أجبته: (أعشق المشي)، وكانت فرصة لي كي أستطلع طريقي، وأتعرّف عليها جيّداً، فهنا - كما أتوقّع - سيكون سكني الجديد.

المنطقة جميلة، وهادئة كما كلّ كندا، إلى درجة يصبح فيها الهدوء قاتلاً أحياناً. في طريقنا إلى البيت؛ كان عثمان يشير بكلتا يديه إلى الأماكن والمحال الّتي سأحتاجها، وأوّل شيء أشار إليه محلّ أفغانيّ لديه لحم حلال مذبوح على الطّريقة الإسلاميّة. اعتقدت عند دخولنا البيت أن شريكي الآخر في السّكن هو الرّئيس الأوغندي عيدي أمين! كان بحجم وطول الرّئيس الملاكم الّذي تحدّى يوماً محمّد علي كلاي وطلب منازلته، الرّئيس الّذي لا يشبهه في جنونه سوى الرّئيس اللّيبي الرّاحل معمر القذّافيّ، إنّما محمّد وهذا اسمه؛ شابّ أوغنديّ، لا يتجاوز عمره الخامسة والعشرين، وهو طالب جامعيّ، طفل كبير، نقيّ السّريرة، طيّب القلب، يصلّي الأوقات الخمسة، لا يعرف من العربيّة إلا (السّلام عليكم)، وبعض آيات قرآنيّة صغيرة يتمتم بها في صلاته، مازحته مرّة أن يعلّمني الإنكليزيّة وأعلّمه العربيّة، أشرق وجهه، راقت له الفكرة، إنّما لم تجد طريقها إلى التنفيذ.

البيت وإن بدا قديماً نوعاً ما؛ إلا أنّه جميل في هندسته. غرفة الجلوس واسعة وكبيرة، لها شرفة تطلّ على حديقة جميلة، منافعها معقولة، لي غرفة خاصّة بين غرفتي عثمان ومحمّد، كلّ شيء ما عداها مشترك.

لا أحبّ هذا النّوع من السّكن، فقد نشدت الاستقلال دائماً لأمارس حريّتي كما يحلو لي، إنّما وافقت مقرّراً خوض تجربة جديدة، لأنّي كنت بأمسّ الحاجة إلى رفقاء يعينوني في بلد أجهل لغته، وأجهل الكثير عنه. وكانت تجربة مرّة استمرّت أربعة شهور، تركت داخلي جرحاً صغيراً.

عدت أدراجي وحيداً إلى بيت الضّيافة بعد أن اتّفقت مع عثمان على أن يمرّ عليّ في (الرّابعة غداً)، وأحضر معي أشياني لأسكن عنده بشكل نهائيّ.

عندما قال لي عبدالله إن شابّين يبحثان عن شابّ مسلم ليسكن معهما؛ وكنت قد أجبته بتلقائيّة وعفوية (أنا مسلم). مع التّجربة والانخراط في الحياة الكندية،

وطالما أنّي من بلد عربيّ وأتحدّث العربيّة؛ فالنّاس ينظرون إليّ مباشرة أنّي مسلم، ولا يهم إن كنت أصلّي أم لا، علمانياً أم ملحداً، آكل اللّحم الحلال أم لحم الخنزير، أرتاد البارات أم الجوامع، كل هذا سيّان. (أنت مسلم).

على هذا الأساس تعاملت مع هويّتي، وكنت أفنّد بين وقت وآخر تصرفات بعض المسلمين والّتي لا تمتّ إلى الإسلام بأيّ صلة، فالمرء مطالب في كثير من الأحيان بالخوض نقاشات مع غير المسلمين والعرب، يوضح فيها أن للإسلام سياقات تاريخيّة في نزول آياته، وأسباب الأحكام الشّرعيّة فيه. فقد وجِد القرآن في عصر مختلف تمام الاختلاف عن العصر الّذي نعيش فيه. كثيراً ما كنت أصطدم مع مسلمين وغير مسلمين في تفسير عبارة (الإسلام صالح لكلّ زمان ومكان) التّفكير الببغائيّ الّذي يسيطر على من يردّدون العبارة من دون أيّ اعتبار للشّرط المكانيّ والزّمانيّ لنشأة وتطوّر الإسلام.

في السّاعة الرّابعة عصراً جاء عثمان ليصطحبني إلى السّكن الجديد. كان يوماً مقلقاً، شعرت خلاله باضطّراب كبير، وبشعور بالاقتلاع من المكان. الآن فراش جديد، ورحلة بحث جديدة عن وسادة هانئة.

حملت حقيبتي الوحيدة وكمبيوتر "ديسك توب" كنت قد أحضرته معي من لبنان، وليتني لم أفعل. وصلت وعثمان البيت حوالي السّادسة عصراً. لم أكن قد وضعت في فمي أيّ لقمّة خلال اليوم. كانت المرارة تملؤه، وفقدان الشّهيّة كان يطغى عليّ. أمضيت نهاري أحتسي القهوة فقط.

وضعت حقيبتي والكمبيوتر في الغرفة، وعدت إلى غرفة الجلوس. عثمان كان يجلس في زاوية الصالة إلى طاولة الطّعام وقد بدأ بتناول طعامه، وفكاه يزدردان اللقمّة الأولى. كنت جائعاً جدّاً، نظرت إلى حيث يجلس، لم يكن سوى صحنه وملعقته، قال لي (تفضل)، أجبته: (شكراً)، ولم يكرّرها. تابع أكله، وتابعت فرجتي على تلفزيون يتحدّث الإنكليزيّة ولا أفهم شيئاً.

عثمان

أربعة شهور كاملة أمضيتها في بيرنبي مع محمّد وعثمان. انتقلت بعدها إلى مدينة سيري، وسكنت فيها عاماً، ثمّ انتقلت إلى مدينة هاملتون في مقاطعة أونتيريو، حيث المسافة إليها من ڤانكوڤر جوّاً تستغرق حوالي أربع ساعات. أقمت في هاملتون خمسة شهور. من هاملتون سافرت إلى تركيا، ومنها إلى مدينتي الرّقّة قبيل تحريرها بمدّة شهر، تسلّلت إليها عبر الحدود التركية – السّوريّة. فالفوضى كانت سيّدة الموقف. أمضيت فيها قرابة شهرين، عدْت بعدها أدراجي إلى مدينة سيري الّتي لا تبعد سوى نصف ساعة عن مدينة ڤانكوڤر.

في كلّ هذا التّجوال؛ لو سُئلت عن أجمل أيّامي وأسوَئها، سأجيب فوراً: أجملها كان عندما تكحّلت عيناي بمرأى صنم حافظ الأسد يتدحرج بأيدي ثوّار الرّقّة، الصّنم الّذي كان يدير ظهره للرّقّة، غير مكترث لأحوالها ولأحوال سوريا عامّة.

كان منظراً مهيباً يبعث على الغبطة شاهده العالم كلّه عبر شاشات التلفزة، وكيف كان رأس الدّيكتاتور يهوي على الأرض، بعدها نفّذ رجل ستّيني من أبناء المحافظة ما كان قد أقسم عليه ذات يوم إن بقي حيّاً. جاءت اللّحظة الّتي انتظرها هو وملايين السّوريّين، وبرّ الرّجل بوعده. بال على رأس الدّيكتاتور وعلى الهواء مباشرة. إنّما للأسف ذهبت زهوة التّحرير عندما استولت "داعش" على المحافظة، ولا تزال المقتلة السّوريّة مستمرّة. أمّا أسوأ أيّامي فبلا تردّد أقول: الشّهور الأربعة الّتي أمضيتها مع محمّد وعثمان تحديداً، تمنّيت وقتها لو أنّي كنت معتقلاً إلى جانب بعض الرّفاق والأصدقاء من معتقلي "إعلان دمشق" في سجون النّظام السّوريّ، فذلك أهون عليّ من العيش مع عثمان.

في منتصف الأربعينيّات من عمره. بدا لي عندما جاء يصطحبني من بيت الضّيافة في أوّل يوم التقيته بشوشاً ومتعاوناً، ما شجّعني على السّكن معه. خرج

من السّودان - كما روى ذات مرة - عام ٢٠٠٠، ومثل كلّ أبناء الشّرق التّعيس كان يبحث عن حياة كريمة.

في الطّريق إلى كندا مرّ بدمشق، وأقام وعمل فيها ثمانية شهور، معتقداً أنّه أصبح خبيراً في شؤون وأحوال السّوريّين. صار يجادلني في بديهيّات لا تستحقّ الجّدل. وضح لي أن شهوره الثّمانية تلك تركت لديه ارتكاسات غير سارّة، ولأنّ الطّريق إلى كندا وعر جدّاً لمن يريد الوصول إليها؛ فقد مرّ عثمان في طريقه إليها بموسكو، وأقام عند الرّوس أربع سنوات.

يعمل عثمان في كندا عاملاً في قطاع البناء، يخرج إلى عمله في الخامسة صباحاً، ولا يأتي إلاّ في الخامسة مساءً. العمل في هذا القطاع مرهق، لكنّ أجر السّاعة فيه مرتفع، يتراوح بين خمسة عشر وخمسة وثلاثين دولاراً.

من خدم في الجَيش العربيّ السّوريّ يعرف بعض ثقاليده وطقوسه، والقادم إلى الخدمة جديداً يعاني كثيراً من زملائه ومرؤوسيه وخاصّة القدامى منهم والمتطوّعين الّذين أمضوا جلّ حياتهم فيه، فالغطرسة وادّعاء الفهم النّاتج عن الأقدميّة يسيطر عليهم، تراهم يتمنطقون ويفتون في كثير من الأمور الّتي لا يفقهون فيها، ولو ناقشهم مجنّد حديث الخدمة مبيّناً لهم خطأ رأيهم، فإنّهم سيصبّون عليه جام غضبهم، وفي حال امتلاكهم السّلطات فإنّهم يستخدمونها بكلّ غباء وتعسّف.

عثمان بسنواته السّتّ في كندا وشهوره الثّمانية في دمشق هو بالضّبط ذلك المجنّد القديم، وأنا العسكريّ الغرّ الّذي لا يفقه شيئاً. نصّب ذاته قاضياً يفتي في كلّ شيء! وما زاد الطين بِلّة اكتشافه في اليوم الثّاني أنّي لا أصلّي عندما سألني الذّهاب معه إلى مسجد قريب.

لدى عثمان ارتكاسات غير سارّة منذ إقامته في دمشق، وقد عبّر عنها ذات مرّة. (أنتم السّوريّون) هكذا قالها مباشرة وبلغة الجمع، ثمّ تابع: (نساؤكم يضعن رِجلاً على رِجل وقليلات دين). ابتسمت ولم أكلّف نفسي عناء الدّخول معه في نقاش لا طائل منه. فقط سألته أين كان يعمل في دمشق، أجابني حرفيّاً: (عند

واحد شامي حقير لا رحمة لديه، أكل نصف أجرتي). أدركت تماماً ما يعاني منه شريكي.

بنظر عثمان من ليس له دين لا أخلاق له. هكذا صنّفني، ومطلوب منّي أن أكون الدّرينة الّتي تستقبل سهامه، وعليّ تعويض بعض القهر الّذي سبّبه له ذلك "الشّامي الحقير"

أدركت حجم ورطتي منذ الأسبوع الأوّل. حاولت أن أسايس الأمور ولا أتركها تنفجر، فمن غير المعقول أن أفتّش عن سكن جديد ولم يمضِ أسبوع واحد فقط على انتقالي. زاد من تأزّم الأمور تفاصيل صغيرة تعود إلى اختلاف العادات والتّقاليد.

كنت أفتح نوافذ غرفة الجلوس المتّصلة بالمطبخ عندما يبدأ عثمان الطّبخ، وعندما أفتح باب غرفتي والنّافذة الوحيدة كي يتجدد هواؤهما؛ كان يحتجّ على ذلك، ويستغرب أشدّ الاستغراب. تأخّر عثمان أكثر من أسبوع في توصيل النّتّ إلى البيت الّذي اشترطتّ وجوده، إذ لا أستطيع الاستغناء عنه، فيما عثمان يتذرّع بحجج واهية. تلك التّفاصيل تراكمت فوق بعضها، وفجّرها دفعة واحدة الإمام الفيجيّ.

صلاة العيد

غداً يصادف عيد الأضحى. سألت محمّدًا ليلاً: (هل ستذهبون غداً لأداء صلاة العيد؟)، أجابني بنعم. قلت له: (أوّد الذّهاب معكما، ليتك توقظني صباحاً). أردتّ من خطوتي تلك إذابة بعض الجليد، كذلك - وهو الأهم بالنّسبة لي - معرفة أجواء العيد في كندا، وما هي الطّقوس المتّبعة، والتعرّف على طبائع وعادات المسلمين من عرب وجنسيّات أخرى، فهكذا مناسبة وما فيها

كانت تلهب فضولي، وهي جديرة بالملاحظة، ومقارنتها بما أعرف عن صلاة وطقوس العيد في سوريا.

في الخامسة صباحاً، وبعد التّحايا والتبريكات بالعيد؛ انطلق ثلاثتنا إلى مسجد يبعد عن البيت حوالي ربع ساعة، مستقلّين باص النّقل الدّاخليّ. كان مسجداً ضخماً وكبيراً وجميلاً، وقد غصّ بجموع المصلّين من جنسيّات مختلفة كثيرة، وربّما أكثرها من أبناء الجاليتين الهنديّة والباكستانيّة، فسحنات وجوههم واضحة.

لم ألحظ شيئاً غير عادي أو غير مألوف، سوى ذاك الإمام الّذي كان يؤمّ المصلّين، والّذي ظلّ بعد انتهاء الصلاة يردّد مدّة نصف ساعة تقريباً جملة واحدة فقط: (لا إله إلا الله)، والبعض يردّد وراءه بصوت خفيض.

إلى المنبر تقدّم شابّ لا يتجاوز الثلاثين من عمره، وبعربية ركيكة جداً بدأ يلقي خطبة العيد. في طريق العودة لم يرق لعثمان قولي (إن هذا الخطيب لا يفقه لا بالعربيّة ولا بالتّاريخ الإسلامي، خلط عبّاس بدبّاس، وكان يتحدّث مثل الحكواتيّ في المسلسلات الشّاميّة). ردّ عليّ باستهزاء: (ما رأيك لو أصبحت محلّه؟). يبدو أنّي أخطأت، وما كان عليّ الخوض في هكذا تفاصيل. وبعيداً عن عثمان ضحيّة وأسير هكذا إسلام؛ تكاد تشكّل تلك التّفاصيل إسلاماً بلبوسات كاريكاتوريّة، إسلاماً يعتني بالطّقوس والشّكليّات، ولا يأبه لجوهر وقيم ومعاني الإسلام، بل تشوهه وتسيء إلى روحه.

خارج النص

ما يمكن قوله في هذا المجال - أكتب هذا بعد انقضاء سنوات أربعة على وجودي في كندا، وهي- عموماً- ملاحظات لا ترقى إلى مرتبة السّبر والملاحظة الموثّقة جيّداً - إنّ من يقوم برعاية وتفسير الإسلام هنا في كندا أناس أو مؤسّسات، إسلامهم قعد أو تمّ تقعيده مذ كان الإسلام لا يزال في مراحل

انتشاره الأولى، زمن الرّسول والخلفاء الرّاشدين، وتجميع قصص متناثرة عن الفتوحات والغزوات من دون رؤية شاملة واتّساق منطقي، هذا يتأدّى عنه إسلام منقطع ومسلمون منقطعون عن العصر الّذي يعيشون فيه. ولو دققنا النّظر في الأشخاص أو الجهات الّتي تتولى تفسير الإسلام - إن جاز التعبير - نرى على رأسهم الإمام الّذي أمّ المصلّين، والخطيب الّذي خطب فيهم خطبة العيد، وكلاهما من دولة فيجي. هذان الاثنان وبعض القائمين على إدارة المساجد وأغلبيّتهم من فيجي ومسلمي الهند وباكستان، كذلك بعض أشخاص التقيت بهم جاءوا من السعودية بمهام يمكن وصفها بأنّها "تبشيرية"، هؤلاء كلّهم يمكن أخذهم كعينة مسؤولة عن تفسير الإسلام في كندا، ويمكن أيضاً إضافة عراقيّين شيعة لديهم أيضاً سرديتهم عن الإسلام، حيث جراندهم المطبوعة تمتلئ بقصص الماضي، وكيف تم الغدر بالحسين، وحديث لا ينتهي عن اللّطميّات الشّهيرة.

في ذات السياق وإغراقاً في التّفاصيل؛ يبدو السّؤال المغرق في الدهشة هو: كيف لدولة صغيرة مثل فيجي تنطّح أفراد منها وتبوؤا إدارة مسجد هنا، وإمامة الصّلاة هناك، ومن أين استمدوا هذه السّلطة؟!

لا أنكر أنّي كنت معجباً واعتبرته - كرأي شخصيّ - فتحاً في الإسلام عندما حضرت تشييع جنازة والد أحد أصدقائي من مسجد في مدينة بيرنبي، حيث أقيمت صلاة الجنازة، واصطف المصلّون الرّجال في المقدّمة والنّساء في الخلف. هذا ما كان ليحدث في أيّ دولة عربيّة لأسباب وتفسيرات كثيرة، لكنّه يحدث هنا في كندا، وحدث شبيه مثله في مدينة مونتريال عندما تولّت امرأة هي عفراء الجلبيّ إلقاء خطبة عيد الأضحى في مجمّع النّور، وقد تناقلت وكالات الأنباء أنّ امرأة مسلمة أمّت المصلّين في إحدى الولايات الأمريكيّة.

بالعودة إلى فيجي، تلك الدّولة المتناثرة جزرها الصّغيرة في المحيط الهادي ولا يتجاوز عدد مسلميها نسبة الـ٧% من بين عدد سكّانها البالغ مليون أو أقلّ،

ودخلها الإسلام عبر العمالة الهنديّة والباكستانيّة أيّام الاستعمار البريطانيّ لها في القرن التّاسع عشر وبدايات القرن العشرين، كيف لهذه الدّولة وأئمّة المساجد فيها على قدر ضعيف من الثّقافة الإسلاميّة واللّغة العربيّة أن تتصدر المشهد وتقدّم تفسيرات للإسلام؟

التقيت أحد أئمّة تلك المساجد في مدينة سيري، عرّفته بنفسي، وأنّي صحافي أكتب تحقيقاً عن المسلمين في كندا، دار بيننا حديث بلغتين عربيّة وإنكليزيّة مكسورتين، سألته من أين يستقي معلوماته عن الإسلام؟ قال إنّه يقرأ القليل من الكتب العربيّة، كما يقرأ وأغلبيّة زملائه التّرجمات، إمّا عن اللّغة الإنكليزيّة أو عن اللّغة الأُردية. وهؤلاء تصدّروا إدراة المساجد والوقف الإسلاميّ بسبب هجراتهم المبكّرة إلى كندا، وقبل وصول غيرهم من مسلمي الدّول الأخرى.

قمع اللّغة

شعرت وكأنّ الغربة تطفئ روحي، تشقّقها، تشلعها؛ رفعت قبضتي وتركتها تهوي على أقرب جدار عندما خانتني الكلمات، ولم أعد قادراً على التّعبير. هذا ما حدث تماماً.

ذهب عثمان إلى مديرة العمارة الّتي نسكن فيها. هي امرأة بوسنيّة. واتّهمني أنّي أردتّ ضربه. هدّد بتقديم شكوى ضدّي إلى الشرطة. كان عسيراً عليّ أنّ أشرح ما يجري وإقناع المديرة بوجهة نظري، والحديث لها عن كلّ استفزازاته السّابقة لي، ولماذا وصلت الأمور إلى هذه النّتيجة.

محمّد الأوغنديّ كان سلبيّاً، وبقي صامتاً لا يريد خسران صديقه القديم من أجل وافد جديد. شعرت بسجن اللّغة، كانت تصفعني وتضغط على كلّ كياني، فما اعتبرته نقطة قوّتي عندما أتحدث العربيّة وأناقش وأشرح عبرها وجهات نظري؛ انقلب إلى الضّدّ تماماً في الإنكليزيّة. وحده (القانون يحمي المغفّلين)

حماني مما كنت فيه، وحسب القانون الكنديّ كان الحقّ معي لأنّي جديد في البلد، وواجب على الأقدم منّي فيها مساعدتي وإرشادي والأخذ بيدي.

لست ملاكاً ولا شيطاناً. حاولت ألا تنفجر الأمور، إنّما صار دماغي مثل طنجرة الضّغط، يتجمّع داخلها كلّ البخار، ولا منفذ فيها للتّنفيس.

أدرك عثمان نقطة ضعفي واستثمرها خير استثمار لاستفزازي وإخراجي عن طوري ونجح. ماطل كثيراً في توصيل شبكة النّتّ إلى البيت.

(إمّا أن تجدوا لي سكناً آخر، أو تُفْهموا هذا الآدميّ أننا لا نعيش لا في السّودان ولا في سوريا. بمزاجه يتحكّم في إدارة شؤون البيت). قلت لعبدالله عندما ذهبت إليه في بيت الضّيافة، وشكوت له عدم التزام عثمان بتوصيل شبكة النّتّ. (نصحتني بالسّكن عنده كي يساعد في كثير من الأمور، لكنّه يرفض تماماً، ودائماً يتذرّع بحجج واهية).

تمّ توصيل النّتّ أخيراً. استمرت الأمور على هذا المنوال أكثر من شّهرين، إنّما قطيعة تامّة مع عثمان. لا سلام ولا كلام. لا مرحباً ولا صباح الخير، وعلاقتي مع محمّد لم تتطوّر بسبب اللّغة، لكنّه لم يبخل في تقديم أيّ مساعدة كنت أطلبها منه، إنّما كان يمضي جلّ وقته في المعهد الّذي يدرس فيه، وفي عمله كموظّف أمن وحراسة بدوام جزئي نهاية الأسبوع. كان شاهدًا على المشكلة التي اندلعت بيني وبين عثمان لحظة ضربتْ قبضتي الجدار.

كنت أجلس في غرفتي فترات طويلة، لا سلوى لي سوى الكمبيوتر والنّتّ، فإمّا أكتب أو أقرأ أو أتصفّح. بدأ الشّتاء. لا عمل لي، ولم ألتحق بمدرسة لتعلّم اللّغة الإنكليزيّة إلا بعد شهرين ونصف.

عثمان الّذي أدرك حاجتي إلى النّتّ بدأ يستفزّني. بحجة ترتيب الصالة كان يفصله عدّة دقائق ثم يعيده كما ادّعى. ضبطّته ينزع الكابلات عن السّيرفر. ضاعت عليّ صفحات كثيرة كتبتها ولم أكن قد حفظتها بسببه، وبسبب انقطاع التّيار الكهربائيّ مرّتين أو ثلاثًا. بات من الصّعب استمرار عيشي هكذا.

شقراء الكوميرشال وفجوات اللغة!

في خضَم مشكلاتي مع عثمان وتلوّث هواء البيت جرّانها؛ وصلتني رسالة بريدية تحدد لي موعد فحص المستوى في اللّغة الإنكليزيّة. تنفّست الصّعداء. ما كنت ألحّ فيه على أنجيلا وعبدالله تحقّق. استقلّيت السّكاي ترين من بيرنبي إلى منطقة الكوميرشال حيث مكان الفحص. المسافة زمنّياً تصل إلى حوالي عشرين دقيقة. الجوّ ماطر، بيدٍ أرفع مظلّتي، وباليد الأخرى أحمل الرسالة مقرّباً إياها إلى صدري كي لا تبتلّ، بين خطوة وأخرى أدقّق في العنوان. لم يكن سهلاً في ذلك الجوّ وفي مكان تطؤه قدماي للمرة الأولى العثور على وجهتي. منطقة الكوميرشال تقع ضمن الحدود الإداريّة لمدينة ڤانكوڤر، وهي منطقة كبيرة، وتعتبر عقدة مواصلات ونقطة التقاء القطارات القادمة والمغادرة في أكثر من اتّجاه. كنت غير بعيد عن مركز الفحص، لكنّي بقيت زمناً أدور في ذات المكان، أقف تحت مظلّة موقف الباص وأدقّق في أرقام المحال والعمارات، عليَّ أعثر على رقم البناء. الفتاة الشّقراء العشرينيّة الّتي كانت تنتظر قدوم باصٍ لحظت حيرتي وارتباكي. بادرت: (هل أستطيع مساعدتك؟)، أومأت برأسي لها كالأبله مبتسماً، نظرتْ إلى العنوان، ثمّ قادتني حوالي خمسين متراً فوضعتني تماماً أمام بناء مركز الفحص. كانت تشير بيدها إلى الدّاخل، وابتسامة عذبة ترتسم على وجهها الملائكي. شكرتها بكلّ لغات العالم، ثمّ دخلت مهرولاً لأجدني واقف بمواجهة موظّفة الاستقبال. وصلتُ في الموعد تماماً.

فحص تحديد مستوى اللّغة الإنكليزيّة للمهاجرين الجدد يقيس مهارات الكتابة والقراءة والتحدّث والسّماع. الكتابة والقراءة يتمّ اختبارهما معاً عبر فحص تقليديّ مدّته ساعة واحدة، ثم يتم اختبار التحدّث والسّماع وجهاً لوجه بين الفاحص والمفحوص. استمعت إلى ثلاثة مقاطع مسجّلة، وكانت سرعة الكلام تزيد تدريجيّاً من مقطع إلى آخر. في الإجابة عمّا تمّ سماعه؛ تلقائيّاً يكون الفاحص قد حدّد مستوى التحدّث.

لم يتجاوز الاختبار الثّاني عشْرَ دقائق، لكنّي شعرت أنّها الدّهر كلّه. كان عسيراً عليّ التقاط اللّكنة الّتي يتحدّث بها الكنديّون، وخاصّة عندما يتحدّثون بشكل سريع، هكذا كان يخيّل لي، ولكلّ من يحاول تعلّم الإنكليزيّة. في الواقع هم يتحدّثون بشكل عاديّ، إنّما المشكلة تتمثّل في فجوة أظنّها تشكّل ٢٠ % وربّما أقلّ قليلاً أو أكثر؛ بين لغة الشّارع ولغة المدرسة أو اللّغة الأكاديميّة.

في هذا المجال؛ لنتخيّل كعرب نسبة الفجوة بين اللّغة العربيّة الفصحى واللهجات المحلّيّة. ربّما تتجاوز ٦٠% أو أكثر. ففي اللّغة الإنكليزيّة توجد فجوة صغيرة، إنّما حتّى هذه الفجوة يحاول الناطقون بها تلافيها، بوضع المفردات الّتي تنتمي إلى لغة الشّارع ضمن المناهج الدّراسيّة، وبدل أن يقولوا (I want to) يقولون (I wanna)، وبدل قولهم (I am going to) يقولون (I ganna)، وكثيراً من المفردات والجمل تغيّرت بفعل عوامل وأسباب كثيرة لست أهلاً ولا متخصّصاً للحديث عنها.

تلك الفجوة الصّغيرة في اللّغة الإنكليزيّة، ورغم محاولات جسرها؛ إلاّ أنّها جعلتني أشفق على غير العربيّ الّذي يحاول تعلّم العربيّة، فحتّى وإن نجح، لكن لكم تخيّل وضع ذلك المسكين وهو يحاول التحدّث بالعربيّة الفصحى في شوارعنا الّتي تغصّ بآلاف اللّهجات.

يحضرني في هذا السّياق فيلم جزائريّ مترجماً إلى الإنكليزيّة حضرته في بيروت. قلت لأصدقائي الّذين حضروا الفيلم وإيّاي: (لو كانت التّرجمة إلى العربيّة لكان ذلك أفضل)، فقد ضاعت عليّ وعلى كثيرين ممن حضروا الفيلم من لبنانيّين وسوريّين بعضاً من لغة الفيلم بسبب صعوبة اللّهجة الجزائريّة.

لم أنتظر كثيراً لمعرفة المستوى الّذي سأبدأ منه. عشر دقائقٍ استلمت بعدها رسالة فيها كلّ مفردات هويّتي، وعنواني، وعبارة (المستوى الثّالث)، وتفاصيل أخرى.

الفصل الثّالث

إلى المدرسة لكنّي لا أفهم شيئاً

سيطر عليّ قلق ممضّ، دائماً يحتلّني عندما أكون مقدماً على مواجهة أمر جديد. استفيظت في الثّالثة فجراً، صرت أغفو قليلاً ثمّ أفتح عيني وأنظر إلى ساعة الموبايل الّذي ركنته قريباً منّي، كنت قد أقتّ منبّهه على السّابعة. استيقظت في الرّابعة، ثمّ في الخامسة، ثمّ في السّادسة قرّرت النّهوض. لم آخذ كفايتي من النّوم. في التّاسعة إلا عشر دقائق كنت في الصّف. سبقني ثلاثة أو أربعة طلبة. في التّاسعة تماماً اكتمل العدد، وكان ستّة عشر طالباً وطالبة، والمدرّس ذو النّظارة الطبيّة، الطّويل القامة، المبتسم دائماً؛ كان قد حضر قبل التّاسعة بدقيقتين تماماً.

بعد أسبوع قلت له: (أريد الرّجوع إلى المستوى الثّاني، هنا لا أفهم شيئاً). علت وجهه ابتسامة لطيفة، وتدفّق من عينيه الدفء وهو يمطّ الحروف إلى آخرها كي أفهم عليه: (لا تقلق، هذا عادي). فهمت منه ومن طلبة آخرين أن لا مشكلة إن لم أفهم كلّ شيء. قال لي طالب صينيّ: (كلّنا كنّا هكذا عندما جئنا، ولا نزال لا نستوعب كلّ ما يقال. لمّا سألته: (كم سنة مضت على وجودك في كندا)؟ أجابني: (أربع سنوات). تنفّست الصّعداء عندما عرفت فيما بعد أنّ زميلتي الكوريّة الجنوبيّة مضى على وجودها في كندا عشر سنوات. بعد فضول وتمحيص واستكشاف وجدتّ أن أحدث من في الصّف هي طالبة إيرانيّة مضى على قدومها إلى كندا تسعة شهور.

كنت أتساءل في سرّي: (هل يعقل أن يظلّ المرء سنوات عديدة ولا يتقدّم في لغته الإنكليزيّة؟!)، هذا اتّهام لهؤلاء الطّلبة أسطره هنا على خجل. تساءلت في

سرّي أيضاً مشكّكاً في قدراتهم العقليّة (هل هم أغبياء؟!). أُدرك الآن حماقة اتّهامي لهم، فتعلّم اللّغة، أيّ لغة؛ ينطوي على مستوى اللّغة الّذي يريد المرء الوصول إليه.

من السهل جدّاً - بعد عام أو عامين - أن تُتقن قليلاً أو كثيراً لغة البلد الأجنبيّ الّذي تعيش فيه في حدود اللّغة المعاشة واليوميّة، إنّما اللّغة بناء متدرّج وفيه طبقات عالية، الوصول إليها يتطلّب دراسة ومواظبة وجهد. في النّهاية ربّما يتحدّث الكلّ اللّغة، إنّما لا يستطيع الكلّ القراءة والكتابة، إلا أولئك الّذين جدّوا واجتهدوا وواظبوا على الذّهاب إلى المدارس. أمّي وأمّك اللّتان لم تذهبا إلى المدرسة بالتّأكيد تتحدّثان العربيّة، إنّما لا تستطيعان القراءة أو الكتابة فيها، وهذه مشكلة كثير من العرب الّذين التقيتهم هنا. أهملوا اللّغة متعلّلين بالنّظرية الفارغة، الشّارع هو من يعلّمهم، لكن إن جاءت رسالة إلى بريدهم ركضوا في كلّ اتّجاه يتوسّلون من يترجمها لهم. خسروا اللّغة وظلّوا يجترّون وقتهم في الأعمال المتعبة، مرتضين بدولارات قليلة اعتقدوا أنّها كثيرة عندما قارنوها مع عملاتهم الوطنيّة، أو مستوى معيشتهم في أوطانهم الّتي هاجروا منها. قلت في سرّي: (جميل إذن، ستّة شهور وأحقّق قفزة جيّدة، فأتخلص من التّأتأة).

لا تكن عنيدًا

كنت أريد سباق الزّمن. جاءنا المعلّم يسأل عمّن يريد تقديم امتحان تجاوز المستوى الثّالث للانتقال إلى المستوى الرّابع؟ كان قد مضى على وجودي في الصّف شهراً ونصف فقط. المدّة الزّمنيّة لكلّ مستوى كما هو منصوص عليه أربعة شهور وبدوام كامل، من التّاسعة صباحاً حتّى الثّانية والنّصف ظهراً. نظام الدّوام أشبه ما يكون بصندوق مفتوح. يستطيع أيّ طالب جديد الالتحاق بالصّف في أيّ وقت، ويمكن أن تكون لحظة التحاق طالب جديد هي ذاتها لحظة انتهاء الشّهور الأربعة المقرّرة لطالب آخر، أمّا المنهاج فمرِن جدّاً. يتمّ

توزيع أوراق الدّرس في كلّ حصة، لا كتب مطبوعة، ولا مقرّرات جاهزة كما هي الطّرق التقليديّة في المدارس والأكاديميّات، ولا يشعر الطّالب الجديد أنّ أيّاً من الدّروس قد فاتته. المدارس المخصّصة للمهاجرين لا تعتبر مدارس أكاديميّة، وهو ما لم أكتشفه إلا بعد وقت طويل، ما كلّفني وقتاً أهدرته، فهي تهتمّ فقط بالمحادثة والسّمع، فيما لا تعير كثير اهتمام بالقراءة والكتابة. فينصبّ اهتمامها على إكساب الطّالب اللّغة الإنكليزيّة اليوميّة الدّارجة.

أدرجت اسمي مع الطّلبة الّذين يودّون إجراء الامتحان، من بينهم أولئك الّذين وجب عليهم تقديمه لإنهائهم مدّة الشّهور الأربعة. لم تكن النّتيجة مرضية، وبقيت في المستوى الثّالث، حصلت على علامة النّجاح في القراءة والكتابة، ورسبت في امتحانيّ التحدّث والسّماع.

منى واصف والنّظرة النمطيّة

تصمّم الدّروس في مدارس اللّاجئين والأجانب لإكساب الطّلبة كيفيّة التحدّث بالإنكليزيّة، لذلك كنّا نسمع كثيراً أشرطة الكاسيت، ونشاهد الأفلام السّينمائيّة، ثمّ تُطرح الأسئلة، وتدور نقاشات مبسّطة حول ما سمعناه. في الأفلام السّينمائيّة ثمّة أكثر من هدف من عرضها، فإلى جانب النّقاشات الّتي نتمرّن فيها على النّطق، يوجد هدف ترفيهيّ من عرضها، وبعيداً عن نظريّة المؤامرة؛ يُراد منها أيضاً نقل ثقافة جديدة إلى مهاجرين جدد، والتّعريف بالكثير من الرّموز والتّقاليد الكنديّة، وترسيخ بعض القيم والعادات لدينا.

استُخدمت معنا وسيلة ناجعة أخرى يراد منها تدريبنا على نطق الإنكليزيّة، والاستماع إلى لهجة أو عدّة لهجات منها، فالتحدّي الأكبر في تعلّم الإنكليزيّة ليس سماع وفهم كنديّ أو أمريكيّ أو بريطانيّ يتحدّث لغته، إنّما في فهم الصّينيّ الّذي يضطرّني للضّغط على أعصابي، وتركيز كلّ حواسي لفهمه، أو

الهنديّ الّذي يتحدّث الإنكليزيّة وهو يغنغن بحروفها، أو الفرنسيّ الّذي يتحدّث الإنكليزيّة بفرنسيّة واضحة.

كان المعلّم يقسمنا في الصّفّ إلى مجموعات، كلّ واحدة تتكوّن من أربعة طلبة، وكلّ واحد فيها من جنسيّة كي لا يتمّ التحدّث إلا بالإنكليزيّة. يعطي المدرّس كلّ مجموعة بضعة أسئلة يجيب عليها الطّالب ضمن مجموعته، ثمّ يبدأ بطرح الأسئلة، والنقاش من دون قيود.

فغرت الصبيّة فاهَا. فتحت عينيها. أضحى جسدها كتلة من إشارات التعجب والاستفهام غير مصدّقة إجابتي عن سؤال (ما أشهر مدينة في بلدكم، ومتى بنيت؟). لا أدري إن كانت كتب التّاريخ صادقة عندما قالت إنّ دمشق أقدم عاصمة في التّاريخ، إنّما كنت مزهوّاً عندما قدّمت تلك الإجابة أمام الصّينيّة والرّوسيّ والبرازيليّة أفراد مجموعتي. ربما قالت تلك الّتي تتفاخر بسورها العظيم: (تعال... قد ضبطتّك أيّها العربيّ السّوريّ الّذي لا يُعرف موقع بلده على خارطة العالم، وهي تنفجر بـ "impossible"، حين قلت: (منى واصف) على سؤال: (من هو أشهر ممثل في بلدكم؟). تقصّدت اختيار ممثلة وليس ممثلاً لأراقب ردّ الفعل، وحدث ما توقّعت.

في النقاش على إجابتي قالت الصّينيّة: (هل مسموح للنساء عندكم بالتّمثيل؟)، وتابعت: (ألا يأمر دينكم أن تكون المرأة محجّبة؟). يا لقمع اللّغة! كيف لي إيصال فكرتي إليها؟! وإن استطعت؛ هل ستفهم الـ "Accent" خاصّتي؟

كنا كطلبة مبتدئين نُكثر من استخدام لغة الجسد والوجه لإيصال رأي أو فكرة ما. حاولت ما استطعت إقناعها بأنّنا لسنا صحراء وخيام وإبل فقط. هل نجحت؟ يبدو نعم، وصلني الجواب متسلسلاً وعلى دفعات خلال دوامنا اليوميّ في المدرسة. كنت وإيّاها الطّالبين الوحيدين اللّذين لم يبتليا بالزّواج حينها.

عندما التقيت مأمون الحمصيّ مصادفة

في بيروت أثناء فراري إليها قادماً من الرّقّة؛ تعرّفت إلى مأمون الحمصيّ عضو مجلس الشّعب السّوريّ السّابق، ومعتقل الرّأي، جمعتني به هناك علاقة احترام متبادل شابتها بعض الخلافات حول أسلوب وطريقة العمل في معارضتنا النّظام السّوريّ، والّتي أدّت إلى شبه قطيعة. لم ألتقِ به بعدها. غادر بيروت بعد منحه حقّ اللّجوء في كندا. كان ذلك قبيل وصولي إليها بشهرين.

يا لهذا العالم كم هو صغير!

في إحدى الاستراحات بين حصّتين تناولت من حقيبة الظّهر الّتي أحمل فيها كتبي ودفاتري وزوّادتي سندويشة كنت قد أعددتها، كما أفعل كلّ صباح. خرجت بها إلى الشّارع الفرعيّ للمدرسة. التهمها وخيوط شمس خجولة تظهر قليلاً وتختفي. لمحت وأنا أنقل خطواتي بتمهلّ رجلاً قادماً نحوي. وهو يقترب كانت ملامح وجهه العبوس تظهر أكثر. ولسان حاله ربّما يقول: (أما كان لهذا القضاء ألا يكون قدراً). لا مفرّ من التقائنا. الرّصيف ضيّق، والشّارع خالٍ إلاّ من كلينا. ها نحن في قانكوڤر بعد أن لفظتنا بيروت، وقبلها دمشق. مأمون الحمصيّ بشحمه ولحمه في قانكوڤر، المدينة الّتي ربّما مساحتها كمساحة سوريا. لقاء مصادفة لم يرتّب له أحد. لم نتعانق، ولم نصافح بعضنا جيّداً. لا يزال النائب السّابق غاضباً منّي ومن كلّ سوريّ لم يتعاطف معه في محنته في بيروت عندما رفضت السّلطات اللّبنانيّة تجديد إقامته. كنت أردّ عليه ببساطة عندما كان يعاتبني: (إن أرجلنا في الفلقة سوا). وصلت خلافاتنا إلى طريق مسدود. (السّلطات اللّبنانيّة لم تجدّد لي ولم تجدّد لك، لكنّها أيضاً لم تبحث عنّا لتسفيرنا خارج لبنان، بقيت مخالفاً ومقيماً على أراضيها، وأنت كذلك، الفرق بيني وبينك أنّك أردتّ توظيف الموضوع إعلاميّا وفعلت، أمّا أنا فلا، بقي كلانا في لبنان، أنت في بيروت، وأنا في فرن عند أبناء أختي الّذين كانوا عمّالاً فيه في قرية قبّ الياس، ننتظر أجلا موعوداً، وها نحن الاثنان في هذا البلد الّذي

لمّنا ثانية). افترقنا بعد عتاب، لم نتبادل أرقام هاتفينا. وحتّى مصادفة أخرى ولقاء ثانٍ تركنا بعضنا.

عثمان والقادمون من بلاد السّهر

البيوت في كندا مبنية جلّها من الخشب. تفصل بين غرفها جدران خشبيّة رقيقة، وأيّ نأمة أو حركة في سكون اللّيل خاصّة؛ تغدو صخباً صارخاً. لياليّ الشّتائيّة - خلال شهوري الأولى – كنت أمضيها ساهراً حتّى بعد منتصف اللّيل، وأحياناً كنت أسهر حتّى تتبيّن خيوط الصّباح الأولى، أقرأ، أو أتابع فيلماً، أو أتحدّث عبر السكايب.

في واحدة من تلك اللّيالي كنت أتحدّث مع صديق في سوريا عبر السكايب، ويبدو أنّ صوتي كان مرتفعاً. استيقظ عثمان. سمعت طرقاً على الباب وهمهمة، ولمّا فتحته، بصعوبة استطعت رؤية وجه عثمان الفاحم. بادرني غاضباً بأنّي أيقظته من النّوم. اعتذرت منه لسوء تصرّفي. وقدّرت في سرّي أنّي غير محقّ، خاصّة وأنّ الرّجل يستيقظ في الخامسة صباحاً ليذهب إلى عمله. أدار ظهره متوجّهاً إلى غرفته دون أن ينبس بكلمة. يبدو أنّنا نحن القادمون من بلاد السّهر حتّى بعد منتصف اللّيل نحتاج إلى ضبط وتأهيل لتغيير بعض عاداتنا السّيّئة، كأن ننام ونستيقظ باكراً، ونلتزم بمواعيد الطّعام، لكنّ تغيير عاداتنا يحتاج منّا إلى جهد مضاعف.

عندما انتقلت إلى سكن جديد كانت تجاورني عائلة عراقيّة وفدت حديثاً، مؤلّفة من الوالدين وأطفال أربعة، أعمارهم تتراوح بين السّابعة والخامسة عشر، كانت تسكن في الطّابق الثّاني، وتحتهم تسكن امرأة كنديّة وابنتها العشرينيّة وكلبهما. ضاقت الكنديّة ذرعاً بصخب العائلة الّذي يستمرّ إلى ما بعد منتصف اللّيل، فاشتكت الأمر للبوليس مرة أولى وثانية. صادف وقت الشّكوى شهر رمضان، فعُلّل الأمر للبوليس أنّ ذلك الصّخب يكون وقت السحور، وهو مبرّر كونه موعد دينيّ مقدّس. فُهم الأمر وطوي، وانضبطت العائلة فيما بعد.

التحقت بالمدرسة. لم أعتد على الاستراحة ظهراً عندما تضع السّاعة عقربيها على الثّانية عشرة. لا بل استنكرتها. فرصة الغداء كانت تمتدّ حتّى خمسين دقيقة في معظم الدّوائر الحكوميّة والخاصّة، ومن بينها المدارس. استنكرت أيضاً تصرفات زملائي حين يفرشون زوّاداتهم ويهجمون على الأكل.

لم أعتد أن يكون موعد غدائي في الثّانية عشرة ظهراً. عاندت وقاومت فترة هذا النّظام الجديد. كنت أجلب معي في البدايات إبريق قهوة، إذ كان مسموحاً شربها حتّى أثناء الدّرس، وفي أحسن الأحوال أجلب تفّاحة أو موزة، وأؤجّل غدائي إلى حين عودتي إلى البيت. بعد شهر تقريباً من هذا العناد؛ بدأت أكتشف أنّي على خطأ، فالحصّة الأخيرة تمتدّ من الثّانية عشرة وخمسين دقيقة إلى الثّانية والنّصف، وهي تحتاج إلى تركيز حقيقيّ، وذهن متوقّد، ولا يمكن لهذا أن يتمّ من دون وجبة خفيفة تسكت معدة تبدأ بالقرقرة. كبّرت زوّادتي. صرت أشعر أنّ تركيزي بعد وجبة الثّانية عشرة مختلف عما قبلها، فجسم الإنسان حين يتعب يكون أشبه بسيّارة نفد وقودها، ووجبة خفيفة في منتصف النّهار تمدّ الذّهن بطاقة عجيبة، وهي مسألة عمليّة ومفيدة أدركتها تلك الشّعوب الّتي طوّعت المستقبل.

يبدو أن المصائب لا تأتي مع عثمان فرادى. عثمان وكأيّ إفريقيّ هو صاحب بشرة سوداء، لا يتجاوز طوله مائة وستين سنتمتراً، وكنت أزيده سنتيمترات قليلة ليس إلاّ، بنيتي وبنيته واحدة تقريباً، كنّا هزيلين نحيفين، وكأنّنا قادمين من مجاعة، كان كلّ واحد منّا يربط بنطاله إلى وركه بضبّة ومفتاح كي لا ينزلق.

السّاعة تشير إلى الثّالثة صباحاً. هكذا قدّرت الوقت صبيحة اليوم التّالي. سكون وظلام دامس كانا يلفّان البيت. عثمان وأنا كلٌّ في غرفته، سادرين في نومنا، ونحلم بالصّباح. في ذات اللّحظة، في ذات التّوقيت، عثمان وأنا نتقلّب

كلٌّ في فراشه. ثمّة ما يقضّ مضجعي، ثمة ما يقضّ مضجع عثمان. شيء ما يوقظني، هو ذاته يوقظ عثمان. النّوم سلطان، أهذي في نومي (هل أنهض؟). النّوم يحوم فوق وجه عثمان، يغالبه: (هل أنهض؟). أتشجّع. أرفس اللّحاف بقدميّ وأضحّي بالدّفء اللّذيذ. يتكوّر عثمان. يضغط على بطنه. يرفس اللّحاف أيضاً. ينهض ويمشي في الممرّ المؤدّي إلى المرحاض. كنت أيضاً في الممرّ في طريقي لأتبوّل. يرتطم رأسي به. أسمع صرخة. يقذف عثمان جملته في وجهي (العما ما تشوف). لا أدري من منّا أشعل الضوء. كنّا نمسك رأسينا من أثر الصّدمة. كنت غاضباً. رددت عليه: (العما بعيونك، ومن أين لي أن أرى سحنتك في هذا الظلام!).

كان هذا الاصطدام السّبب المباشر الّذي أدّى بفرنسا لاحتلال الجزائر.

الحمصيّ ثانية

سائر على غير هدى. الشّتاء يلملم أشياءه الكثيرة وينوي المغادرة غير مأسوف عليه. الشّهر بداية آذار، واليوم هو السّبت. يوم عطلة مع شقيقه الأحد. الكنديّون وغير الكنديّين يرفعون أقدامهم عالياً ويسترخون بلذّة عجيبة. لسعة برد خفيفة. لا يهمّ، فالشّمس تُستدعى على عجل حتّى وإن لم يحن أوانها تماماً، و"الويك إند" عطلة مقدّسة لا يضيّعها الكنديون في تعزيل وتنظيف البيوت كما هي العادة المحبّبة للنّساء في سوريا. يصخبون ويمرحون ويخرجون إلى المتنزّهات، والشّمس الّتي يستدعونها كي تأتي مسرعة يدجّنوها إن تواقحت، ويمدّون لها ألسنتهم ويسخرون منها. الرّجال والنّساء يتخفّفون ما أمكن من ألبستهم. أنّى توجّهت أرى السّيقان المخروطيّة الجميلة لفتيات حمر وشقر وصفر وسود تكتظّ بهنّ الباصات ومحطّات المترو والشّوارع والحدائق.

تركت لقدميّ الحرية بأن تقوداني، خلال نهار جوّه جميل، إلى حيث تريدان، فالمشي متعتي، وهذا الجوّ يبعث على الاغتلام. السكاي ترين لا يبعد عن منزلي

أكثر من ١٥ دقيقة مشياً. وجدتّ نفسي أدلف إليه. لا مخطّط عندي، ولا أعرف إلى أين أذهب. استرخيت في مقعدي أراقب بمتعةٍ الطّريق السّاحر وهو يمرّ على جسر باتلّو فوق نهر فريزر. لم أشأ النّزول إلا وقد عرفت أنّي وصلت إلى المحطّة الأخيرة "ووتر فرونت" في قلب الدّوان تاون، حيث نزل جميع الرّكّاب وغدا القطار فارغاً تماماً. هذه أوّل مرة وبعد ثلاثة شهور من قدومي تطأ قدماي هذا المكان. المحطّة جميلة جدّاً، وفيها الكثير من المقاهي والمطاعم البديعة التّنسيق. هي ذات مداخل عدّة، وكلّ واحد منها يودي إلى شارع من شوارع الدّاون تاون. بدأت "اتصوصع " - كما نقول باللهجة الرّقّاويّة - يميناً وشمالاً، مأخوذاً بسحر المكان. لم أشأ الخروج إلى أيٍّ من تلك الشّوارع. رأيت أفواجاً كثيرة من النّاس تذهب في اتّجاه مختلف. دفعني الفضول للسّير وإيّاهم لأعرف إلى أين تؤدّي طريقهم. قطعنا طريقاً أشبه ما تكون بجسر صغير مغطى بالكامل يمتد حوالي ٢٠٠ متر على طرفيه مياه المحيط الهادي. وصلنا إلى محطّة صغيرة على شاطئ المحيط تماماً. وجدتّني أنتظر مع المنتظرين عبّارة متوسّطة الحجم تقلّ النّاس إلى الضّفّة الأخرى، حيث يقع جزء من ڤانكوڤر، يدعى "نورث ڤانكوڤر".

سألت شخصاً يقف إلى جانبي إن كان عليّ دفع أجرة إضافيّة؟ وأخرجت التّذكرة من جيبي أريها إيّاه. أجابني إنّ النّقل البحريّ هو جزء من النّقل الدّاخليّ العامّ، والبطاقة الّتي أحملها صالحة لذلك. نظرت إلى صلاحيّة التّذكرة الّتي أحملها، كانت لا تزال صالحة، ولديّ ساعة كاملة لانتهاء صلاحيّتها. أجرة مواصلات النّقل الدّاخليّ - أي الباص والسّكاي ترين والنّقل البحريّ - تنخفض إلى دولارين و٧٥ سنتاً إلى كلّ مناطق ڤانكوڤر الكبرى خلال عطلة نهاية الأسبوع، ومدّة صلاحيّة التّذكرة ساعة وخمسين دقيقة.

انتظرت كي تفرغ العبّارة حمولتها من الرّكّاب القادمين إلى ڤانكوڤر، ثمّ صعدت إليها من الباب المقابل. سرّعت خطاي كي أعثر على مقعد يجعلني في

مواجهة مياه المحيط لأمتّع ناظريّ بمشهد أبنية الدّاون تاون الشّاهقة وهي تبتعد رويداً رويداً. لا أدري إن كنت قد شاهدتّ سحر وجمال ذلك المنظر في كلّ حياتي!

عشر دقائق استغرقت الرّحلة. كنت أتمنّى أن تطول أكثر. لا أعرف ماذا يوجد أو ينتظرني على تلك الضّفّة الّتي حطّت عندها العبّارة. لا أهتمّ كثيراً بتلك التّفاصيل، فقد كنت أهوى أن تدوس قدماي أراضٍ بكر.

صحيح أن لذّة الاستكشاف خسرتُ الكثير منها، إنّما أجبرتني أماكن كثيرة في كندا أن أفتح فمي وعينَي على اتّساعهم. كلّ شيء هنا مختلف لتبدأ لعنة المقارنات المضنية الّتي لا أعرف متى تزول وتنتهي. مقارنات محمّلة بكثير من الأسى. كيف استطاعوا تحويل أراضٍ وحشيّة ووعرة وصعبة إلى جنّة حقيقيّة. تذكّرت قرى في الرّقة لا تبعد عن نهر الفرات كثيراً. كانت عطشى. المقارنات خاطئة ولا تستقيم، إنّما حملتها معي دائماً أنظر إلى سوريا من بعيد!

أصبحت خارج المحطّة الّتي تتفرّع منها طرقاً صغيرة توزّع القادمين في مسارب عديدة ومختلفة. اخترت واحدة منها، ضيّقة وصغيرة. قادتني إلى بضع محال صغيرة وأنيقة- على كتف الطريق مباشرة مقهى ستاربكس، ويميناً ويساراً مطاعم بيتزا ووجبات سريعة، ثمّ وجدتّني أدلف إلى مول متوسّط الحجم وبسيط، جلت فيه مستكشفاً. كان يحتوي كثير من المطاعم الّتي تعرض لزبائنها مختلف صنوف الطّعام الغربيّة والآسيويّة، بالاضافة الى محالّ صغيرة فيها تحف ولقى بسيطة تؤرّخ بعضاً من تاريخ كندا. مددت قدمي أتعرّف إلى المكان أكثر فصرت خارجه، حيث ساحة كبيرة تطلّ على المحيط، وعلى مدّ النّظر وقف الدّوان التاون بعماراته غير بعيد عنّي، وتلك البواخر تذهب وتأتي في رحلات نقل بحريّة من وإلى ڤانكوڤر وشمالها في حركة دائبة لا تتوقّف إلا ساعات قليلة في اللّيل. تابعت رحلتي فوصلت إلى جسر يبلغ طوله حوالي مائتي متر. بلغتي الإنكليزيّة الرّكيكة فكّكت ما كتب على لوحة جداريّة نُصبت

في مدخله: (من هنا انطلقت البواخر الحربيّة معلنة مشاركة كندا في الحرب العالميّة الثّانية حيث اليابان هناك وتتشاطأ وكندا المحيط الهادئ). قفلت عائداً حيث المول ومطاعمه الّتي نُشرت طاولاتها قبالة المحيط، ليغدو الجّلوس هناك متعة خالصة. حين كنت أجول بين الطاولات؛ وإذ مأمون الحمصيّ وزوجته وأطفالهما يتناولون غداءهم!

الأمور إلى الأسوأ والبيت صفيح ساخن

بعد الارتطام الشّهير بين رأسي ورأس عثمان في تلك اللّيلة السّوداء الحالكة؛ يصحّ القول إنّ ما بعد الارتطام ليس كما قبله، إذ باتت الحياة لا تطاق. كثرت خلافاتي معه على أمور تافهة وبسيطة، وفي خطوة لئيمة منه قال: (دّبر حالك سأخرج ومحمّد من هذه البيت نهاية الشّهر)، وكان ذلك بداية الشّهر. (إن أردتّ البقاء فيه يتعيّن عليك دفع أجرته كاملاً ١٠٢٥ دولاراً). تابع بابتسامة سخرية: (دبّر معك مستأجرين اثنين وتظبط أمورك). كانت أموري إلى حدٍّ ما لا بأس بها، إذ بدأت تنحو نحو الاستقرار، وإن شابتها توافه صغيرة. تعرفتّ على شابّ فلسطينيّ يملك محلاً لتصليح الكمبيوترات، ساعدني في تمديد إنترنتّ خاصّ باسمي، وهاتف أرضيّ، تخلّصت من صبيانيّة عثمان في هذا المجال، وبدأ ذهني بالصّفاء تقريباً. عزلت نفسي عن المشكلات الّتي يمكن أن تحدث في البيت، وبتّ متفرّغاً لدراسة اللّغة. يبدو أن توصيلي النّتّ أوغر صدر عثمان، فقرّر ومحمّد ترك البيت.

وقعت في حيص بيص، من أين لي بمستأجرين اثنين؟! ومن أين لي - حال عدم العثور عليهما - دفع أجرة البيت كاملة؟! كيف لي دفع تلك المصائب والمشكلات بينما لا أزال أحبو وأتلّمس طريقي في بلد لا أعرف فيها شيئاً؟! أسئلة ممضّة وكثيرة، ودوّامة تكاد تبلعني.

مأمون مختلف عن المرّة الماضية

الاستقبال هذه المرّة مختلف عن سابقه. وقف وابتسامة تغطّي وجهه. عرّفني إلى زوجته وأطفاله، جلست معهم أكثر من نصف ساعة. أصرّ أن أتناول الغداء على طاولته، شكرته وقلت له إنّي سبقتهم. لم نتطرّق إلى الماضي. تحدّثنا عن أوضاع سوريا وثورات الرّبيع العربيّ الّتي كانت تنتقل ككرة النّار من بلد إلى آخر. كنّا نتساءل هل سيأتي الدّور إلى سوريا؟ كنّا متوجّسين وغير واثقين من أنّ الشّعب السّوريّ سينتفض، وإن كنّا ندرك كم هو حجم النّار الّتي تشتعل في الصّدور، وأنّ ما جرى ويجري في تونس ومصر أشاعا أملاً وتفاؤلاً كبيرين. عدنا والشّمس كانت تلوّح بالغياب. استقلّينا السّكاي ترين. نزل مأمون الحمصيّ قبلي بعدّة محطّات. قبل أن نوّدع بعضنا قال لي: (إن شابّاً كرديّاً سوريّاً يبدو أنّه يعرفك من خلال بعض مقالاتك، ويريد التعرّف إليك، إن لم يكن لديك مانع سأعطيه رقم هاتفك لترتبا لقاءكما). فيما بعد كنت دائماً أمازح مأمون قائلاً له: (العمل الوحيد الجيّد في كلّ حياتك أنّك عرّفتني إلى هڤال).

الفصل الرابع
يوميّات الثّورة

أطفال درعا حديث العالم

فرّ زين العابدين وسقط حسني مبارك. كان يوم جمعة، وفارق النّوقيت يجلعني أتلّقى الأخبار وقد مضى على الأحداث ساعات. أجمل صباح في حياتي كان السّبت ١٩ آذار ٢٠١١. في غرفتي الصّغيرة، وقبل أن أنهض من فراشي، سحبت اللّاب توب، وفتحت الفيس بوك السوريّ الّذي كان يغصّ بالفرح. الأخبار كانت تتوالى تباعاً على صفحات الأصدقاء: درعا تنتفض!

طويت الفيس بوك، ومباشرة فتحت على قناة الجزيرة، دقائق، ثمّ إلى العربيّة، ثم بي بي سي، كلّها يتصدّرها الخبر السوريّ وأطفال درعا حديث العالم. يا الله ماذا أفعل؟! أبكي، أصرخ، أفرح؟ غرفتي الصّغيرة تضيق بي، كندا كلّها تضيق بفرحي. أخيراً السوريّون يتحركون، ينتفضون على ذلّهم. يهزّون عرش الطّاغية. يودّعون الخوف، ويعلنونها للعالم كلّه: نحن شعب نستحقّ الحياة.

خرجت من غرفتي إلى الصّالون. كان عثمان يجلس وحيداً يتابع التّلفزيون، نسيت كلّ خلافاتي معه وصرخت بفرح: (عثمان الثّورة بدأت في سوريّا). ابتسم وبدا فرحاً، أو هكذا تخيّلت، وقال لي: (ألم أقل لك إن السّوريّين سيتحرّكون). كان دائماً وفي أحاديثي القليلة معه يقول: (سيثور السّوريّون).

الشّعب السّوريّ ما بينذلّ

عدت إلى غرفتي، إلى الفيس بوك. كانت الأيّام الّتي سبقت ١٨ آذار، والفيس بوك السّوريّ - حسب التّعبير الّذي نحته الكاتب والباحث اللّبنانيّ زياد ماجد - يؤرّخ ليوميّات الثّورة بكلّ التّفاصيل الكبيرة والصّغيرة. الأيّام الثّلاثة تحديداً؛ تنذر أن شيئاً كبيراً سيحدث و(الاستفتاء الحقيقيّ على بشّار الأسد بدأ الآن، ولن ينفع التّزوير هنا).

كتبت على صفحتي "بوستاً" بتاريخ ١٨ آذار ٢٠١١. وأتبعته ببوست آخر يتوقّع وبسخرية تامّة وحسب عادة ودأب النّظام السّوريّ في توزيع اتّهماته (الشّعب السّوريّ متّهم الآن بإسقاط هيبة النّظام) بعد المظاهرات والاحتجاجات الّتي بدأت تشغل الشّوارع والأزقّة السّوريّة.

إرهاصات ١٨ آذار بدأت مبكّرة، سواء عبر بعض الاعتصامات والمظاهرات الطيّارة والسّريعة، أو الاعتصامات الّتي قامت بها المعارضة السّوريّة أمام السّفارة اللّيبيّة وأضاءت الشّموع على أرواح اللّيبيّين الّذي استشهدوا نتيجة قمع أجهزة الأمن اللّيبيّة، أو عبر ما بات يعرف في التّاريخ السّوريّ المعاصر بـ"حادثة الحريقة" الّتي جرت إثر إهانة شرطيّ لشابّ سوريّ في منطقة الحريقة في قلب دمشق، فتطوّر الأمر إثر ردّ الشّابّ المهان على الشرطيّ بالمثل، وتجمّع فيما بعد العشرات ثمّ المئات من المواطنين الّذين صاروا يردّدون الهتاف الشّهير (الشّعب السّوريّ ما بينذل) الّذي غدا واحداً من الشّعارات الكثيرة الّتي يرفعها المتظاهرون في المدن والبلدات السّوريّة، مما استدعى تدخّلاً فوريّاً من وزير داخلية النّظام السّوريّ، ووعد بمحاسبة الشّرطيّ، وقام بتهدئة المتظاهرين في تصرّف ربّما هو الأوّل من نوعه، بأن يقوم مسؤول كبير به منذ استلام البعث السّلطة في سوريا.

إلى جانب البؤر والتجمّعات الصّغيرة الّتي كانت تنذر بالبركان السّوريّ؛ كان هناك ما هو أهم (منذ انطلاق الثّورة التّونسيّة وحتّى اللّحظة الحاليّة؛

تراكمت لدى المواطن السّوريّ وعبر الصّورة القادمة من الفضائيّات، ثقافة تلفزيونيّة كنست وستكنس ثقافة البعث القائمة على التّدجين والتّلقين لتحلّ محلّها ثقافة مفرداتها الكرامة والحرّيّة والشّعب يريد). هذا البوست كتبته بتاريخ ٢٣ آذار ٢٠١١.

أدرك السّوريّ في زمن العولمة والفضائيّات الّتي جعلت العالم حقّاً قرية صغيرة؛ أن قيده يمكن كسره، والذّلّ الّذي يعيشه والقبضة الحديديّة الّتي يرزح تحتها أنّ (إي في أمل)، كما عبّرت إحدى المواطنات السّوريّات على صفحتها بتاريخ ١٩ آذار ٢٠١١

كان للسّقوط السّريع لحسني مبارك وزين العابدين بن عليّ تأثير كبير على عزم السّوريّين في الخلاص من الوريث بشّار الأسد، علماً أنّهم كانوا يدركون أنّ كلفة إسقاط طاغية كالرّئيس الّذي يتحكّم بمجرى الهواء الّذي يتنفسونه، والّذي ورث سوريا عن أبيه الرّاحل حافظ الأسد؛ ستكون عالية وعالية جدّاً، لذلك تأخّروا في ثورتهم، فهم أخبر وأدرى بوكر الأفاعي الّذي سيمدّون أياديهم داخله، ولا حصانة لأحد عند نظام كالنّظام السّوريّ، كذلك تعقيدات الموقع الجيوسياسيّ لسوريا يدركها رأس النّظام، والّتي استثمرها فيما بعد خير استثمار لمقايضة السّوريّين والعالم: إمّا هو أو لتذهب سوريا من بعده إلى الجحيم، وهو ما تجلّى فاضحاً عبر شعار مؤيّديه (الأسد أو نحرق البلد)، كذلك هو على دراية تامّة بالهندسة الاجتماعيّة الّتي برع فيها أبيه، والّتي عجنت وخبزت المجتمع السّوريّ؛ كما يحلو لأيّ ديكتاتور هندسة المجتمع الّذي يحكمه.

الكاتب ومعتقل الرّأي السّابق بكر صدقي كتب بوستاً على صفحته بتاريخ ١٦ آذار ٢٠١١، لخّص فيه شراسة وعنف النّظام وأيّ قمع سيواجهه الشّعب السّوريّ في ثورته القادمة: (رأيتهم يجرّون المفكّر طيّب تيزيني بقسوة بالغة، اثنان أمسكا به من تحت إبطيه وجرّاه بعيداً عن ساحة المرجة، وثالث يرفسه على ظهره طوال الوقت، وحين اقتربوا من عمود الكهرباء على الرّصيف خبطوا رأسه بالعمود).

ما كتبه بكر حرّضني على كتابة بوست في ذات اليوم: (عندما الطيّب تيزيني يُضرب ويهان، وعندما عارف دليلة يسجن ويذّلّ، وعندما ميشيل كيلو يمضي ٣ سنوات في المعتقل، وعندما ياسين الحاج صالح يمضي زهرة شبابه في مختلف السّجون السّوريّة، وعندما يعتقل الفكر ويزجّ بخيرة نساء ورجال سوريا في المعتقلات؛ أدرك الآن لماذا أحرق التتار مكتبة بغداد وسوّدوا مياه دجلة والفرات).

في ذات التّاريخ ١٦ آذار ٢٠١١ الصّحافي عامر مطر - الّذي تم اعتقاله ثلاث مرّات فيما بعد، واتّهم بتهم عدّة - كتب على صفحته الخبر التّالي: (معتقلو مظاهرة ١٦ آذار في دمشق هم: عمر الّلبواني، ياسين الّلبواني، رنا الّلبواني، عمّار الّلبواني، صبا حسن، عامر داود، هانيبال عوض/ ١٠ سنوات، سهير الأتاسي، مازن درويش، سيرين خوري، ناهد بدويّة، نارت عبد الكريم، محمود عوراني، بدر شلاش، كمال شيخو، أسامة نصّار، ميمونة العمّار، محمّد أديب مطر، بشر جودت سعيد، سعد جودت سعيد، غفار محمّد، دانة الجوابرة، وفاء الّلحام، طيّب تيزيني).

(أيّ متابع للشّأن السّوريّ، وبنظرة بسيطة على الأسماء سيجد من بينها أبناء وتلامذة العلاّمة الشّيخ جودت سعيد داعية النّضال الّلاعنفي في سوريا، يدرك لماذا أفرغت سوريا من كافّة معتدليها ونشطائها السّلميّين بكافة توجّهاتهم وإيديولوجيّاتهم، وأضحت الآن مرتعاً خصباً للإرهاب وداعش والنّصرة والقاعدة). هذا التعقيب مكتوب بتاريخ ٢٦,٧,٢٠١٥

في سياق ذات أحداث ذلك اليوم الرّهيب في حياة السّوريّين، والمظاهرة الّتي تجمهرت أمام مبنى وزارة الدّاخليّة بتاريخ ١٦,٣,٢٠١١ المطالِبة بالإفراج عن معتقلي الرّأي؛ تكتب الرّوائيّة السّوريّة سمر يزبك على صفحتها مفارقة مؤلمة: (هنيبال ابن المعتقلة رغدا الحسن؛ تركه والده عامر داود معي وقال: دقائق وأرجع لك. كان يمسك بيده ابنه الآخر، أنا وهانيبال ابن الأربع سنوات نقف

وسط ساحة المرجة، نلمح الأب والأخ الكبير ابن العشر سنوات يلقيان في حافلة مع معتقلين آخرين، يُضربون على أيدي قوّات الأمن. يقول هانيبال: بدّي روح معهن مشوار، ليش راحوا وتركوني؟ أشيح بوجهه كيلا ينظر إليهما وهما يُضربان).

يوميّات الثّورة جعلتني حبيس غرفتي وحبيس الفيس بوك والفضائيّات الّتي كانت تخصّص حيّزاً كبيراً للثّورة السّوريّة. أهملت كلّ شيء؛ حتّى دوامي في المدرسة بات متقطّعاً. صرت أمضي أغلبيّة ساعات اللّيل والنّهار أتلقّط الأخبار، وأقرأ ما يدور من تحليلات. كنت مبتهجاً وسعيداً، لكن بحذر، فهذا النّظام لن يستسلم بسهولة، ومبارك وعابدين تلميذين فاشلين في مدرسة حافظ الأسد القمعيّة والإرهابيّة، والشّعب السّوريّ جفّفت فيه وعلى مدى العقود السّابقة كلّ مظاهر السّياسة، وما تتطلّبه الثّورات من سياسة، السّياسة كفنّ وتدبير، وأيضاً كما كنت أدرك كما الكثير من السّوريّين أن انفجارنا سيحدث، لكن؛ كيف ومتى وما هي الكلفة؟ هذا كان في علم الغيب. وتتوالى اليوميّات وكتابات الثّائرين على النّظام والموالين له، يجمعها الفيس بوك بين دفّاته.

كرة النّار تتدحرج

يعتبر ١٨ آذار من عام ٢٠١١ إيذاناً حقيقيّاً لانطلاق الثّورة السّوريّة ضد نظام بشّار الأسد، وكانت شرارته درعا المحاذية للحدود الأردنيّة، عندما كتب أطفال في مرحلتهم الابتدائيّة شعارات تسبّ وتشتم النّظام، في محاكاة بريئة لما شاهدوه على التّلفزيونات العربيّة حول ما جرى في مصر وتونس.

اعتقلت القوى الأمنيّة هؤلاء الصّبية الصّغار وتمّ تعذيبهم بشكل وحشيّ، ولّما طالب وجهاء المدينة بالإفراج عنهم؛ ردّ عليهم مسؤول الأمن في المحافظة - وهو ابن خالة بشّار الأسد - بكلام وقح وغير مسؤول: (انسوهم تماماً،

وجيبوا غيرن، وإذا ما قدرتوا ابعتولنا نسواكن). هكذا ردّ صفيق في وجه وجهاء عشائر مدينة لا يزال الشّرف بمعناه التقليديّ خطّ أحمر لا يمكن تجاوزه، ولا حتى من أي كائن مهما علت رتبته. إثر ذلك بدأت كرة النّار تتدحرج وتلتهم في طريقها كلّ شيء.

في ذلك اليوم؛ وبعد صلاة الجّمعة خرج المئات من المحتجّين في مظاهرات، مردّدين شعارات تتّهم أسرة الرّئيس بشّار الأسد وأقرباءه بالفساد. تعاملت قوّات الأمن السّوريّة مع المتظاهرين بالعنف والرّصاص الحيّ، وقتلت متظاهرين. وقد عزّزت تلك القوّات من تواجدها في منطقة درعا بمزيد من القوّات، في محاولة لإجهاض الثّورة في مهدها.

في ١٩ آذار وما قيل عن حدوث مجزرة ارتكبتها قوّات الأمن السّوريّة؛ أعلنت السلطات السّوريّة عن تشكيل لجنة تحقيق في أحداث محافظة درعا. تابعتُ كما غيري من السّوريّين خبر تلك اللّجنة المناط بها التّحقيق، وتبيّن لكلّ متابع هزليّة تلك اللّجنة، وعدم جديّتها، فما كانت إلا لشراء الوقت، كذلك وهو الأهم والمستفز لمشاعر أغلبيّة السّوريّين؛ أن ضابط المخابرات سيئ الصّيت والسّمعة رستم غزالة هو المشرف على اللّجنة، وهو كان على رأس الوفد الّذي ذهب إلى درعا لمقابلة وجهائها، ولا يخفى على فطنٍ الرّسالة الّتي أراد بشّار الأسد ونظامه إرسالها إلى أهالي درعا، المدينة المكلومة بشبابها الّذين راحوا في تلك المجزرة.

في ذات التّاريخ ١٩ آذار؛ القناة الإخباريّة السّوريّة بثّت: (إن العقاب على ما جرى في درعا سيطبّق على الجاني والمقصّر والمسؤول مهما كانت رتبته أو منصبه أو صفته)، وأعربت تلك الفضائيّة الّتي تنطق باسم النّظام، وكما جاء على لسان مذيعتها حرفياً: (استغراب المواطنين السّوريّين من إجبارهم على التّظاهر من قبل المحرّضين من جهات خارجيّة). علّقتُ في بوست قصير: (طيب والـ١٤ طفلاً الّذين اعتقلوا في درعا؛ هل كانت وراءهم جهات

خارجيّة!!!). أيضاً بوست آخر: (الّذين يطالبون بالإصلاح في سوريا ليسوا عملاء أمريكا والصهيونيّة مثلما يطلق عليهم النّظام وأبواقه الإعلاميّة في محاولة متعمدّة لتشويههم، فشهداء مدينة درعا وأطفالهم الّذين اعتقلهم رجال النّظام لا يعرفون أين تقع الولايات المتّحدة، بل إنّ معظمهم لم يغادروا مدينتهم إلى العاصمة دمشق مطلقاً).

وعود بثينة وإصلاحات بشّار

تكاثرت التّعليقات السّاخرة على هزليّة إصلاحات بشّار الأسد على الفيس بوك السّوريّ، وحديث المؤامرة الّذي تحفل به أدبيّات النّظام السّوريّ قديماً وحديثاً، وفي تفسيره لأيّ احتجاج أو انتقاد ضدّه وضدّ سياساته.

المعارض السّوريّ كنان قوجة كتب بسخرية في ٢٤ آذار: (النّظام استفاد من درس درعا وباشر بالإصلاحات، فعزل مدير الأمن السّياسيّ من درعا وعيّنه مديراً للأمن السّياسيّ في محافظة إدلب). بوست آخر باسم مستعار يقول: (إن كان هناك من مؤامرة تحاك ضدّ سوريا، فهي أنت يا سيادة الرّئيس والمجلس الّذي يصفّق لك). أي مجلس الشّعب.

إذن يكشّر النّظام عن أهدافه الخبيثة، ومنذ البدايات تتّضح إستراتيجيّته في كيفيّة إجهاض الثّورة وحلم السّوريّين في وطن يتمتّع بالحرّيّة والعدالة والمساواة. والمعادلة بسيطة في تلك العقول الشّيطانيّة الّتي مارست عنفها وقهرها في تطويع وتدجين السّوريّين على مدى العقود السّابقة، حيث لا ترى في مطالبات الحرّيّة والكرامة إلاّ مؤامرة خارجيّة ومندسّين وعملاء، والوصفة المجرّبة والجّاهزة في تسفيه الثّورة هو ضرب الجزء بالكلّ والكلّ بالجزء، تفتيت الكلّ وتحويله أجزاء مبعثرة ومتناثرة، إضعاف الجميع وزرع الشّكّ وعدم الثّقة بين كلّ مكونات السّوريّين، خلق الحواجز والسّدود بين السّوريّ

والسّوريّ. الطّائفيّة إذن بهذا المعنى هي تلك "الهندسة" الّتي اشتغل عليها حافظ الأسد، وسيتابعها الوريث، متصاحبة مع عنف مهول، وقمع لا حدود له.

أطلّت علينا نائبة الرّئيس بثينة شعبان يوم ٢٤ آذار لتخبرنا وتهدّدنا بما ينتظرنا، وأنّ الطّائفيّة تهدّد لحمة النّسيج السّوريّ. وكانت أوّل وجه يطلّ على السّوريّين بداية الثّورة لتلقي "بيان الطّائفيّة"، وكذلك لتزّف للشّعب السّوريّ بأنّ رئيسها بشّار الأسد سيقدّم للشّعب سلّة من الإصلاحات الّتي ستبهجه وتسعده، حيث وعدتنا بمحاسبة المقصّرين والفاسدين، وبرفع الرّواتب، وبالتّأمين الصّحيّ، وبمحاربة البطالة، وبتقييم الأداء الحكوميّ، ووعدت أنّ رئيسها لن يسمح بسقوط قطرة دمّ واحدة لسوريّ!

بعد وعود المستشارة الرئاسيّة؛ انتظرنا كسوريّين الشّقّ المعلن من تلك الوعود، وإذ سيادته يوم ٣٠ آذار يأتي بخطاب مناقض تماماً لما قالته مستشارته ومستشارة ومترجمة أبيه من قبله. إذ جاء خطابه الأوّل بعد أحداث درعا تصعيدياً ومهدّداً ومتوعّداً باعتماد القبضة الأمنيّة. وبان الأسد في ذلك الخطاب مجرماً شرساً لديه حبّ الانتقام، وينتشي برؤية الدّم.

الطّائفيّة، العمالة للخارج، المؤامرة

إضافة إلى بثينة شعبان وتهديدها المبطّن للسّوريّين بالطّائفيّة في أوّل ردّ رسميّ يصدر عن النّظام بعد أحداث درعا، وخطابات بشّار الأسد والعجرفة الّتي كان يخاطب بها السّوريّين، سواء عبر خطابه الأوّل الّذي جاء أمام مجلس الشّعب، والثّاني أمام الحكومة الجديدة، والثّالث من على منبر جامعة دمشق، وكلّها كانت تؤكّد على المؤامرة الخارجيّة الّتي (تستهدف سوريا).

جنّد النّظام كلّ أعلامه وأبواقه داخل سوريا وفي لبنان ليتحدّثوا عن المؤامرة المزعومة، وعن (السّوريّين الرّخّص الّذين باعوا أنفسهم بالدّولار لدول

أجنبيّة). تلك عيّنة مما كان يردّده أولئك الكتّاب الّذين أُطلقت عليهم تسميّة "الطّابور الخامس"، ومناطة بهم أدوار أخطر وأبعد أثراً، تتعدّى عمل الجواسيس في الحروب، إذ يهدفون من خلال كتاباتهم إلى تأكيد ما يروّجه النّظام، فإذا قال النّظام هناك مندسّون، يردّدون وراءه ذلك محاولين إثبات صحة تلك الاتّهامات الكاذبة، وإن قال النّظام هناك سلفيّون، انبرى أولئك الكتّاب لتقديم ما ثيبت ذلك عبر تشويهات لا يستقيم معها عقل أو منطق.

أبي حسن أحد مثقفي النّظام كتب على صفحته في الفيس بوك بتاريخ ٢١ نيسان ٢٠١١: (تمّ صباح اليوم توزيع مناشير في مدينة بانياس السّاحل تعلن إقامة إمارة إسلاميّة... أخشى أن يكون أميرها الأستاذ المحترم رياض التّرك، الأب الرّوحي لحزب الشّعب السّلفيّ، من جانب آخر عندما قامت مظاهرة في طرطوس بتاريخ ٨ الجاري رفعت فيها شعارات طائفيّة، وقد كان من ضمن قادتها الدّكتور وائل بيطار... لا غرابة، فالطّبيب المذكور والّذي نحترمه هو عضو في حزبّ الشّعب السّلفيّ).

واضحة كانت الحملة المنظّمة الّتي أراد النّظام تسويقها وتشويه سمعة كلّ ثائر أو معارض. عموماً شعراء الممانعة ومثقفيها وكلّ مثقّفي البلاط "الطّابور الخامس" لم يلتقطوا ما جرى في سوريا، كانوا صدى للنّظام، وما أشبههم في "التّلفزيون العربيّ السّوريّ" حاولوا بدأب منذ البدايات قسر الواقع من أجل تهويماتهم الإيديولوجيّة، ضاربين بعرض الحائط معاناة الإنسان السّوريّ، مستكثرين عليه أن يصرخ من الألم. بالطّائفيّة فخّخوا كلّ الجسد السّوريّ، ويريدون تفجيره، لأنّ سوريا بات صعباً أن تظلّ "سوريا الأسد"، المزرعة الّتي يريدون توارثها جيلاً بعد جيل.

كانوا لا يهدأون في تنفيذ مخطّطهم الإجراميّ، وفي المقابل كانت هناك محاولات مستميتة لتفويت مخطّطهم الإجراميّ ممّن يريدون سوريا وطناً لكلّ السّوريّين.

كتبت سمر يزبك الكاتبة والأديبة السّوريّة وابنة مدينة اللاذقيّة على صفحتها: (اليوم في اللاذقيّة؛ إمام جامع الحسن العسكريّ أمّ المصلّين في جامع بساتين الرّيحان، وإمام جامع الرّيحان أمّ المصلّين في جامع الحسن العسكريّ، هذا يعني أن إماماً علويّاً أمّ السّنّة، وإماماً سنّياً أمّ العلويّين. وهذه سابقة لم تحدث في التّاريخ. يا شعبنا العظيم سوريا بخير).

في اتّجاه معاكس تماماً لما يريد ويخطّط له النّظام في ضرب المكوّنات السّوريّة بعضها ببعض؛ كتب المعارض السّوريّ حسام قطلبي فحوى حديث صغير دار بينه وبين الكاتب ياسين الحاج صالح عبر الهاتف، حسام في هولندا حيث يقيم، وياسين في مدينة دوما القريبة من العاصمة دمشق، والمكالمة تدور حول تشييع جثث الشّهداء الّذين سقطوا برصاص الأمن، وخروج الآلاف لتشييعهم، وتسامي الشّعارات الّتي كانوا يردّدونها في تمسكّ واعٍ لوحدة سوريا، وتفويت خبث ما يخطّط له النّظام، قال ياسين: (بكيت لشبعت، ما قدرت أمسك نفسي، الآلاف في الشّوارع عم يهتفوا لسوريا والحرّيّة ودرعا وحمص واللاذقيّة، وحدة وطنيّة إسلام ومسيحيّة... ولا شعار واحد خارج هذا الإطار... مشهد مذهل).

٣ نيسان ٢٠١١.

أجهزة الأمن لا تسلّم جثامين الشّهداء

في هذا اليوم أجريت اتصالاً عبر السكايب مع الصّديقة والناشطة هنادي زلحوط الّتي تقيم في دمشق، وكانت توقّع على كلّ ما تكتبه باسم مستعار، هو هيام جميل، قالت لي بالحرف، وثبتّه على صفحتي دون ذكر اسمها مخافة اعتقالها: (في اتّصال مع صديقة وناشطة من دمشق قالت إنها وفي زيارتها لذوي الشّهداء أكّدوا لها أنّ أجهزة الأمن تمتنع عن تسليمهم جثث شهدائهم حتّى يوقّعوا على تعهّد يؤكّدون فيه أن الشّهداء قتلوا من قبل عصابات إرهابيّة، قسم

منهم تحت الضّغط والتّهديد وافق، وقسم آخر كان يرفض، والأجواء تنذر بكلّ شيء).

هيام جميل أو هنادي زلحوط لم ينفعها اسمها المستعار، اعتقلت مرّتين بداية الثّورة، وتصلح قصّة هذه الناشطة المدافعة عن حقوق المرأة والإنسان لأن تفرد لها مساحات كبيرة تتحدّث عن معاناة امرأة وقعت بين نار سجنين، سجن النّظام وقمعه وإرهابه، وسجن أهلها، فلم يستطع جسدها الغضّ تحمّل صفعات السّجّان، ولا صفعات أخيها الضّابط في جيش النّظام. فرّت من السّجنين، واستقر بها المقام في فرنسا. هنادي قصّة معاناة كلّ فتاة أو شابّ من الطّائفة العلويّة، ويقع بين براثن سجون كثيرة!

الفصل الخامس

هڤال - المهديّ المنتظر في ستاربكس!

اتفقنا هاتفيّاً أن نلتقي في مقهى ستاربكس الّتي لا تبعد سوى أمتار قليلة عن بيتي. كنت أرتشف القهوة وأعبث بموبايلي، أجلس إلى طاولة في منتصف المقهى، منتظراً الرّجل الّذي لا أعرفه، ولم ألتق به من قبل.

"المهدي المنتظر" هو اللّقب الّذي أطلقته عليه، حيث كان لقائي به أشبه ما يكون بنعمة ألقت إليّ بها السّماء وأنا في أحلك الظّروف، حيث لا معارف ولا أصدقاء، بالإضافة إلى الورطة الّتي كنت فيها، أن عليّ استئجار بيت جديد.

أطلّ بقامته الفارعة ووجهه الّذي يحمل في طيّاته كلّ طيبة ونبل العالم، توجه إليّ مباشرةً رغم اكتظاظ المقهى بروّادها، وقفت أستقبله موقناً أنّه الشّخص الّذي أنتظره. دار الحديث بيننا وكأنّنا نعرف بعض منذ مئات السّنين.

لم ننتظر سوى دقائق. حديثي كان يدور حول معاناتي مع السّودانيّ والأوغنديّ. وككلّ المشكلات؛ يأتي الرّدّ عليها بجملة وحيدة: (بسيطة، ما في مشكلة). انطلقنا بسيّارته من ضاحية برنبي الّتي أعيش فيها، إلى ضاحية سيري الّتي ساعيش فيها.

لا أظنّ أنّ هڤال يعرف عنّي شيئاً ذا قيمة، وقراءته مقالي (خلف علي الخلف في الطّريق إلى عبد الرزّاق عيد) لا يجعله يكوّن عنّي أيّ معرفة حقيقيّة، إنّما هناك أشخاص يبدو أنّ هواياتهم هي مساعدة النّاس دون انتظار أيّ مقابل. حقيقةً وبعد تعمّق علاقتي معه ومع عائلته الكبيرة، والداه وإخوته وأخواته؛ أستطيع القول إنّ هڤال أعاد لي تعريف معنى أن يكون المرء نبيلاً!

هڤال الثّلاثينيّ هو الابن االرّابع لمهاجر كورديّ غادر القامشلي أو قامشلو - كما يطلق عليها الكورد - منذ نحو عشرين عاماً، واستقرّ وزوجه في ڤانكوڤر. بدأ توافد العائلة إلى كندا تباعاً؛ مصطفى الابن البكر جاءها وزوجه الرّوسيّة من روسيا، أما كاميران وخابات فكان وصولهما إلى مونتريال قبل هجرة الأب بسنوات عشر، أمّا محمّد نور غادر سوريا قبل الجميع وهو ابن السّابعة عشر، وطاب له العيش في السّويد ولا يزال هناك، ويأتي إلى كندا زائراً كلّما سنحت له الفرصة، وشيار آخر العنقود اصطحبه والداه معهما وهو ابن الثّانية عشر. الشقيقات هيفين ونيفين وصلتا إلى كندا أيضاً تباعاً. هذه العائلة الكورديّة المديدة، أزواج وزوجات وأحفاد، نموذج مثاليّ لمهاجرين استطاعوا أن يضعوا بصمتهم في مغتربهم، ولم يقبلوا أن يعيشوا على الهامش، بل اقتحموا متن الحياة الكنديّة، واستطاع أغلبيتهم الدّراسة، وتبوّأ أماكن وظيفيّة مهمّة في الدّوائر الرسميّة الكنديّة، حتّى أضحت هذه العائلة معلماً كرديّاً بارزاً، وصالون بيتها الكبير يكتظّ كلّ أسبوع بروّاده، ومن جنسيّات مختلفة، وهو مضافة حقيقيّة تنمّ عن ذوق وكرم كرديّ أصيل.

بعد أسبوع من لقاء هڤال؛ استأجرنا سيّارة شحن متوسّطة الحجم قادها هو، ساعدني في نقل أثاثي وأشيائي البسيطة وتوجّهنا إلى مدينة سيري حيث استأجرت استديو صغيرًا. شعرت أنّي ملك متوّج، وأنّ عصر عثمان السّوداني انتهى.

كنت أتساءل ونحن ننقل محتويات بيتي الصّغير إلى سيّارة الشّحن: ما الّذي يجعل شخصاً تعرّفت عليه منذ أسبوع فقط يقف معي، ويصعد إلى الطّابق الثّاني مرات عدّة، يحمل محتويات بيتي وبكلّ أريحيّة، وينقلها إلى حيث سيّارة الشّحن وكأنّه صديق قديم؟! بعد أن انتهينا يدعوني مع شابّ آخر إلى مطعم قريب، وقبلها يصرّ أن يدفع أجرة سيّارة الشّحن؟! في كلّ تلك الأثناء كان عثمان يراقبنا، ولم يساعدنا في نقل أيّ شيء!

وأنا أكتب عن هذا تتوارد صور وذكريات قديمة تمرّ أمام ناظريّ الآن وكأنّها شريط سينمائيّ بالأبيض والأسود، بعض الحوادث الّتي تعرّضت إليها وخاصّة في شهوري الأولى هنا في كندا. أقارن بينها كلّها وأخلص إلى نتيجة وحيدة: الإنسانيّة في أبهى صورها تتجلّى عندما ننظر إلى الانسان بعيداً عن العرق والمعتقد والدّين، عندها فقط نشعر بإنسانيّتنا، وبأنّنا أحرار.

في الرّقّة وفي سوريا عامّة؛ وعندما كنّا نعتقد أنّنا نمارس السّياسة، كنّا في الحقيقة أبعد ما نكون عنها، وأعتذر هنا لاستخدامي "نا" الجماعة، لأن الأغلبيّة منّا هكذا، تقدّم الكثير من هويّاتها الموروثة شرطاً ومعياراً للنّظر إلى الآخر، سواء كانت قوميّة أو دينيّة أو... أو...، الهويّات الّتي ولدنا ووجدنا أنفسنا داخلها دون إرادة منّا. كنّا نجلس عرباً وكرداً، والكلّ ينضوي تحت مسميّات حزبيّة مختلفة، وكلّها معارضة للنّظام السّوريّ، نمضي السّاعات الطّوال في جدل بيزنطيّ حول تعريفات باندة تجاوزها الشّرط الإنسانيّ ومفهوم الدّولة الحديثة. كان الكرديّ والعربيّ – ولا يزالان - يجلسان مع بعضهما وعيونهما خارج سوريا، يريدان إسقاط النّظام السّوريّ وشكّ كبير يعتري علاقاتهما، القوميّ العربيّ كان يفكّر كيف يتحدّ مع الموريتانيّ أو الصّوماليّ أو السّودانيّ ويتعاطف مع كلّ ملمّاتهم، إنّما هو غير معني كثيراً بإبداء التّعاطف مع شريكه في الوطن، ولا يعرف عنه كثيراً، وفي الضّفّة الأخرى كان القوميّ الكرديّ يحلم في كيفيّة توحيد أجزاء كردستان الأربعة.

سوريا هي وطن مؤقّت. هكذا كان مفهوم الوطن لدى القوميّين من الطّرفين، وكذلك لدى الإسلاميّ، فندق نقيم فيه أثناء الطّريق إمّا إلى الوحدة العربيّة، أو وحدة كردستان، أو الأمّة الإسلاميّة. تلك هي السّياسة الّتي مارسناها عبر تهويمات طوباويّة وأحلام رومانسيّة.

لا أزال أذكر بعد أحداث القامشلي كيف تصارع عرب وكرد يعملون في أحزاب معارضة سياسيّة، وكادوا يضربوا بعضهم، ومن أجل ماذا؟! كان

المطلوب إصدار بيان يدعو إلى تجاوز الفتنة الّتي يريد النّظام خلقها بين العرب والكرد في منطقة الجزيرة السّوريّة إثر الانتفاضة الكرديّة عام ٢٠٠٤ اختلف المجتمعون حول اسم سوريا: القوميّون العرب أصرّوا أن تكون ترويسة البيان (الجمهوريّة العربيّة السّوريّة)، فيما أصرّ الطّرف الكرديّ على (الجمهوريّة السّوريّة)، هرج ومرج حدثا، وفشل "السّياسيّون" الّذي جاءوا للتّحذير من "الفتنة" في التوصّل إلى تسوية، والسّياسة تسويات، وتمخّض الاجتماع عن فتنة إضافيّة وفشل ذريع.

في كندا، في شهوري الأولى، وفي كلّ تعاملاتي مع الدّوائر الرسميّة الكنديّة كانت الحكومة تخصّص مترجماً لي، رافقني هؤلاء متطوّعاً وبدون أجر في كثير منها.

إحدى المرّات حضر سودانيّ معي مترجماً من الإنكليزيّة إلى العربيّة، جلسنا والموظّفة المختصّة، كان يترجم لي ما تقول، وكنت أصغي إليه بكلّ حواسي ولا ألتقط من كلّ ترجمته إلا حوالي خمسين بالمائة. صعد الدّم إلى رأسي وشعرت بالتّوتر، خاطبته بشكل مباشر: (آسف لا أفهم عليك). نظرت إلينا الموظّفة باستغراب ولسان حالها يقول: (ماذا يقولان؟). توجّهت إليها مبدياً أسفي، فالسّيّد المترجم لغته بعيدة عن لغتي، ولا أستطيع فهم كامل الحديث. سألت: (أليست العربيّة لغتكما؟)، أجبتها: (نعم. إنّما هناك لهجات كثيرة ومتباعدة)، وتابعتُ: (لو تكلّمتِ معي ببطء سأفهم عليك، ولست بحاجة إلى مترجم). شكرتني، واعتذرت منه بعد أن وقّعت له على مهمّته وأتعابه، وانصرف.

طبعا لا أسوق هذا المثال لأطعن بأحلام البعض. الحلم مشروع، شرط ألاّ يكون على أجندة السّياسيّ وبرنامجه، واللّغة لم تعد شرطا كافياً لتُبنى عليها النّظريّات، هناك لغة ولغات أرحب تجمعني بالكرديّ أو السّودانيّ أو الكنديّ أوسع مدى وأفقاً.

كندا تستعيد منّي ثمن التّذكرة

عندما وصلت إلى كندا كنت أحمل جواز سفر لبنانيّا، كتب في داخله "صالح لمرة واحدة"، هذا يعني ذهاب من دون إياب. لم يكن لديّ جواز سفر سوريّ، فقط هويّة سوريّة. الجواز اللّبنانيّ الّذي أحتفظ به حتّى الآن للذّكرى فقط، لا يصلح لأيّ شيء آخر، يُعطي بالاتّفاق بين الحكومة اللّبنانيّة ومنظّمة شؤون اللّاجئين التّابعة للأمم المتّحدة.

بعد ستّة شهور من قدومي إلى كندا أردتّ استخراج وثيقة سفر كنديّة. لم يكن في برنامجي السّفر إلى أيّ مكان في العالم، أردتّها من باب الاحتياط. جهّزت كلّ الأوراق المطلوبة بمساعدة هقّال، وأرسلتها عبر البريد إلى الجهة المختصّة، وكانت في العاصمة أوتاوا، فوثيقة السّفر حقّ أصيل من حقوق الإنسان، وأغلبية دول العالم موقّعة على تلك الاتفاقيّة منذ عام ١٩٥٣

لم يكن في حسباني أنّ عائقاً ما سيعترض استخراج وثيقة السّفر تلك. عادت إليّ الأوراق الّتي أرسلتها بعد شهر تقريباً، واشترطت الحكومة الكنديّة عليّ دفع ثمن تذكرة الطّائرة قبل الحصول على الوثيقة. عن أيّ تذكرة يتحدّث هؤلاء؟!

الحكومة الكنديّة لا تبذّر أموالها يميناً وشمالاً، و(كلّو بحسابو). قال لي هقّال: (ثمن تذكرة الطّائرة الّتي أقلّتك من بيروت إلى ڤانكوڤر ثمنها ١٤٦٥دولاراً، وهو بمثابة قرض، وعليك دفعه بمعدل ٥٠ دولاراً شهريّاً، وإلاّ لن تحصل على وثيقة السّفر)، وتابع: (هم يعتقدون بما أنّك تريد الحصول على الوثيقة، فإنّك قادر على تحمل كلفة السّفر، وبناء على هذا يفترض أن تسدّد ما عليك من دَين).

كنت في تلك الأثناء بلا عمل، وما أتقاضاه من راتب شهريّ بالكاد يغطّي كلفة معيشتي، من إيجار بيت يصل إلى ٥٠٠ دولار، وفاتورة الموبايل الّتي تصل إلى ٥٠ دولاراً. ويتبقّى فقط حوالي ٢٥٠ دولاراً، ويجب أن أتدبّر بها

أموري على مدار الشّهر في مدينة غلاؤها فاحش. قلت لهقّال: (بلا وثيقة بلا بطّيخ، الطّائرة الّتي تقف بانتظاري سأدعها تذهب).

من أين لي أن أسدّد لهم ديونهم، والرّاتب الّذي يعطوني إيّاه يصرف على كلب خلال أسبوع. أذكر أنّي بغضب وبيأس كامل ومن دون حساب لأيّ تبعات؛ صرخت في وجه موظّفة في مكتب الضمان الاجتماعيّ في مدينة هاملتون الّتي انتقلت إليها للبحث عن عمل: (لا نريد منكم أيّ شيء، عاملونا فقط كما تعاملون كلابكم)، ثمّ تابعت: (هل تعتقدين أن هذه الدّولارات الّتي ترمونها علينا كافية لبني آدم؟!).

كنت آنذاك قد يئست من الحصول على عمل، فأينما توجّهت تغلق الأبواب في وجهي، أرسل "السّيرة الذّاتيّة" عبر النّتّ إلى عشرات بل ومئات المحال الّتي تعرض أنّها بحاجة إلى عمّال، يأتيني الرّدّ عبر الهاتف لتحديد موعد المقابلة، مطعم، ماركت، محطّة بنزين، بار... إلخ. ثم يأتيني الرّفض بتهذيب، مباشرة أو باستخدام تلك الجملة الدبلوماسيّة (سنتصل بك). هناك من كان يتذرّع بأنّ لغتي الإنكليزيّة ليست جيّدة، هكذا كنت أخمّن وإن لم يقولوها صراحة، وأنّ عمري لا يمكّنني من تحمّل أعباء العمل. في البداية كان يعتقد محدّثي عبر الهاتف أنّي شابّ عشرينيّ، وهو قادر أن يفلح على ظهري، ووقت المقابلة يبدو أنّ الأخاديد الّتي بدأت تحفر في وجهي تعطيه فكرة واضحة عن خريف العمر الّذي كنت ذاهباً إليه.

قلت لأحدهم مرّة غاضباً: (وهل غسيل الصحون في مطعمك يحتاج أن أتحدّث الإنكليزيّة بطلاقة؟!). كثيرة هي المرّات الّتي تأبّطتّ فيها مغلّفاً فيه ما لا يقل عن مائة نسخة من "السيرة الذاتيّة" متنقّلاً بين المحال بكافة صنوفها وأنواعها، أوزّعها عليهم بحثاً عن عمل، لكن لا نتائج تذكر.

استطاع هقّال أن يؤمّن لي عملاً في سلسلة مطاعم "إي آند دبليو" الشّبيهة بماكدونالدز. عملت في المطعم أربع ساعات في اليوم الأوّل. في اليوم الثّاني

وفي السّاعة الثّانية من العمل كنت أمسك خبزة السّندويشة الّتي كنت أهمّ بملئها بالبطاطا وقطع اللّحم. ضغطتّ عليها بقوّة فخرجت أصابعي من جوفها، لاحظ المدير - وكان من أصول تركيّة - ما فعلت. زمجر ولوّح بيديه غاضباً. كان يقترب بأصابعه من وجهي يريد اقتلاع عيني. نزعت مريول العمل الّذي كنت أرتديه. رميته على الأرض بعنف، وغادرت المحلّ لاعناً كندا والأتراك واليوم الّذي جئت فيه إلى كندا. لحق بي يريد تهدئتي أو أقلّها كما قال: (خذ حسابك وأجرة السّاعات الستّ). قلت له: (خلّيها إلك). عندما علم هقال بالأمر ذهب إليه في اليوم التّالي، وجاء لي بـ٦٠ دولاراً.

عمل آخر لم أستمرّ به أكثر من أسبوع عند نجّار عراقيّ. كان مجهداً ويتطلّب منّي نقل أحمال ثقيلة. شعر صاحب العمل أنّي لم أخلق لهكذا أعمال. لم يشأ جرح مشاعري، وكان في منتهى الإنسانيّة، وكثيراً ما أتى وساعدني في رفع تلك الأحمال. شعرت أنّي أحرجه وأحرج ذاتي، صارحته بذلك فأبدى تفهّماً وقال لي: (المحلّ محلّك، وأنت من يقرّر). غادرته شاكراً له إنسانيّته.

أيضاً عملت نصف ساعة فقط عند نجّار هنديّ. وافق مباشرة على تشغيلي، وفي اليوم التّالي ومنذ السابعة صباحاً كنت أقف أمام محلّه الضّخم. جاء، لم يردّ على (صباح الخير) التي قلتها له. قال لي: (اتبعني).

دخلت وراءه إلى مستودع ضخم كان ممتلئاً بعمّال كثر، وكلّهم في العشرينيّات من أعمارهم تقريباً. أشار إليّ أن ألتقط مكنسة كبيرة وأنظّف المحلّ. نظرت إلى المكان. مسحته بعينيّ. رأيت ابتسامات العمّال وهي تتوزع بين شفقة وسخرية. قلت في سرّي: (صاحبنا يريد ترويضي فوراً)، ألقى أوامره وغادر إلى مكتبه القريب. تلمّست المكنسة الضخمة. شعرت بدوار حقيقيّ، وانتابتني مشاعر ممزوجة بين القهر والذّلّ. كنت أراقب قهقهات صادرة عن بعض العمّال وهي ترمقني بنظرات لم أفهم مغزاها، ضغطتّ بيديّ على المكنسة، حرّكتها قليلاً، ثمّ رميت بها على الأرض، أدرت ظهري وغادرت.

عندما وصلت إلى بوّابة المصنع شعرت بلذّة الهواء الّذي لفح وجهي، وبانتعاش كبير، وكأنّي خارج من بئر عميق.

أصرّ هڤال أن يدفع قيمة التّذكرة على أن أسدّدها له متى وجدتّ عملاً. رفضتّ لكنّه ألحّ، وعندما يلحّ لا يوجد كائن في العالم قادر على زحزحته. قال لي قد تأتيك سفرة مفاجئة، وعندها ستندم. وافقت تحت ضغطه وإلحاحه. واحد من أمثلة كثيرة عن إنسانيّة ونبل هڤال الصّديق كما هو معنى الاسم في اللّغة الكرديّة. هڤال هو هڤال حقيقيّ!

الفصل السّادس

هاملتون ٢٠١٢,٧,٣١

انسداد كلّ الآفاق بإيجاد عمل معقول في ڤانكوڤر دفعني إلى السّفر وخوض تجربة جديدة في مكان آخر. أوصلني محمّد بيسفكي وزينار إلى مطار ڤانكوڤر. الطّائرة ستتّجه إلى هاملتون في العاشرة صباحاً.

محمّد هو صاحب البيت الّذي كنت مستأجراً فيه. هو من دهوك كوردستان العراق. عرّفني إليه هڤال في اليوم الأوّل الّذي التقيته. زينار من زاخو كردستان العراق ويقيم مع محمّد، تطوّرت علاقتي مع الاثنين وأصبحنا أصدقاء. اضطرّرت إلى تركهما بعد سنة وثمانية شهور في ڤانكوڤر، والمغادرة إلى هاملتون في رحلة البحث عن عمل.

حاول الثّلاثة محمّد وزينار وهڤال ثنيي عن تلك المغامرة. حاول هڤال إقناعي قبيل موعد السّفر بأسبوع بألاّ أسافر، وأنّه سيذل أقصى جهوده لتأمين عمل لي. كنت في سيّارته. انطلقنا يوم سبت. لم أشعر إلا ونحن عند الحدود الأمريكيّة حيث قوس السّلام الشّهير. كانت تلك هي رحلتي الأولى إلى المنطقة المشتركة بين كندا وأمريكا الّتي لم تكن تبعد سوى ٢٠ دقيقة في السّيّارة عن ضاحية سيري حيث أسكن.

لا أدري لماذا جاء بي إلى هنا وهو يُلح عليّ بالبقاء؟! ربّما أراد في ذلك اليوم حيث الطّقس كان جميلاً؛ التّأثير على قراري، ودفعي للإقلاع عن فكرة المغادرة. يبدو أنّي كنت العربيّ صاحب الرّأس الكرديّة العنيدة، فلم تفلح

محاولات هقّال. غادرت رغم علمي أنّي خسرت صديقاً أو أصدقاء لا يمكنني تعويضهم.

هاملتون والرّحلة إليها من ڤانكوڤر تستغرق حوالي أربع ساعات في الطّائرة. هي مدينة تقع ضمن مقاطعة أونتاريو. تبعد حوالي ٧٠ كم عن المدينة الأهمّ والأكبر والعاصمة الاقتصاديّة لكندا، تورنتو. تعتبر هاملتون من المدن الصّناعيّة في كندا، وهي ثالث أكبر مدن المقاطعة مساحة، وتاسع مدن كندا اكتظاظاً بالسّكّان. تقع على بحيرة أونتاريو، وهي من البحيرات الخمس الكبرى في العالم. لا تبعد كثيراً عن الشّلالات الشّهيرة نياغارا، الشّلالات الثّلاث الرّائعة الّتي يقع اثنان منها داخل الأراضي الكنديّة، والشّلال الثّالث داخل مقاطعة نيويورك الأمريكيّة.

حيدر عبد الجبّار

استقبلني في مطار هاملتون صديقي حيدر عبد الجبّار، وهو منذ قدومي إلى كندا كان يلحّ عليّ كثيراً للمجيء إلى هاملتون. حيدر معارض عراقيّ لنظام حكم صدّام حسين. فرّ من العراق بعيد اعتقال والده مدّرس الرّياضيّات من قبل المخابرات العراقيّة. كان حيدر آنذاك في أواخر العشرينيّات من عمره عندما نفد بجلده هرباً من بطش النّظام العراقيّ. جاب في هروبه كثيراً من المدن العربيّة. أمضى سنوات في عمّان العاصمة الأردنيّة، ثمّ سنة واحدة في تونس. كان كأبيه مدرّس رياضيّات، وقد ساعده هذا في تأمين عمل في ليبيا القذّافي، حيث أقام هناك سنوات قليلة. استقر به المقام أخيراً في مدينة الرّقّة، وأقام فيها عشر سنوات. سافر بعدها إلى كندا عام ٢٠٠٦ بعد حصوله على الهجرة من السّفارة الكنديّة في دمشق.

أثناء إقامته في الرّقّة عمل مدرّساً للرّياضيّات في كبرى الثانويّات الرّسميّة في المحافظة، وكان يشار إليه بالبنان كمدرّس ناجح، وقد استطاع أن يستقطب

كثيراً من طلبة البكالوريا في دورات خاصّة. آنذاك كنت موظّفاً في قسم المدرّسين في دائرة التّعليم الثّانوي في مديريّة تربية الرّقّة.

توطدت معرفتنا، وكنّا نثق ببعض، ونسبّ في خلواتنا حافظ الأسد وصدّام حسين، وإن كنت آخذ عليه إقامته في سوريا، وحصوله من حيث يدري أو لا يدري على امتيازات "المعارض العراقيّ"، الّتي كان يستثمرها حافظ الأسد جيّداً في معاداته لصدّام حسين، وفي الطّرف المقابل كان هناك معارضون سوريّون يتمتّعون بتلك الامتيازات في استثمار صدّاميّ مماثل.

كان حيدر المعارض الماركسيّ العراقيّ يدرّس في مدارس سوريا، وأنا المعارض الماركسيّ السّوريّ ممنوع من التّدريس!

في الشّهر الأوّل من عام ٢٠١٥ وصلني في ڤانكوڤر الّتي عدتّ إليها خبر وفاة حيدر الأربعينيّ في إحدى المشافي الكنديّة بعد إصابته بالسّرطان. كان شخصاً كريماً ذا نخوة، وبيته مفتوح للضيف، إنّما كان نزقاً، فسفره وتجواله في منافيه الكثيرة وبعده عن أهله وعدم رؤيتهم إلا قبيل وفاته بعام واحد جعلت منه قلقاً وعصبيّاً، وكثيراً ما كان ينحو منحى عدوانيّاً في تحليلاته وآرائه.

كنت أثق بسريرته ونقائه، واعتبرت أن المزايا الّتي حصل عليها في الرّقّة هي لعبة أنظمة ديكتاتوريّة لا دخل له بها، ولم يكن لديه الكثير من الخيارات ليختار مكان إقامته، وعندما رحبّت به كندا ذهب إليها. ما هو في حيدر وأغلبيّة العراقيّين؛ يبدو أن صدّام حسين بقسوته وجبروته وطغيانه السبب وارءه، إذ استطاع الحتّ كثيراً في الشّخصيّة العراقيّة، وأساء إليها كثيراً.

في الأيّام الثّلاثة الأولى بعيد وصولي هاملتون، أنهيت بمساعدة حيدر كلّ الإجراءات الضّروريّة، حيث اختلاف القوانين بين مقاطعة وأخرى طبيعيّ في نظام فيدراليّ. كان عليّ استخراج بطاقة صحة جديدة، وخوض امتحان جديد لتحديد مستوى اللّغة الإنكليزيّة ومتابعة دراستي، وبالطّبع هناك بعض الإجراءات الضّروريّة الأخرى.

أبدت الموظّفة في مركز فحص اللّغة استهجانها وعدم رضاها عندما قلت لها: (هذه الشهادة لم آتِ بها من سوريا، إنها صادرة عن بريتش كولومبيا). أصرّت أن أجري فحص تحديد المستوى.

عندما أنهيت العام الدراسيّ في ڤانكوڤر؛ كنت قد حصلت على شهادة رسميّة، تفيد بأنّي تجاوزت المستوى الخامس بنجاح. واعتقدت أنّي سأكمل المستوى السّادس في هاملتون بشكل آليّ. خاب ظنّي، واضطرّرت في اليوم التّالي إلى إجراء ذلك الفحص، وكم كانت دهشتي كبيرة عندما تمّ إعلامي بأن عليّ الالتحاق بالمستوى الرابع!

وقتها كان الشّهر السّابع، والمدارس لا تفتح أبوابها حتّى التّاسع، تعاملت مع الموضوع بأريحيّة، وبات لديّ الخبرة بأنّ هذه المدارس المخصّصة للمهاجرين لا يختلف فيها المستوى الرّابع عن السّابع، وامتحاناتها لا تحدّد شيئاً ذا قيمة، ولا تؤهّل إلى أيّ مرحلة أكاديميّة، فإن أردتّ متابعة دراستي، وجب علي الانتقال إلى مدارس أخرى، إنّما وفي قدومي إلى هاملتون غيّرت بعض أولويّاتي، فالدّراسة أصبحت ثانياً بعد العمل.

التّاجر البغداديّ والتّاجر الدّمشقيّ

شهر كامل وهو يفلح على ظهري ومن دون أجر! كان يثرثر كثيراً ولسانه لا يستقرّ في حلقه. ولا يتوانى في التّصريح بأن كانت له علاقات مع ضبّاط المخابرات العراقيّة، معتبراً ذلك فهلوة وشطارة؛ (أدعوهم، أرشيهم، أرمي عليهم الفتات من النّقود، يسهّلون لي أمر تجارتي، ويمرّرون لي بهاتف واحد صفقة تجاريّة رابحة).

يعتقد أنّه أذكى العراقيّين والكرد الّذين قدموا إلى كندا في السّنوات الخمس عشرة الأخيرة. (انظر) وهو يريد بنظراته اختراق عيني، يرفع سبّابته ويشير

بها بشكل دائري، هذا الماركت بنيته من هذا العقل. تكتمل دورة سبّابته مستقرة على الفصّ الأيمن من دماغه، حيث يعتقد أن عقله يتركّز.

يتفاخر بعقله المخابراتيّ الّذي اكتشف كثيراً من المراهقين اللّصوص الّذين جاءوا إلى هنا – السّوبر ماركت - وألقى القبض عليهم وهم يحاولون سرقة شيبس أو علبة كولا أو ربطة خبز. استعرض أمامي كاميرات المراقبة، وكنت كمن يتابع فيلماً مملاً، عاد بالصّور سنة إلى الوراء، وأراني كيف تمّ اكتشاف أكثر من لصّ، وهم يهمّون بالسّرقة. قال لي: (لم أرسلهم إلى الشّرطة)، يسأل: (ماذا أستفيد؟). حاولت تضييق حدقتي وجلبت إلى تقاطيع وجهي كلّ الاهتمام، ثمّ وبنبرة فيها من تصنّع الإعجاب الكثير سألته: (ها.. وماذا فعلت بهم؟).

أراد "شارلوك هولمز" أن يصعّد من العرض، استدار مثل ممثل فاشل على خشبة مسرح. نظر إليّ وهو يقهقه بخيلاء، ثمّ أطلق كلّ نذالته دفعة واحدة: (قلت لهم لتدفعوا ثمن ما سرقتموه خمسة أضعاف، وإلاّ نشرت صوركم هنا على باب المحلّ، ومن ثمّ أبلغ الشرطة). كانت كثير من المحال تتّبع هكذا إجراء، تضع صور بعض اللّصوص على واجهاتها وهم يهمّون بالسّرقة عندما تلتقطهم كاميرات المراقبة، ويبدو أنّه إجراء لا يتعارض مع القانون. تابعت تصنّع البلاهة وإعجاباً بعقله النّذل: (ها.. وماذا أجابوا؟)، كان يمطّ شفته السفلى عندما يستعرض حيله وذكاءه: (كان الواحد منهم يدفع مائة دولار وينصرف راجياً ألا أضع صورته).

السّوبر ماركت الّذي يمتلكه هذا التّاجر البغدادي، وهو من الكرد الفيليّين، يفتح أبوابه من السّابعة صباحاً وحتّى الثّانية بعد منتصف اللّيل. والسّوبر ماركت يقع في منطقة سكنيّة أغلبيّة سكّانها من البيض. يتناوب على إدارته على شكل ورديّات مع زوجه الّتي تغطّي بعض ساعات العمل. هي تحمل الدّكتوراه في الإحصاء من جامعة بغداد، وعاطلة عن العمل، ووقعت عاملة تحت براثن هذا الزّوج الّذي كان ينصح طفليه الصّغيرين اللّذين كانا يأتيان

أحياناً مع أمهما إلى المحلّ بألا يكثرا من تناول الشّيبس والشّوكولا. طبعاً؛ أجزم أنّ نصيحته ليست من أجل صحتهما، إنّما لبخله الشّديد، وكان لديه عاملان اثنان يغطّيان بعض فترات الدّوام، يتناوبان أسبوعيّاً مرّتين أو ثلاث، أحدهما عراقيّ من مدينة النّجف، وآخر كوريّ جنوبيّ، تجاوز السّبعين من العمر، وهو مهندس متقاعد، كان يعمل في ذات المحلّ قبيل شرائه من قبل التّاجر البغداديّ واستمرّ فيه لخبرته الطّويلة في أحوال المنطقة، ولدقّته في العمل، كان يداوم حوالي عشرين ساعة على مدار الأسبوع.

كانت لحيدر علاقة واهية مع هذا البغداديّ. أبلغه أنّي بحاجة إلى عمل. وافق البغداديّ شرط أن أخوض تدريباً، وحينما أغدو جاهزاً سيمنحني هذا "الشايلوك" شهادة تخرّج، أتقاضى بعدها أجراً للسّاعة الواحدة قدره عشرة دولارات. وافقت على مضض، إذ لا توجد لديّ الكثير من الخيارات، ظانّاً أنّ فترة التّدريب بين ثلاثة أيّام وأسبوع كما هو متعارف عليه.

نعم... شهادة تخرّج. إذ يعتقد ذاك الأبله أنّ السّوبر ماركت كلّيّة أو جامعة تخرّج عمالاً بخبرات عالية، وبالتالي يجب أن يخضعوا لفترة تدريب ليست إلا "فترة استغلال"

كان يتباهى أمامي كثيراً بأنّ عمالاً كثراً عملوا عنده وخرجوا بخبرات كثيرة. قلت له مرّة بسخرية، واعتقد أنّي كنت أتحدّث جادّاً: (يجب أن تغيّر في اللّافتة الموضوعة أمام المحلّ، فتضيف إليها شيئاً يدلّ على معهد أو مدرسة). استهوته الفكرة، انتفخت أوداجه، تدلّى كرشه، وابتسم ابتسامة خيلاء.

كان يحدّد لي ساعات العمل حيث الدّورة، أو عندما يكون عائداً من التسوّق وشراء مستلزمات المحلّ، فأقوم بدور العتّال أو الحمّال، أنقل تلك المواد إلى مستودع صغير، كلّ ذلك كان من دون أيّ أجر. هكذا محال لا تعطي أيّ أجر للعمّال خلال فترة التّدريب. بعد خمسة عشر يوماً التحق بالعمل شابّ آخر عراقيّ. كان "شايلوك" قد وعده به. عرفت منه أنّه موجود في كندا منذ عشرين

عاماً، ويبدو أنّه تعرّض لخسارات كثيرة، وهو مضطرّ للعمل هنا. مضى خمسة عشر يوماً آخر، وأنا وإيّاه نعمل من دون أيّ مقابل، ونتساءل بسخرية فيما بيننا متى سنتخرّج؟ كنت أقول في سرّي: (ربّما لغتي وتواصلي مع الزّبائن تحتاج إلى بديهة أكثر، إنّما زميلي لا يعاني من أيّ مشكلة، ولغته ممتازة؛ لكنّه يتعرّض إلى استغلال مماثل. سألت "شايلوك" بعد أن نفد صبري: (متى سأنتهي من فترة التّدريب؟)، قال لي وهو يبتسم بمكر: (تحتاج شهراً آخر). قلت له بنزق: (لا أحتاج سوى إلى عدم رؤية وجهك ثانيةً. السّلام عليكم). انصرفت.

سنمت استغلاله، كنت أدفع يوميّاً خمسة دولارات أجرة باص النّقل الدّاخليّ، وهذا مبلغ كبيرة لعاطل عن العمل مثلي، سألته أن يعطيني تذكرة باص شهريّة من الّتي في المحلّ، ويخصم ثمنها بعد أن أحصّل راتباً فرفض. ما جعلني أبقى وأتحمّل غلظته رغبتي بالاحتكاك المباشر مع النّاس، والتعرّف إليهم عن قرب.

التّاجر الدّمشقيّ كان يجلس ساعات طوال على كرسيّه، أمامه اللاب توب، هو من دمشق، نحيل، طويل، يقترب من السّبعينيّات، له لحية سوداء خفيفة ومشذّبة جيّداً، يعتمر قبّعة بيضاء من تلك الّتي يرتديها حجّاج بيت الله الحرام، يتغلّب على أبي الهول في صمته. خلال عشرة أيّام سمعته يتحدّث ما مجموعه عشرين جملة فقط، كلّها أوامر حاسمة لهذا العامل أو ذاك. مضى ٣٥ عاماً على وجوده في كندا، محلّه يعادل مساحة محلّ البغدادي مرّتين، وفي منطقة أرقى.

عن وعن طريق عنعنات متشابّكة وصلت وحيدر إليه، وعرضت له أنّي أريد عملاً. رحبّ بنا، وسألني فقط سؤالاً واحداً: (من أين من سوريا؟)، وافق مباشرة بعد إجابتي، وأعطاني حرّيّة اختيار فترات التّدريب، وفي أيّ وقت أشاء.

لا أحتاج إلى تدريب، إنّما هكذا هي "التقاليد" نظراً لاتّساع المحلّ، توجد منصّتان لمحاسبة الزّبائن. كنت أقف على واحدة وأخرى لشابّ فيلبينيّ يعمل في المحلّ منذ سنوات. الدّمشقيّ غير بعيد عنّا، مشغول بأوراقه وحساباته ولاب

توبّه. لم أتجرّأ على إخراجه من صمته. يبدو أن سياسته في إدارة أعماله هي في إبقاء حدود واضحة بينه وبين عمّاله. ولمّا كان يتابع عبر اللّاب توب قنوات الجزيرة والعربيّة كثيراً وبصوت خفيض؛ كنت أراقب وجهه خلسة عندما يأتي الخبر السّوريّ، مشدوداً وباهتمام كبير يتابع أخبار المجازر المتنقّلة الّتي يرتكبها النّظام السّوريّ، انتهزت في إحدى المرّات فرصة عدم وجود زبائن، واستدرت مقترباً منّه متابعاً الأخبار أسبّ بشّار الأسد وعهر السّياسات الدّوليّة، نظر إليّ من تحت إلى فوق، هزّ رأسه ولم ينطق بكلمة واحدة، وفشلت في فكّ لغز صمته.

انفجر مرةً في وجه الفليبّينيّ عندما رآني أجلي بعد أن فرغ بعض الزّبائن من الأكل. كان الفليبّينيّ قد أمرني بغسلها، وكنت أقوم بهذا الأشياء بكلّ أريحيّة رغم أنّها لا تدخل ضمن فترة التّدريب، قال له: (هذا شغلك إنت، وهذا – مشيراً إليّ دون أن يسمّيني - ليس شغله، فهو لا يتقاضى أجراً)، "بهدله بهدلة من كعب الدّست"

كنت أضحك في عبّي لمنظر هذا الإسلاميّ، وأخمن أنّه من "الإخوان المسلمين"، وكيف كان يبربر على الفليبّينيّ ويرميه بمسبّات ثقيلة بإنكليزيّة طليقة. بعدها وفي الأيّام التّالية توتّرت علاقتي مع الفليبّينيّ. وجد الدّمشقيّ نقصاً في صندوق الغلّة قدره خمساً وعشرين دولاراً، رمقني بنظرة ولم ينطق بشيء، شعرت وقتها بحرج كبير وأردت الأرض أن تبتلعني. كنت كلّما أسأل الفليبّينيّ وأستفهم منه عن بعض الأشياء الّتي لا أعرفها؛ يمتنع عن الإجابة، أو يعطيني إجابات خاطئة وبخبث، ما أوقعني في بعض المواقف المحرجة مع الزّبائن. خفت صراحة أن يكون النقص فيما بعد أكثر من ذلك، وبدأت أتوجّس من الفليبّينيّ الّذي كان عموداً رئيساً في المحلّ، ويعتمد عليه كثيراً. قرّرت الانصراف والّلاعودة.

صحيح أنّي لم أتقاضَ أيّ أجر سواء عند البغداديّ أو الدّمشقيّ، وصحيح أيضاً أنّه تم استغلالي من قبل الاثنين، وكلّ بطريقته؛ إنّما كانت تجربة تعلّمت

منها الكثير، وفيها دروس مفيدة، إذ كنت أتوق لمعرفة طباع وعادات الكنديّين، ولا يوجد أفضل من ماركت كبير لأقترب منهم أكثر.

ربّما أصعب شيء في ذلك التّدريب هو كيفيّة تعلّم بيع السّجائر، حيث عشرات الأنواع والماركات الكنديّة والعالميّة، والأشكال والقياسات والألوان المختلفة، وليس بالإمكان توقّع مدى الجهد الّذي يتم بذله للتمييز بين تلك الأنواع. كان عليّ حفظ أماكن وجودها على الرّفوف المغطّاة، فمن غير المسموح في كندا عرض السّجائر بشكل واضح ومباشر كما في بلداننا العربيّة أو حتّى في أوروبا. هنا يمارس تضييق كبير على التّدخين والمدخّنين، عكس ما يتمّ بالنّسبة لبعض أنواع المخدرات من النّوع الخفيف - وهنا مفارقة مضحكة – حيث يسمح ببيعها بناء على وصفات طبيّة.

كان البغداديّ عكس الدّمشقي، يعرض السجائر في محلّه بشكل واضح هي وكلّ مستلزماتها، وفي مرّات كثيرة - عندما أدوام معه من السّاعة الثّانية عشرة وحتّى الثّانية صباحاً يختلف نوع الزّبائن، حيث معظمهم من الشّباب والشّابّات، ومن المراهقين والمراهقات الّذين أدمنوا المخدّرات. بتّ أعرفهم من أشكالهم، معظمهم من البيض، عيونهم غائرة، أجفانهم محمرّة - عظامهم بارزة، والضّعف باد على وجوههم وأجسادهم. النساء منهم يستخدمن مساحيق تجميل رخيصة، ويتمكيجن بابتذال. رأيت البغداديّ حين كنت أقف إلى جواره كيف يمازحهم بسخرية، ويستغلّهم بالأسعار، ولم يصدف أبداً – أثناء وجودي - أن أحدهم قد أبرز وصفة طبيّة. كان يقول لي بخبث: (الرّبح يأتي من هؤلاء، يدفعون من دون نقاش السّعر الّذي أطلبه، ولا يميّزون بين الدّولار سواء كان كندياً أو أمريكياً)، ويتبع كلامه بقهقهة كريهة.

المعضلة الثّانية في تلك الفترة المسمّاة "تدريب"؛ كانت كيفيّة تعلّم بيع "اللّوتو" أيّ اليانصيب، فأنواعه كثيرة، و"الجهاز" معقّد كما حساباته. حدث وأن أخطأت مرّتين في بيع زبونين ورقتي بوكر، قيمة الواحدة دولاران، ما

اضطرّني إلى دفع ثمنهما من جيبي، و"شايلوك" كان يراقبني. يكثر الكنديّون من شراء اليانصيب، ويصرفون الكثير من أموالهم في ألعاب الحظّ تلك.

ما كنت أكرهه أيضاً في العمل ضمن "السّوبر ماركات" هو قسم السندويش السّريع، فإعداد سندويشة زبون مفجوع وجائع كانت تستهلك منّي وقتاً يتجاوز الدّقائق الخمس، فيتشكّل صفّ من الزبائن الّذين ينتظرون دورهم كي يدفعوا ثمن ما تسوّقوه. الأمر المزعج الآخر هو إملاء البرّادات الكبيرة "الكولر" بأنواع المشروبات الباردة، والدّخول إليها والخروج منها أثناء عمليّة ملئها، فبرودتها الزّائدة تخترق العظام وتسبّب أمراضاً مزعجة.

في محطّة البنزين

الشّهر التّاسع من عام ٢٠١٢، وأثناء مِراني لدى الدّمشقيّ؛ كنت وحيدر نبحث عن عمل. جاءني مرّة يسألني: (هل تعمل في محطّة بنزين؟)، قلت له: (أعمل لدى الشّياطين، لا مشكلة لدي). قال لي: (بي ولد صديقنا غاد، حكيت معه وهو حكى مع صاحب المحطّة، وقال خلّيه يجي). طبعاً يُكثر العراقيّون من كلمة (ولد)، ولا يعنون بها الإساءة مثلما تستخدم أحياناً في سوريا، ويراد منها التّصغير.

كان مدير المحطّة فلسطينيّ في مقتبل الخمسينيّات، هاجر إلى كندا قادماً من الإمارات منذ أكثر من عشرين عاماً. لم أرَ في طيبة وتواضع هذا الرّجل ومدى إنسانيته. قال لي: (تأتي كلّ يوم ساعتين بمثابة تدريب لمدّة ثلاثة أيّام فقط، بعدها ستباشر العمل، وسأعطيك ثماني ساعات أسبوعيّاً، وأعدك أنّي سأزيدها لك تدريجيّاً، حاليّاً لديّ عمّال بما يكفي، لكن ابني سيلتحق بجامعته، وسيترك قريباً، وسأعطيك كلّ ساعاته).

حاولت في ساعات التّدريب الّتي اخترت أوقاتها كما أريد؛ معرفة كلّ العمّال، والتّعرّف إليهم من خلال الدّوام في كلّ الورديّات. كان هناك شابّان فلسطينيّان يداومان في فترتين مختلفتين، أحدهما قمّة في اللباقة والاحترام جاء إلى كندا من أراضي الضّفّة مباشرة منذ أكثر من عشرة أعوام، والآخر - يزن حوالي تسعين كيلو غراماً رأسه كبيرة وكرشه متدلّية،جاء إلى كندا من العراق بعد سقوط صدّام حسين، وتعرّضه - كما قال - إلى مضايقات (الشّيعة العراقيّين الخونة). كان شخصاً قمّة في الفوضويّة والشّوارعيّة، مزحه ثقيل مع الكلّ وبدون أيّ حرج أو تكلّف، حتّى سائقي السّيّارات زبائن المحطّة لا يوفرهم بتعليقاته وبالعربيّة، فيفغر بعضهم أفواههم، وبالتّأكيد يتساءلون ماذا يقول هذا السّمين. أيضاً يوجد شابّ كنديّ صموت، يأتي ويذهب دون أن يلقي حتّى السّلام. ويعمل في المحطّة ابن صاحبها أيضاً، وهو شابّ لم يصل العشرين بعد، والشّابّ العراقيّ صديق حيدر، وهو من سنّة العراق كما عرفت فيما بعد، ونتيجة التّنابذ السّنّيّ الشّيعيّ العراقيّ المستعر في هاملتون. هولاء هم عمّال المحطّة الّتي تقدّم "خدمة كاملة"، وهذا النّوع من المحطّات يكاد ينقرض في كلّ كندا، والّتي تناسب أولئك الّذين لا يودّون ترك مقاود سيّاراتهم، فالعامل يقوم بملء خزّان الوقود، وأحياناً يمسح الزجاج، بعض الزبائن يحاسب "كاش"، وآخرون يناولون العامل "الفيزا كارد"، فيذهب العامل إلى الدّاخل ومن ثمّ يعود إليهم بالفواتير. قلّة منهم يترجّلون من سيّاراتهم ويذهبون إلى الكابين الدّاخليّ لدفع ثمن ما ملنوه من وقود.

نظراً لمعاناتي مع البغداديّ والدّمشقيّ؛ كان العمل في المحطّة رائعاً بكلّ المقاييس. مدير المحطّة الفلسطينيّ كريم وخلوق في تعامله معي ومع الآخرين، لا يشعرنا أنّه مدير ونحن عمّال، وكثيراً؛ وأثناء وجوده معنا يهرع مسرعاً إلى سيّارة قادمة ليملأ خزّانها ويتركنا جالسين.

داومت في المحطّة ثلاثة شهور، وزادت ساعات العمل إلى حوالي ٢٥ ساعة أسبوعياً، وترافق ذلك مع دوامي في المدرسة. كنت أقضي وقتي من التّاسعة صباحاً وحتّى الثّالثة والنّصف ظهراً في المدرسة. خلا عطلة نهاية

الأسبوع. بدأت العمل مع بداية الخريف، وتركته في ٣٠,١٢,٢٠١٢ حيث سافرت إلى تركيا، ثمّ الى الرّقّة.

عشت في هاملتون عندما بدأت الرّيح تعرّي الشّجر من أوراقه، وحتّى اشتداد زمجرة الشّتاء وهوائه العنيف وثلوجه الّتي بدأت تحتلّ كلّ مكان وتحيله أبيضاً بالتمام. كنت أضع كتبي في منزلي الّذي يقع في داون تاون هاملتون. أتناول غدائي. ثمّ أستقلّ الباص الّذي ينزلني أمام المحطّة، قاطعاً بي الشّارع الرّئيس الّذي يمرّ من أمام جامعة ماكماستر الشّهيرة، كانت عيناي تراقبان طلبة الجامعة، وبي حسرة، وتوق كبير لأن أكون واحداً منهم رغم أنّي في خريف عمري، إذ لم أعش الحياة الجامعيّة في جامعة حلب كما يليق بطالب كان قد أقبل لتوّه على الحياة، وحتّى عندما أمضيت فصلاً دراسيّاً واحداً ووحيداً آنذاك. اضطرّرت في الفصل الثّاني من السّنة الدّراسيّة الأولى إلى قطع دراستي والعودة الى الرّقّة لأنّ والدتي لم تكن تملك المال الكافي لترسله إليّ.

كان عملي في المحطّة رغم صعوبته أحياناً - وخاصّة عندما يشتدّ البرد - ممتعاً، وكنت أشعر أنّي سيّد نفسي، لا أحد يأمرني ولا أحد يزعجني. تأتي السّيّارة، أتوجّه إليها، أملأ خزّانها بالوقود، مرّات أدردش مع سائقها وعيناي تراقبان العدّاد، ومرّات أخرى أراقبه بصمت. عندما تكون نوبتي خلال ساعات الظّهيرة حيث الذروة؛ أنتقل وزميلي بسرعة بين ثمان مضخّات، نملأ هنا، ونحاسب هناك، نطلب من الثّالث الانتظار قليلاً، وهكذا.

مرّتان شردت ولم أنتبه إلا والبنزين يطوف ويندلق خارج خّزان الوقود والعدّاد شغّال، وفي المرّتين كانت هفوتي مع سيدتين في خريف عمريهما، كنت أعتذر بكلّ قواميس الاعتذار، وهن بكلّ لطف يؤكدن لي أن (لا مشكلة)، واحدة منهن دفعت كامل الفاتورة برضى رغم أنّ ما اندلق على الأرض كان حوالي ستّة عشر لتراً، ولا ذنب لها في ذلك، أما الأخرى فدفعت ثمن ٤٠ ليتراً، وهو ما طلبته.

في اليوم التّالي أخبرت صاحب المحطّة بما جرى، قالي لي: (ولا يهمك كلّنا تعرّضنا إلى هكذا مواقف، بسيطة). كان المدير يقول لي: (عندما لا أكون موجوداً وتنتهي نوبتك حاسب نفسك واذهب. يعني أول بأوّل. كاش)، آخذ عن كلّ نوبة ٤٠ دولاراً أجرة أربع ساعات، أقبضها وأدسّها في جيبي، أعود إلى البيت وكلّي رضى وارتياح، ولا يوجد أدنى شعور بالتّعب. كنت أشعر أنّ هذه النّقود لها قيمة أكثر من أيّ نقود أخرى تأتي بدون تعب، شعور مختلف، وخاصّة لواحد مثلي لم يعتد طوال عمره العمل في هكذا مهن.

عندما أسْهَلَ الكنديّ

نوبتي تمتدّ من الخامسة عصراً وحتّى التّاسعة مساءً، رفقة زميلي الكنديّ الّذي لا يتكلّم ولا يضحك. الدوام معه مملّ.

البرد يلسع. ووزني زاد عشرة كيلو غرامات بسبب كثرة اللّباس. هاملتون لا تعرف المطر. يتشهّى المطر فيها معانقة الأرض وملامستها والتمرّغ فوق إسفلت شوارعها، لكنّ البرد الشّديد يلتقطه وهو في رحلة شوقه لمعانقة الأرض. يقبض عليه ويحيله إلى كرات مدبّبة، وأحياناً إلى ثلج ناصع البياض. هذا البرد اللّعين ربّما يريد مطارحة زميلي الكنديّ، كان يقبض عليه بكلتا يديه، ويأتي به ويأخذه إلى المرحاض في ذهاب وإيّاب لا ينتهيان. نوبتي انتهت في التّاسعة. الكنديّ نوبته لا تنتهي إلا في السّاعة الثّانية عشرة عند منتصف اللّيل حيث وقت إغلاق المحطّة. عشر دقائق فوق التّاسعة ولا يزال في المرحاض، خرج وكفّيه على بطنه وكأنّه امرأة في لحظة الطّلق. وجهه الأبيض المائل إلى الشّقرة غدا أحمراً. سألته: (أنت بخير؟). هزّ رأسه ولم يجب. (هل تريد أن أبقى معك؟)، (نو.. نو) هذا الكنديّ اللّعين يعتقد إن بقيت معه سأشاركه نقوده. غيّرت ثيابي وغادرت. كانت السّاعة التّاسعة والنّصف. لاحقاً استمر الكنديّ يأتي في موعده تماماً، ويغادر عند انتهاء نوبته تماماً، لا يؤخّر ولا يقدّم ثانيةً، ولو انطبقت السّماء على الأرض.

الفتاة السّوريّة

تهادت بسيّارتها، ذهبت لأملأ خزّان الوقود. ذهلت لأنوثتها وبراءة وجهها. بادرتها بالعربيّة متقصداً وإحساسي يقول إنّي أعرف جوابها: (من وين حضرتك؟). بالعربيّة أجابتني: (من سوريا)، زغرد قلبي مرّتين، لسوريّتها مرّة، ولجمالها الطافح براءة مرّة. تمنّيت أن يتسّع خزّان الوقود لكلّ بنزين المحطّة كي أبقى إلى جانبها أطول دهر ممكن، أنتظر خزّان الوقود كي يفرغ لتعود ثانية، أخشى أن تأتي في غير نوبتي، أخشى أن تضيع.

صعدت إلى الطّابق الثّاني في المكتبة المركزيّة، ومكتبها قريب من درجات السّلّم. كنت أبحث عن المسؤول أو المسؤولة عن حلقات المحادثة الّتي تجريها المكتبة لمن يودّ. تلك الحلقات تقام يومين في الأسبوع، مدّة الواحدة منها ساعة ونصف، يلتقي فيها وافدون ووافدات من جنسيّات مختلفة وتفتح موضوعات للنّقاش، الغاية منها التدرّب على المحادثة في اللّغة الإنكليزيّة.

كنت خلال إقامتي في ڤانكوڤر أو هاملتون أبحث عن هكذا نشاطات، وأسجّل فيها لأحصل على أكثر من فائدة. اللّغة الإنكليزيّة هي الهدف الرّئيس بالطّبع، وكذلك التعرّف إلى أناس من ثقافات مختلفة، وتبادل الآراء والأفكار معهم. كان الوقت - وخاصّة في الشّتاء - قاتلاً، ودائماً لديّ منه الكثير، وعليّ ملؤه بما يفيد. المكتبات في عموم كندا ليست فقط للقراءة والكتابة، إذ تقام فيها الكثير من النّشاطات، وتغص أيّام العطل تحديداً بكثير من النّشاطات الترفيهيّة للعائلة بكاملها. بعض المكتبات في هاملتون مزودة حتّى بالمسابح.

كانت هي من تسجّل الأسماء. عندما لاحظت اسمي العربيّ قالت بالعربيّة: (من أين أنت؟)، أجبتها (وأنت؟ من أين من سوريا؟)، قالت من دمشق!. اسمها أو كنيتها لم يدلاّني ابنة من هي، كذلك حتّى وبعد أن عرفت أنّي من الرّقّة لم تبدِ أيّ اهتمام، وتعاملت معي بشكل رسمي ومتحفظ.

بعدها بأيّام كنت أتحدّث إلى حيدر عن فتاة المكتبة السّوريّة، هزّ رأسه وبلهجته وتعبيراته اللامبالية قال: (أوهووووو ما تعرفها؟)، ثمّ تابع: (هاي بنت

وزير يا عمي، أبوها كان بزماناتو محافظ عليكم بالرّقّة). عيناي كلّها أصبحت إشارات تعجّب واستفهام: (من هو؟)، قال حيدر: (نجيب السّيّد أحمد)!

نجيب السّيّد أحمد وزير تربية سابق، كان يسمى في سوريا "وزير الاستثناءات"، حيث القانون لديه عبارة عن قصاصات ورق يكتبها بخطّه الرديء، ويوقّع عليها بقلمه الأخضر (مسموح) لكلّ شيء غير مسموح ومخالف للقانون، وللوزير المذكور قصص كثيرة وإن ضخّمها الخيال الشّعبي، إنّما في المبالغة يكمن الكثير من الصّدق.

من القصص الّتي تروى عنه أنّه في عز أحداث الثّمانينيّات بين النّظام السّوريّ وجماعة الإخوان المسلمين والمجازر الرهيبة الّتي تم ارتكابها من قبل النّظام آنذاك، يقال إنّه - وكان وقتها مسؤولاً بعثيّاً له شأن في مسقط رأسه سلقين التّابعة لمحافظة إدلب - دخل إلى حافظ الأسد ويده ملطّخة بالدّماء، حيث قتل قريباً له جدّاً، البعض يقول ابن عمه وهو عضو في جماعة الإخوان المسلمين، وقد أراد من فعلته تلك إثبات ولائه لرئيسه ولحزبه. كافأه حافظ الأسد بعد ذلك بأن نصّبه محافظاً على مدينة الرّقّة. وأن يكون محافظاً للرّقّة فهذا يعني أن يصبح مليونيراً في غضون سنوات قليلة، وهو منصب أفضل من منصب الوزير، وهذا يدركه الرّقّاويّون والسّوريّون عموماً.

عدت إلى حيدر أسأله: (وهل هو هنا في هاملتون؟)، قال لي: (معلوماتي تقول إنه هنا). هززت رأسي وأنا أبيّت شيئاً.

الحكومة الكنديّة وأثناء إقامتي في ڤانكوڤر كانت قد التقت - وعبر ممثّل لها - بي وبغيري من السّوريّين تطلب منهم مساعدتها، وإبلاغها عن الشّخصيّات الّتي تلطخت أياديها بالدّم أو الفساد، وربّما لجأت إلى كندا. طبعاً لم آخذ ذلك الكلام على كثير من محمل الجدّ، وواجهت ممثل الحكومة عندما قلت له: (إنكم لو أردتّم مساعدة السّوريّين فلديكم من الوسائل والإمكانات الكثير، إنّما هذا لا يمنع من إعداد قائمة لكلّ رموز النّظام السّوريّ القتلة والفاسدين والمجرمين،

وإعطائكم نسخة منها)، وهذا ما حصل عبر قائمة ضمّت أكثر من ١٥٠ مجرماً وفاسداً من ضمنهم الوزير المذكور. بعد التّدقيق والتّفتيش عن ذلك الفاسد قيل إنه غادر كندا إلى الإمارات، ولم أعرف عنه أي شيء بعدها. بعد إعداد وإرسال القائمة تابعت حلقات المحادثة، وصودف أنّ الموضوع المطروح للنّقاش الّذي تديره مدرّسة متطوّعة ومتقاعدة حول العمل في كندا وظروفه وكيفيّة تأمينه.

المدرّسة المتقاعدة كنديّة ومتزوّجة من مصريّ، حدثتنا كثيراً عن زوجها وأولادها ورحلاتها إلى القاهرة، وكانت متعاطفة جدّاً مع القضايا العربيّة، ومؤيّدة الرّبيع العربيّ. نشأت بيني وبينها علاقة خاصّة بعد أن عرفت أنّي سوريّ، وكانت تبدي تعاطفاً كبيراً مع الثّورة السّوريّة ومعي شخصيّاً، ولمّا شرحت لها وضعي، وأنّي عامل في محطة بنزين وأبحث عن عمل يتناسب مع سني ومؤهلاتي أشارت عليّ: (لماذا لا تساعدك باسمة السّيّد أحمد؟)، قلت لها: (كيف تساعدني؟)، قالت لي: (هي إضافة إلى عملها هنا؛ تدرّس اللّغة العربيّة، ويمكن أن تجد لك شاغراً معها، كما يمكن أن تساعدك كثيراً في موضوع النّشر). وكنت سابقاً قد طلبت نصيحة المدرّسة في نشر كتاب لي.

التقيت بعدها باسمة الّتي تابعت تعاملها معي بشكل رسميّ ومتحفّظ، ومن دون أيّ تعاطف أعطتني عناوين بعض المدارس الإسلاميّة للاتّصال بها، حيث عملها يحتّم عليها تقديم كلّ ما أطلب، رغم إدراكي أنّ هذا لن يجدي نفعاً، فالشّلليّة الّتي خبرتها بين المدرّسين والمدرّسات - فيما بعد - لا تفسح المجال لأيّ قادم جديد، فالطّلبة العرب الّذين يرتادون تلك المدارس قلّة، والدّوام فيها خلال عطلة نهاية الأسبوع فقط، والتّنافس الحادّ فيما بينهم يعدم فرصتي تماماً، وهذا ما حدث فعلاً.

الموضوع المتعلّق بنشر الكتاب يبدو أنّه ضغط على أعصاب ابنة الوزير، وقد أردتّ ذلك. قالت لي: (ما هو موضوع كتابك؟)، أجبتها بخبث: (عن الفساد

والفاسدين في سوريا)، قالت: (لكن عليك أن تكون حذراً، فأنت في دولة تحترم القانون، وإن لم تثبت بالدّليل القاطع فسادهم؛ فإنّ الأمر سيرتدّ عليك وتندم). ضحكت وقلت لها محاولاً استفزازها أكثر: (لا، تأكّدي لدي من الأدلّة ما تجعلهم يقضون بقيّة أعمارهم في السّجون)، ثمّ تابعت: (وإن كانوا هنا في كندا فترحيلهم سيكون سهلاً). رمقتني بنظرة استعلاء. قلت لها حين مغادرتي: (أعتقد أنّي التقيتك في الرّقّة). ثمّ تركتها دون انتظار الجواب.

معسكر رفحاء

أقمت خمسة شهور كاملة في هاملتون، ونظراً لأن مضيفي حيدر عبد الجبّار عراقيّ؛ فقد تعرّفت على معظم معارفه وأصدقائه العراقيّين، باستثناء زميلي العراقيّ في المحطّة، فهو يتحدّر من الطّائفة السّنّيّة. كان البقيّة جميعهم يتحدرّون من الطّائفة الشّيعيّة على اعتبار حيدر ينتمي إلى ذات الطّائفة، وهو من مدينة الديوانيّة.

الملفت للنّظر أنّ جميع من التقيتهم جاءوا إلى كندا من معسكر رفحاء في المملكة العربيّة السعوديّة. لا أخفي أنّي - ورغم كراهيتي لصدّام حسين هو وكلّ الدّيكتاتوريّات العربيّة - كنت جاهلاً بهذا المعسكر، ولم أكن قد سمعت به من قبل. شعرت بالخجل لعدم سماعي ومعرفتي بأحوال أولئك الّذين قضوا سنوات تزيد عن الستّ في منطقة صحراويّة شمال السّعوديّة، على بعد ٣٥ كم من الحدود العراقيّة قرب مدينة رفحاء السعوديّة.

كان كلّ واحد من هؤلاء لديه قصّة مشبعة بالدّم، هي قصّة صدّام حسين مع العراقيّين. قصص الموت والاعتقال والتّعذيب والقتل بدم بارد.

بعد انتفاضة آذار ١٩٩١ الّتي قامت في معظم المدن العراقيّة، وخاصّة في المدن الشيعيّة، وقمعت بقسوة من قبل صدّام حسين وأجهزة نظامه؛ فرّ الكثير من العراقيّين ودخلوا إلى أراضي المملكة العربيّة السّعوديّة. أرقام الّذين فرّوا تتفاوت، فهناك من أكدّ لي أنّها بلغت أكثر من ثلاثين ألفاً، وهناك من يقلّل من الرّقم إلى العشرين، أياً يكن الرّقم الصحيح فإنّ هؤلاء اللّاجئين وضعتهم السّعوديّة بداية في معسكرين، واحد يبعد عن مدينة الرياض حوالي ٢٥٠ كم في منطقة الزّلفي، والثّاني قرب مدينة رفحاء، وكان هناك اتّفاق دوليّ لإعادة توطين أولئك اللّاجئين في دول مختلفة، بعضهم عاد إلى العراق، والبقيّة توزّعتهم جهات الأرض الأربع.

كلّ الّذين التقيتهم - ويتجاوز عددهم الخمسة والعشرين شخصاً - جاءوا من معسكر رفحاء، سردوا لي قصصاً عن ظروف المعسكر الصّعبة، ومعاناتهم تحت حكم صدّام حسين.

أحدهم بدأ بسرد قصص الموت – حيث بعضهم فقد إخوانه، ومنهم من اعتقل وعذّب - فبكى الآخر، حيث بدأ بتذكّر كيف أعدم صدام أخويه الاثنين، والأنكى من ذلك مطالبة أسرته بدفع ثمن الرّصاصات الّتي قُتلا بها! لا يوجد أقذر من ذلك - في سوريا؛ عندما يبحث أهل المعتقل عن ابنهم في المعتقلات، يردّ النّظام بأنّ لا أحد لديه.

وجّه أحد العراقيّين كلاماً قاسياً لي، وقال: (أنتم السّوريّون جئتم تدافعون عن صدام). قصص تشيب الرّأس لها، وتؤكّد لماذا لم يدافع العراقيّون عن صدّام حسين عندما اجتاحته قوّات التّحالف الدّوليّ. تركوه يسقط، فالعراق لم يعد عراقهم، فقد حوّله الطّاغية إلى مسلخ كبير. أمّا المعسكر المذكور فقد ظلّ قائماً ستّ سنوات، وأزيل فيما بعد.

انتشر العراقيّون قبل السّوريّين في كلّ أصقاع الأرض هرباً من ديكتاتور حوّل حياتهم إلى جحيم. في هاملتون التي أطلقتُ عليها اسم هاملتون العراقيّة؛

عدد العراقيّين فيها كبير جداً، فيها تنتشر محالهم وحسينيّاتهم ومقاهيهم بكثافة، وفي المدرسة كنّا في الصف خمسة عشر طالبًا وطالبة، تسعة منهم عرب، منهم ستّة عراقيّون، وهم يشكّلون النسبة الأكبر في الصفوف الأخرى أيضاً.

ما يؤسف - وهم الّذين خبروا معنى السّجون والمعتقلات وذاقوا مرّ العذاب – أن أغلبيّتهم لم يتعاطفوا مع الثّورة السّوريّة ضد دكتاتور هو الوجه المكمّل لصدّام حسين. كنت في نقاشاتي معهم – وخاصّة البسطاء منهم - ألتمس لهم الكثير من الأعذار، فأغلبيّة السّوريّين وأغلبيّة العرب كانوا إمّا جاهلين بما كان يعانيه العراقيّون تحت حكم الطّاغية، أو مؤيّدين لصدّام حسين، ويعتبرونه فارس العرب.

الكثير من السّوريّين وبعد اكتشافهم الوجه القبيح لبشّار الأسد ومن قبله أبيه؛ أدركوا متأخّرين معاناة العراقيّين، إنّما بعد الاستثمار البشع في الطّائفيّة من قبل دول وجماعات. فاتت الفرصة مجدّداً لتتوحّد مشاعر العراقيّين والسّوريّين، ويلتقوا ضد من يتلاعب بهم.

كانت إيران ترسل أموالها وخبراءها وتحشد الشّيعة الفقراء من كلّ مكان، ترسلهم للقتال إلى جانب بشّار الأسد، كان بعض محدثيّ من العراقيّين عندما يأتي اسم الخميني يصلّي عليه ويسلّم ويخرّ ساجداً. أيضاً كنت ألتمس لهم العذر، فصدّام لم يؤسّس لدولة وطنيّة ولكلّ مواطنيها، وإيران استثمرت ذلك خير استثمار ونجحت. فغياب الدّولة الوطنيّة الّتي تكون لكلّ مواطنيها دون النّظر إلى عرق أو دين أو معتقد؛ يسهل لكلّ خارجٍ اللّعب بنسيج المجتمع، ويحطّمه تماماً. هي تلك دولنا ومجتمعاتنا الممتدّة من الماء إلى الماء!

القسم الثّالث

يوميّات متناثرة

إلى جانبي إسرائيليّ

فوجئت في اليوم الأوّل للعام الدراسي - يوم ٤ سبتمبر - أنّ الطّالب الّذي يجلس إلى جانبي هو إسرائيليّ، وعلى مبعدة منه إسرائيليّ ثانٍ، وعلى الطّرف المقابل طالبة فلسطينيّة. طلبت مدرّستنا الأمريكيّة أن يعرّف كلّ طالب وطالبة عن ذاته. هكذا تقتضي تقاليد المدرسة على اعتبار أنّه اليوم الأوّل.

الإسرائيليان كلاهما في نهايات العقد الثّالث من العمر، قالا إنّهما أمضيا نصف حياتهما الأوّل في روسيا حيث ولدا، ثم هاجرا مع أهلهما إلى إسرائيل.

قالت الفلسطينيّة في التّعريف عن ذاتها: (أنا من فلسطين، عشت في الأردن بعد اضطّرار أهلي إلى النّزوح منها، هاجرت إلى كندا منذ خمس سنوات).

أحدهما كان يزيّن زنده بوشم كبير، ولمّا سألته عمّا يرمز، أجابني بتنهيدة فيها من اليأس الكثير: إنّه شعار الجّيش السّوفييتي. ولما لاحظ استغرابي، تابع (لكي نثبت ولاءنا، فنحن متّهمون حتّى نثبت العكس). سألته: (ألا تستطيع إزالته؟)، أجابني مازحاً: (فقط بقطع يدي). كان وشماً لا يمكن إزالته أبداً.

بعد أسبوع من افتتاح المدرسة عامها الدّراسيّ؛ انضمّت إلينا طالبة جديدة. كم كانت فرحتي كبيرة عندما قالت إنّها قادمة من سوريا، لكنّ هذه الفرحة زالت تماماً عندما سمعتها تتناقش وطالبة عراقيّة بأنّ سوريا (لا يوجد فيها شيء، والإعلام يفبرك القصص والحكايات، وقطر والوهّابيّة السّعوديّة مع أمريكا يتآمرون على سوريا). أيقنت حينها أن قناة الدّنيا أصبح لها مراسلاً في كندا.

كانت الطّالبة الإيرانيّة غير المحجّبة تهاجم حكومة بلدها، وتتّهمها بأنها تبذّر أموال الإيرانيّين في سوريا ولبنان وفلسطين، أما العراقيّة المحجّبة فكانت تحاول ردّ هجوم الإيرانيّة، مدافعة عن نجاد وخامنئي، وأنّهم أعادوا الشّرف إلى المسلمين.

ما ناقشت عراقيّاً إلا وغلبني.

أبدى الإسرائيليّ - مهندس ومصمّم الدّيكور - تعاطفاً صادقاً مع ما يجري في سوريا، لمست ذلك في عينيه، كذلك الإيرانيّة الّتي لا تفوّت مناسبة إلا وهاجمت فيها "اللحى الحاكمة" في بلدها على حد تعبيرها.

الهوّة كانت تزداد وتتّسع مع زميلتي ونظيرتي السّوريّة الّتي تعلن وبشراسة وتحدٍّ أنّ (الأسد باق).

سألنا مدرّستنا الأمريكيّة إن كانت ستذهب إلى أمريكا يوم الانتخابات وتدلي بصوتها؟ تجيب بنعم. (من ستنتخبين أوباما أم رومني؟). تبتسم وتهرب من السّؤال، وتعتبر إجابتها سرّاً وشأناً خاصاً.

ينصب لها كارلوس الكولومبيّ فخّاً تقع فيه: (هل كنت معجبة بجورج بوش؟)، بسرعة تجيب: (نعم). تنتبه لاندفاعها، وتخفّف منه.(إذن صوتك سيذهب لرومني). قلت لها. تقهقه ولا تجيب.

يمنع كثير من المدرّسين نقاشات الدّين والسّياسة، وإن كان يتسرّب إلى الصّفوف وأثناء الدّروس بعضها. غير أنّ أغلبها دار ويدور في الاستراحات بين الدّروس.

أخشى من حرب أهليّة قادمة في كندا.

الحبّ في اليوم العاشر*

يا لغبائي؛

قالت لي أنا من تشلي - تشيلي - هلاّ تعرف تشلي؟

تذكّرت أنّها بلد تجاور البرازيل والأرجنتين، تذكّرت فريقها الّذي كان مشهوراً في كرة القدم. في اليوم التّالي صحّحت من غباني وقلت لها: الآن أدركت لماذا كتب نيرودا ٢٠ قصيدة حب.

في اليوم الثّالث: مكثت طويلاً في عينيها.

في الرّابع: قلت لها: أريد تغيير لجوئي من كندا إلى عينيك.

في الخامس: زيت وزعتر وشيء لذيذ من سنتياغو يفترش مائدة متواضعة.

في السّادس والسّابع: وضّبنا حقائبنا معاً.

في الثّامن: ملتصقين في شوارع مدينة احتلّها البرد.

في التّاسع: نهجّئ كلمة (حب) بكلّ لغات العالم.

في العاشر: أمطار كثيرة هطلت. دماء سوريّة وتشيليّة اختلطت. دفء يصبغ المدينة الكئيبة ويطرد البرد. عروق تنبض. نشرات الأخبار الّتي تتقدّمها أحوال الطّقس تعلن الخبر العاجل والسّار: لا برد بعد اليوم حيث الانزياحات الّتي طرأت على الكرة الأرضيّة خلال العشرة أيّام الأخيرة تضع مدينتنا بجوار الشّمس.

***عذراً أديبنا زكريا تامر**

عائد من كندا إلى سوريا جديدة

تقول العرب: (إن عثرت فرسك، ارجع). هل أعود أدراجي إلى كندا وسوريا باتت على مرمى حجر؟

طائرتي المتّجهة في التّاسعة والنّصف صباحاً من يوم الجّمعة ٢٠١٣/١/١٨ من مدينة إسطنبول إلى مدينة أورفة؛ غادرت من دوني بعد أن غفوت دقائق في قاعة انتظار المسافرين، كانت كافية لأن ألملم خيبتي، وأنتظر طائرة أخرى ستقلع في الخامسة عصراً.

بعد إقامة يومين في أورفة، المدينة الّتي تشبه في شوارعها كثيراً مدينتي الرّقّة، عزمت على السّفر إلى سوريا. انحشرت في "ميكروباص" متوجه إلى الحدود التركيّة السّوريّة من جهة بوابة تلّ أبيض الحدوديّة المحرّرة. كانت المسافة بحدود ٥٠ كم، أمضيتها واقفاً مع ركّاب آخرين. الميكرو كان مزدحماً ولا مقعد خالٍ. شتمت الأتراك كثيراً طوال إقامتي في تركيا عند مقارنتي سلوكهم اليوميّ بسلوك الكنديّين الّذي اعتدته أخيراً.

وصلت مع صديق كان رفيق سفر إلى البوّابة التركيّة. كان الازدحام كبيراً، وهناك الكثير من السّوريّين يريدون عبور الحدود واجتياز البوّابة للدّخول إلى تلّ أبيض السّوريّة. البوابة مغلقة، ورجال كثيرون يقفون عندها بين لباس عسكريّ ومدنيّ. اختلط الأمر عليّ من هو المسؤول ومن هو غير ذلك، فالفوضى كانت سيّدة الموقف. تُفتح البوّابة من على سكّة حديد، يدخل ويخرج منها البشر والسيّارات المحمّلة. شاهدت سيّارات إسعاف أيضاً يُفتح لها الطّريق مقبلة من الجهة السّوريّة تقلّ جرحى.

كنت أحمل حقيبة ثيابي الصّغيرة بيدي، وأضع الأخرى على كتفي. داخلها كمبيوتري المحمول مع كاميرتين صغيرتين وحاملهما، أقف منتظراً مع الكثيرين، وأخمّن أن الكلّ يفكّر مثلي في كيفيّة اجتياز تلك البوّابة والعبور إلى سوريا. من يحمل جواز سفر سوريّ لا مشكلة لديه، لا في الدّخول ولا في

الخروج. لا أملك جواز سفر سوريّ، فقط بطاقة هويّة. وثيقة سفري الكنديّة لا تصلح في هكذا مواقف، وتركيا تمنع دخول الأجانب. ما هو الحلّ؟ الفساد. الكلّ يتداول ويعرف ذلك، سوريّون وأتراك.

ينتشر السّماسرة الأتراك الّذين يتقنون العربيّة، أتّصل بصديق على الطّرف الآخر من الحدود، يأتيني شابّ تركي يتحدّث عربيّة سليمة، أنقده ألفا ليرة سوريّة، ننتظر قليلاً، نمشي أقل من مائتي متر بين بوّابتين، تنفتح البوّابة السّوريّة، يتدفق بشر كثيرون: أنا الآن في سوريا!

الهواء كان مختلفاً. هكذا أحسست. شعور بالأمان تملّكني. لم أقبّل الأرض على عادة ما يجري في بعض الأفلام والروايات. الازدحام كان شديداً، والسّاعة تقترب من الرّابعة والنّصف عصراً والبوّابة تغلق في الخامسة، وأرى الكثير من السّوريّين يريدون العبور إلى تركيا. أحد مقاتلي الجّيش الحرّ لم يرق له هذا الازدحام والتّدافع، رفع بندقيته الآليّة ووجّهها إلى السّماء وأطلق زخّات متتالية من الرّصاص. يبدو أن المشهد مألوف، فلم يأبه لرصاصه أحد، واستمرّ التّدافع. أحد الواقفين على مقرّبة منّي سمعته يقول: (ما أحلى أيّامك يا بشّار الأسد).

انطلقت بنا سيّارة تقلّني ورفيق سفري الّذي تربطه معرفة بأحد قادة كتائب الجّيش الحرّ، حيث نمنا ليلتنا هناك.

- الرّقّة – نشر في موقع "لبنان الآن"

ليلة عند الجّيش الحرّ

الشّمس تبتلعها الظّلمة رويداً رويداً؛ عندما كانت سيارتنا تتلمس طريقها في شوارع مدينة تلّ أبيض الّتي تكثر فيها المطبّات، توقّفت عند بناء تحيط به الجدران من جميع جوانبه، ليس مدرسة حيث كثير من الكتائب تقيم في مدارس.

يبدو أنّه كان دائرة حكوميّة مهجورة استولى عليها مقاتلو تلك الكتيبة. كانت الجدران ملينة بالكتابات الّتي تسقّط الأسد، وتحيّي بالاسم الكتائب المقاتلة.

وقف أكثر من عشرة شبّان يسلّمون علينا عندما عرفوا أن صاحبي ورفيق سفري يعرف "أبو كرار" قائد لوائهم الّذي لم يكن موجوداً وقت قدومنا، حيث قيل لنا إنّه ينام في مكان آخر.

جلسنا في منتصف غرفة كبيرة، أخمّن أنّها كانت مكتب مدير عام تلك الدّائرة الحكوميّة المهجورة، حيث كلّ مكاتب مدراء العموم في سوريا تتّصف بأنّها مكاتب كبيرة وفاخرة، وأضحت الآن "غنائم" عند الجّيش الحرّ وغيره ممن يتلطون خلف ذلك الاسم الّذي بات فضفاضاً، وتلصق به أعمال نهب وسرقة لا علاقة له بها كما قيل لنا فيما بعد.

وأنا جالس في مكاني بدأت أتفحّص المكان، "كتيبة أحفاد السّنّة" كانت مكتوبة بخطّ عريض وسط الجدار، هو الاسم الّذي اتخذتّه الكتيبة. حاولت من خلال الأسئلة الّتي كنت أطرحها لاستكشاف أين أنا ومع من أجلس، مدى التّطابق بين الاسم والشّباب الّذين اختاروه؟

بات واضحاً أن "الأسلمة" الّتي تطبع الكثير من الكتائب المقاتلة في سوريا تندرج تحت أسباب كثيرة، منها التّمويل وأجندات بعض الدّول المموّلة، ومنها تديّن شعبيّ بدأ يأخذ أشكالاً تصعيديّة بفعل كمّ الألم والموت اليوميّ وينذر بتصعيد أكبر ومتواصل ما لم تتوقّف المجزرة.

كان واضحاً من خلال الحوار الّذي كان يدور مع أغلبية شباب الكتيبة، أنّ "الله" تم استدعاؤه ليقف إلى جانبهم بعد أن خذلهم الجميع، ولم يستثنوا كلّ المعارضة السّوريّة الّتي أمطروها شتماً وسباباً، ولم أسلم منهم إلا بعد أن أكّدت لهم استقلاليتي كصحافي لا أتبع أيّ طرف من تلك المعارضة. كانوا يعانون نقصاً في كلّ شيء، والأكثر مرارة على مقاتل أن تكون بندقيّته من دون رصاص. العشاء الّذي قدموه لنا بكرم كان سردينا ومرتديلا وصحوناً صغيرة

امتلأت بزيت وزعتر ولبن وبعض الخيار والبندورة. واضح أنّهم عانوا كثيراً لوضع هذه الصحون، فحالهم تقول إنّهم في قلّة.

كنت أهجس بسؤال: (ما هي الدّولة الّتي تريدون قيامها بعد سقوط النّظام؟)، يردّ عليّ خليل المعيوف قائد الكتيبة من محافظة الرّقّة وعمره ثلاثون عاماً: (أستاذ هل أنت إسلاميّ أم علمانيّ أم ماذا؟)، أجيبه مازحاً وأنا أعرف ماذا يعني بسؤاله: (أترك ذلك لذكائك بعد أن ينتهي نقاشنا، وكيف ستقيّمني). ألحّ في أسئلتي فيؤكد أغلبيّتهم أنّهم يريدون العدالة. يؤكّدون أنّهم قاتلوا من "أجل إعلاء كلمة لا إله إلا الله ودحر الظّلم". ثمّ يضيف عبد الملك هنداوي وهو طالب تجارة وعمره ٢٤ عاماً: (بعد سقوط النّظام نحتاج إلى ثورات كثيرة أخرى لإسقاط الحراميّة الجدد).

أكثر ما فاجأني في تلك الكتيبة ذلك الطّفل الكبير الّذي تحفّظ عن ذكر اسمه، وكنّى ذاته بأبي طلحة، وهو من مدينة حلب وعمره ستّة عشر عاماً. كان له وجه "يوسف" النبي الّذي حتّى الكتب السماويّة تغنّت بجماله.

عندما شاهد دهشتي من وجوده هنا، وأنّه يجب أن يكون في غير هذا المكان، ردّ عليّ بكلام كبير جدّاً، قال إنّه (طالب شهادة). قال لي إنّه قاتل في كتيبة "فتح الإسلام" في حلب، ومنذ أيّام قليلة جاءت به أمّه إلى هذه الكتيبة. يبدو أن أمّه أرادت أن تطمئن عليه وتودعه هنا، حيث يوجد استرخاء تنعم به الكتائب المقاتلة في تلّ أبيض، ولا قتال في الأفق كما يبدو في منطقة نسيها النّظام، أو أُجبر على نسيانها.

عندما ذهبنا أنا ورفيقي إلى النّوم في الغرفة الّتي خصّصوها لنا، سألني أبو طلحة: (هل أوقظك أستاذ لصلاة الفجر؟)، ابتسمت في وجهه وربّتُّ على كتفه وتمتمت كلمات غير مفهومة.

في الصّباح غسلت وجهي وانطلقت إلى الرّقّة.

الطّريق إلى الرّقّة... عند حاجز الفرقة ١٧ توقّف قلبي

مشياً إلى مركز تجمّع الميكروباصات، كنت أتفحّص الشّوارع ووجوه النّاس، أحاول معرفة إجابات عن أسئلة كثيرة، فسوريا والسّوريّون بعد الثّورة هم غيرهم قبلها، كلّ شيء تغيّر، الجدران تنبئك بذلك قبل الجميع، الكتابات الكثيرة وبكلّ الألوان تحيّي الكتائب المقاتلة و"يسقط الأسد" مكتوبة في كلّ شبر على تلك الجدران. أعلام الثّورة مرفوعة فوق أكثر المباني الحكوميّة، وعندما ترتفع تلك الأعلام في منطقة حدوديّة فهذا يعني أنّ "السيادة" الّتي يتكلّم عنها النّظام قد خُدشت كثيراً.

أخذت مكاني في الميكروباص في المقعد الأماميّ وراء السّائق مباشرة. كنت قلقاً من كمبيوتري المحمول وبعض معدّاتي الصّغيرة، وما يمكن أن تسبّبه لي من مشكلات. أشياء أخرى قديمة سبب ذلك القلق، إنّما راهنت على الفوضى الّتي يعيش فيها النّظام وفقدانه الكثير من مرتكزاته، لذلك قرّرت العودة إلى سوريا.

بتثاقل شديد كما هي أيّام سوريا الآن؛ خرج الميكروباص من مركز الانطلاق يبحث عن الطّريق العامّ الذّاهب إلى الرّقّة. في أوّله يوقفنا حاجز للجيش الحرّ، شابّان فارعا الطّول، قويّا البنية، يحملان سلاحان آليّان ويرتديان بدلتين صحراويتين مرقّطتين. كان منظرهما مهيباً، بإشارة من يد أحدهما توقّف الميكروباص، حيّانا بعبارة (السّلام عليكم)، بوجه مشدود وعيون غائرة تفحّص وجوهنا، ثمّ أمر السّائق بمتابعة الرّحلة.

من خلال زجاج النّافذة؛ سرّحت نظري في السّهول المترامية والأفق الممتد غير مصدّق، أحدث نفسي: هذه سوريا!

أراقب الطّريق وأتفحّص كلّ شيء، أقرأ الشّاخصات (اللوحات الّتي تحمل أسماء المدن والقرى) الّتي تمرّ أمام ناظريّ تباعاً، أحسد تلك القرية الصّغيرة

الّتي سمّت ذاتها أو أسموها بـ"المستريحة"، تمنّيت أن تكون سوريا كلّها مثل تلك المستريحة.

تتوالى حواجز الجيش الحرّ من قرية إلى أخرى، شباب بين العشرين والثّلاثين من أعمارهم يحملون بنادقهم بزهوّ، يرتدون ثياباً لا يوجد أيّ ضابطٍ لها. فعند الحاجز ذاته هناك من يرتدي اللّباس المدنيّ، وزميله الّذي يقف بالقرب منه يرتدي بزّة عسكريّة. فوضى لباس تذهب الهيبة.

ركّاب الباص الصّغير صامتون، لا صوت يعلو فوق صوته الّذي يشير شخيره إلى وقت اقترابه بلوغ سن التقاعد.

حاجز للجّيش الحرّ عند قرية "حزيمة"، تلاه حاجز آخر. بين الحاجزين قرابة كيلومتر فقط! الرّقّة الآن على بعد ٢٠ كلم.

جنود بلباس عسكريّ يلعبون قريباً من الطّريق العامّ. اختلف الرّكّاب: (هل هؤلاء الجنود هم من الجّيش الحرّ أم النّظامي؟)، بين قائل إنّهم من هنا، وآخر يقول إنّهم من هناك، قلت: (كلّهم سوريون). هي الجملة الوحيدة الّتي نطقتها طوال رحلتي.

الرّقّة على بعد ٥ كم تقريباً. حاجز الفرقة ١٧ بات واضحاً أمامنا، هو الحاجز الوحيد في كلّ الـ٩٠ كم، المسافة بين تلّ أبيض والرّقّة. للحظة اشتغل دماغي، طلبت من المرأة الكبيرة السّنّ الّتي تجلس أمامي أن تضع عباءتها فوق الحقيبة الّتي في داخلها كمبيوتري المحمول، وافقت من دون أدنى تردّد. عاد القلق والخوف ينتابني، كلّ الشّوق والحنين اللّذين كنت أحملهما زالا تماماً، وحلّ محلهما انتظار ممضّ. لماذا جئت بقدمي إلى مجهول؟! لمت نفسي كثيراً.

طابور السيّارات المنتظرة دورها في التّفتيش كان طويلاً، أكثر من عشر سيارات أمامنا تنتظر، كذلك الطّابور في الجهة المعاكسة الذّاهبة إلى تل أبيض.

دقائق مرّت طويلة، سمعت السّائق يقول: (أعطوني هويّاتكم جميعاً لو سمحتم). تهادت السّيّارة، توقّفت تماماً، في توقّفها توقّف قلبي!

التفتُّ عبر زجاج النّافذة إلى محرس الجنود الواقع إلى شرق الطّريق، صورتان لبشّار الأسد وتحتهما كتب: "الله سوريا بشّار وبس" منظر الجنديّ النّظامي ببدلته المرقّطة وتعابيره القاسية وهو يتناول الهويّات من يد السّائق بدا لي مرعباً. ذهب بها إلى المحرس، وهو غرفة صغيرة لم أتبيّن من في داخلها. بعد دقائق كأنّها الدّهر كلّه عاد وأخذ يوزعها علينا وهو يقرأ أسماءنا بصوت عال. صاح باسمي، ناولني هويتي، التقت عيوننا، شاح عنّي بوجهه إلى راكب آخر. شعرت بالانتصار. بعد دقائق ليست كثيرة كنت والفرح نتسابق لنعانق الّذين تركناهم منذ خمس سنوات.

كنت هناك حين سقط الطّاغية

هذا النّص كتبته في ڤانكوڤر بعد عودتي من الرّقّة بعشرين يوماً ونشر في موقع "صفحات سوريّة"

عندما طلب منّي الصّديق حسين الشيخ رئيس تحرير موقع "صفحات سوريّة" كتابة ما جرى معي في الرّقّة، وكتابة "الروائح، شكل الحارات، والحنين الغامق، شيء من تداعيات حرّة" كما جاء في رسالة الصّديق العزيز. توقّفت قليلاً، لا بل عاد شريط الذّكريات إلى الوراء، إلى شهرين أعتبرهما من أجمل أيّام عمري قضيتهما في الرّقّة وبعض المناطق الّتي زرتها وقتذاك، لكن طلب الكتابة أيضاً جعلني أتوقّف قليلاً وأسأل: (من أنا ليكتب تجربة صغيرة في خضّم ثورة أكبر منّي ومن آلاف غيري؟!).

أتذكّر وبُعيد السّنوات الّتي أعقبت مجيء بشّار الأسد إلى السّلطة ٢٠٠٣ و٢٠٠٤، وسيادة مناخ "الرّأي والرّأي الآخر" الكاذب، وفي سهرة عامّة أقيمت

على شرف الكاتب ياسين الحاج صالح، سألت ياسين وقتها عن رأيه فيما أكتب؟ كنّا في تلك السّهرة وكلّ السّهرات الّتي يحضر ياسين فيها إلى الرّقّة نرهقه بأسئلتنا، وهو الكاتب الّذي بدأ اسمه يلمع على الصعيدين المحلّيّ والعربيّ. توقّعت أن ينقدني ياسين - وهو الكاتب الرّصين - على كتاباتي الصّاخبة الّتي كانت تهاجم وتؤلّب ضد النّظام بلغة تصل إلى حدود الشّعبويّة أحياناً، كنت أشتغل على تحطيم جدار الخوف، ومقتنع أشدّ القناعة برأي مونتيسكيو الّذي يقول: متى سقط عمود الخوف، سقطت الدّيكتاتوريّة.

أجابني ياسين على غير ما توقّعت في مكان آخر: (تكثر من الـ "أنا" في كتاباتك)، ثمّ تابع: (يحق للعروي، لغليون، للجابري أن يتحدثوا عن تجربتهم ولكن...). لا أدري إن أكمل ياسين جملته أم لا؟ لكن بات نقد ياسين قيداً أحمله متى كتبت، وهو قيد يلزم أحياناً كي لا تنفلش "أنواتنا" كثيراً، وتصبح بلا ضوابط، رغم أن الأنا الّتي تبرز في كتاباتي - كما يقول ياسين - هي ناتج مأزق أسلوبيّ، أعترف بذلك، وليست "شوفة حال" كما نقول في لهجتنا الرّقّاويّة.

يحضرني الآن الكاتب المغربي محمّد شكري صاحب رائعة (الخبز الحافي) الّذي أعتقد أنّه هو من نحت مصطلح "تذويت اللّغة"، حيث توجد لدى كلّ إنسان قصّة يرويها، وتستحق أن تُكتب.

يبدو أنّي أشعر بالذّنب، أضع ياسين الحاج صالح مع محمّد شكري، أقابلهما مع بعض لأجد مبرّراً أو منفذاً "أذوّت" فيه لغتي لأقصّ لغيري ما جرى معي.

عموماً لن أكتب كيف بدأ عضوي يتمرد ليشق بنطالي كما شعر يوماً محمّد شكري، سأكون رصيناً حرصاً على الذّوق العامّ، هي تداعيات، هلوسات، انطباعات، سَمّوها ما شئتم، نحن في ثورة يجب أن نكتب يوميّاتها كلٌّ من منظاره وزاويته.

بعد أن نجوت من حاجز الفرقة ١٧ بداية القصّة موجودة في مقالي "عائد من كندا إلى سوريّة جديدة"

بعدها بكيلو متر واحد، لم أشأ الذّهاب مع الميكرو إلى الكراج مخافة لقاءٍ مصادفة مع أحد لا أريد لقاءه. ارتأيت النّزول عند المفرق، واستقلال تاكسي أجرة، والذّهاب إلى بيت أختي الّذي سأقيم فيه.

قبل خمس سنوات عندما غادرت الرّقّة كانت أجرة التّاكسي ٢٥ ليرة سوريّة، لم يرتضِ السّائق بأقل من مئتي ليرة سوريّة، على الرّغم من أنّ المسافة لا تتعدّى ٢ كم. قلت له: (دوار أمن الدّولة) ـ بيت أختي قريب منه. بعد أن تحرّكت السّيّارة بأمتار، سألت السّائق إن كان من حواجز عسكريّة في طريقنا؟ أجابني: (نعم. حاجز الفروسيّة). لم أشعر إلاّ وقد أمسكت يده قائلاً: (يستر عرضك، لا تمرّ بي على أيّ حاجز وسأعطيك ما تريد). بُهر السّائق، شعرت أن السّيّارة بدأت تميد وتتراقص من يسار الطّريق إلى يمينه. لم يكن يحدث أيّ شيء من ذلك، إنّما هكذا بدأت أشعر، وبدأت أفقد التّركيز، حتّى أنّي ظللت الطريق الى بيت أختي، أدخلت السّائق في حارات وأخرجته من أخرى، ولم أستطع الوصول إلى مكان كنت أحفظه عن ظهر قلب وآتيه مغمض العينين إلاّ بعد أن أخرجني السّائق من ذهولي: (اطمئن، لن نمرّ على أيّ حاجز. يبدو أنّك غريب عن المدينة، من أيّ العمام أنت؟)، شكرته وقلت له بعد أن حاذرت أن ينزلني أمام مدخل البناية كي لا يعرف وجهتي بدقّة، فالرّعب الموروث يجعلني أشكّ ـ وسواي ـ دائماً بسائقي سيّارات الأجرة، فهم في الذّهن "كتبه تقارير" يبدو أنّي من عصر سابق، ولم ألحظ بعد حجم التغيرّات الّتي طرأت على المجتمع السّوريّ. شكرت السّائق وقلت له: (ربّما نلتقي في يوم ما، وسنتعارف أكثر). نقدته أجرته وفوقها أجرة "التوهان" الّذي أدخلته فيه.

صعدت الدّرج إلى الطّابق الثّاني حيث بيت أختي. السّاعة تقترب من منتصف الظّهيرة، لم يكن أحد يعرف بقدومي، خشيت أن تفتح أختي الباب، خشيت أن تقتلها الفرحة عندما تراني، طرقت الباب وأنا أقول في سرّي: (لم أسمع يوماً أنّ هناك من مات بسبب الفرح، النّاس في بلادي تموت من الغيظ

ومن القهر. زوج أختي هو من فتح الباب. اشتغلت التليفونات والاتّصالات، لم تكتمل السّاعة إلاّ وكلّ الّذين أحبّهم حضروا وكان عناق، وكان فرح.

ثلاثة أو أربعة أيّام كنت خلالها حبيس البيت. تحذيرات كثيرة من معارف وأصدقاء تنصحني بعدم التّجوال مخافة الاعتقال. (الوضع مضطرّب، ما تعرف شو رح يصير، نظام واطي، نظام ساقط)، وكلام كثير كنت أسمعه. (ما يمشي الحال، لم آتِ هنا قاطعاً كلّ تلك المسافات لأجلس بين إنترنتّ يجلط وجدران أربعة). هكذا كنت أحدّث نفسي. أشتهي المشي في الشّوارع، أريد معانقة النّاس، أشتهي التّجوال في كلّ الأماكن الّتي أحببتها. الأماكن: ملامح وحكايات حنين نظلّ نيمّم دائماً شطرها. بدأت رجليّ تتفلّت من قيودها، أرتدي بيجامتي وحذاء رياضة، مسافات قليلة في النّهار وقبيل الغروب.

تقفر كثير من الشّوارع بعد الغروب، يلزم النّاس بيوتهم، خلا بعض الشّوارع الرّئيسة الّتي تسهر حتّى الثّامنة أو التّاسعة في أحسن الأحوال. في البداية كنت أمشي إلى جانب الحائط، أقصى الرّصيف، في أقصى الشّارع مخافة الاختلاط. بعدها وعلى مدى أيّام، رويداً رويداً نزلت إلى منتصف الطّريق، صرت أزاحم النّاس.

كأعمى يبصر فجأة، كنت أتفحّص وجوه البشر. خمس سنوات ليست فترة طويلة، إنّما من أعرفهم وجدتهم قد كبروا، بعضهم قد شاخ. التقيت أحدهم مصادفة، وكم كان كلامه جارحاً ربّما من دون أن يقصد، قال لي: (هل جنت بعد دعوة النّظام المعارضة المجيء إلى سوريا ولا خوف عليهم؟!).

التّأنيبات من الّذين يخافون عليّ كانت كثيرة حتّى خفتت تماماً. الرّقّة اختلفت كثيراً، رقّة جديدة الآن، الشّوارع وخاصّة الرّئيسة، تلّ أبيض، ٢٣ شباط، المجمّع، كلّها مكتظة ولا متّسع فيها، لهجات كثيرة يُرطن بها، وإن كانت الديريّة مسموعة أكثر، ويُشتكى منها أكثر. بسطات الباعة الجائلين تحتلّ كلّ الأماكن.

أظنّ أن الرّقّة كانت محظوظة في أمور كثيرة، نعم فيها أزمات كثيرة، لكن الحركة الماليّة والتجاريّة كانت أفضل من المحافظات الأخرى، فالسّوق أصبحت متّسعة، ويوجد فيها على الأقلّ نصف مليون قادم جديد. نصف مليون مستهلك جديد، ربّما هذا يحتاج إلى دراسات اقتصاديّة من مختصين.

زال الخوف تماماً. أيقنت أنّ كلّ مخاوفي لا أساس لها، فالنّظام كما يقال "مضروب برأسه"، وعناصر أمنه الّذين كانوا مزروعين في كلّ الأماكن هم معتقلون الآن وراء دشمهم وحواجزهم الإسمنتيّة، حتّى بتّ أتندّر وأقول لأصدقائي: (لك مشتهي أشوف عنصر أمن). غادرت الرّقّة، ولم تتحقّق أمنيتي.

تحرير الرّقّة

حسدني كثيرون، أنا القادم من كندا أشهد لحظة تاريخيّة يتمناها كلّ كاره ومعارض للنّظام، وهل يوجد أجمل من أن تكتحل عيناي بمشهد سقوط حافظ الأسد الّذي كان يدير ظهره للرّقة، ويراقب من أوتوستراداها كلّ قادم إليها؟

دموع فرح كثيرة تساقطت كانت كافية أن تغرق ذاك التّمثال البغيض لتسقطه مرّة تلو أخرى.

قبل تحرير الرّقّة وبعدها، عمل كثير يقوم به نشطاؤها، إنّما بعد سقوط السّيف المسلط بات كلّ شيء علنيّ وفي وضح النّهار، تحرّر الجميع من خوفهم، البعض كان قد غادره الخوف من زمن بعيد، وبعض آخر للتوّ غادره، فبدأوا يبحثون عن أدوار سياسية في مستقبل سوريا القادم.

في لقاء ضمّ وجوهاً ثقافية واجتماعيّة في منزل المحامي بسّام البليبل احتدم نقاش حول تمثيل المدينة، ومشكلة مجلسيها المحلّيين، قلت في معرض مداخلة قدمتها: (لي كثير من النّقد حول آليّة وعمل وشرعيّة المجلسين، إنّما هذان

المجلسان وُجِدا في لحظة فراغ يُشكران عليها، واستطاعا تقديم ما يمكن تقديمه، ويمكن أن نسمي تلك اللّحظة الّتي أتت بهما أنها: "الشّرعيّة الثوريّة"، إنّما الآن انتهت هذه الشّرعيّة، وستحلّ محلّها "الشّرعيّة التّمثيليّة"، والمطلوب رأي عامّ ضاغط، ربّما جلستنا الآن نوع من هذا الرّأي العامّ، والمطلوب الدّعوة إلى مؤتمر عامّ يراعي تمثيل المدينة بكلّ فعاليّاتها، كذلك دعوة المجلسين، ويجبران على حلّ نفسيهما، وانتخاب مجلس محلّي بشكل ديموقراطيّ، الأنظمة الدّيكتاتوريّة سادت لأنها ألغت الرّأي العامّ، فلنصعّد من هذا الرّأي العامّ لأنّه حصانتنا).

الرقيُّون أمام تحدٍّ كبير، المحافظة تحرّرت كلّها بشكل شبه كامل، كلّ الأنظار تتوجّه إليهم، قدّموا لكلّ السّوريّين حتّى حينها أمثولة جديرة بالاقتداء، حيث لا حوادث نهب أو سرقة تذكر، حافظوا على ممتلكاتهم العامّة والخاصّة، كانوا أهلاً للحرّيّة.

هل سنحافظ على تلك النّعمة؟ ذلك هو التحدّي.

الله موجود في كندا

تسنّى لي على مدى سنوات انقضت وحتّى تاريخه، حضور احتفالات النّوروز في ثلاثة أماكن مختلفة: الرّقّة، بيروت وڤانكوڤر في كندا.

في سوريا هو مختلف عمّا عليه في بيروت، وفي ڤانكوڤر تختلف اللوحة تماماً. في الرّقّة وحتّى ساعات قريبة من موعد الاحتفال، لا شيء يبدو مؤكداً؛ هل سيتم الاحتفال؟ هل ستلغيه السلطات السّوريّة؟ هل سيذعن الكرد ويلغون احتفالاتهم بناء على أوامر ضابط في فرع المخابرات هذا أو ذاك؟

دائماً كانت تقام الاحتفالات رغماً عن أنف السّلطات الّتي تقف عاجزة عن سدّ الطّوفان البشريّ للكرد، لكن أحياناً كانت تلغى الاحتفالات، وقد جرى ذلك

خلال أعوام سابقة. عندما يسقط شهداء للكرد في مواجهات مع أجهزة مخابرات النّظام السّوريّ خلال عيد النّوروز. تتحولّ الأفراح الى مآتم، وتفيض الدموع من مآقي الكرد حزناً على شباب قضوا؛ فقط لأنّ نظام اللّون الواحد يكره كثرة الألوان في لوحة سوريا الجميلة!

لاحتفالات النّوروز في بيروت سحر آخر. حيث البحر والأفق الممتد والروشة، و"صخرة الانتحار" التي يحولّها الكرد في آذار إلى صخرة للولادة. في بيروت لا وجود لعناصر الأمن بهيئاتهم ومناظرهم المستفزّة. لا وجود لصور القائد الرّمز ووريثه. لا وجود لمظاهر حزبيّة كرديّة صارخة، إنّما على الطّريقة اللّبنانيّة صبايا وشباب يطوّقون خصور بعضهم. رقص وغناء ومسرح وزوارق تجوب مياه البحر مارّة من تحت "الصخرة" في تحدٍّ رائع.

شمس آذار في ڤانكوڤر دائماً خجولة، ما بلغت سن الرشد يوماً، وإذا كانت لندن تُنعت بمدينة الضّباب، فإنّي لا أرى سبباً يمنع أن تُسمى ڤانكوڤر مدينة المطر.

يبتهل الكرد في سوريا إلى الله في يوم النّوروز ألا يتمّ استفزازهم من عنصر أمن أو ضابط مخابرات يُفسد عليهم متعة احتفالاتهم، فيما يبتهل الكرد في ڤانكوڤر إلى الله ليُوقف المطر مرّة واحدة في يومهم هذا، ويرجونه أن يُوعز إلى الشّمس أن تتواقح قليلاً. ما يفشلون فيه مراراً في سوريا ينجحون فيه في ڤانكوڤر. لاعجب؛ فالله موجود في كندا، أما في سوريا فلا صوت يعلو فوق صوت ضابط مخابرات وضيع.

في حديقة كبيرة جدّاً في إحدى ضواحي مدينة ڤانكوڤر تقام سنويّاً احتفالات النّوروز، وكما تغدو صخرة الانتحار في بيروت، صخرة للولادة؛ كذلك تغدو الحديقة الجميلة كردستان الوطن المفقود. كرد من كردستانات سوريا والعراق وإيران وتركيا، كلّهم يجتمعون خلال ذلك اليوم الموعود، يسرقونه من روزنامة العام، يلملمون كلّ أفراحهم وأحلامهم وأمانيهم، يرهقون ذاكرتهم، يستحضرون

رموزهم وأغانيهم، يشعلون نارهم المقدّسة، يحلمون بوطن، ينفضّون عند المغيب على أمل اللّقاء في وطن.

- فانكوفر - نشر في موقع "لبنان الآن"

الكرد وعطش الأسئلة

قيل إنّ السّؤال نصف المعرفة؛ إنّما قد يأتي تعبيراً عن عجز فاضح.

في إحدى قاعات جامعة (SFU) دعا الحزب الدّيموقراطيّ الكردستانيّ الإيرانيّ لحضور ندوة أقامها إحياءً لذكرى اغتيال الدّكتور عبد الرحمن القاسملو، القائد الكرديّ البارز، والّذي صفّته المخابرات الإيرانيّة في العاصمة النمساويّة فيينا، بتاريخ ١٣ تموز ١٩٨٩

واستضاف الحزب المذكور في هذه المناسبة الكاتبة والصحافيّة الفنزويليّة – الإسبانيّة (Carol Prunhuber) مؤلّفة كتاب (The Passion and Death of Rahman the Kurd)، وفيه تتحدّث عن سيرة القاسملو، والكاريزما الاستثنائيّة الّتي كان يتمتّع بها القائد الكرديّ الّذي قضى اغتيالاً إثر مفاوضات شاقّة مع حكومة الخميني من أجل نيل الحقوق الكرديّة انتهت بالفشل، حيث - وحسب الكاتبة - جاء قرار الاغتيال بعد تلك المفاوضات.

اتّهمت الكاتبة الخميني شخصيّاً - وكذلك الرّؤساء السّابقين - محمود أحمدي نجاد وهاشمي رأفسنجاني بالضلوع في عمليّة اغتيالٍ تحدّث فيها الإعلام الغربيّ طويلاً، ثمّ صمتت عنها دوائر القرار السّياسيّ الغربيّ، فيما قيل وقتها اتفاقات مشبوهة "تحت الطّاولة" حدثت مع الحكومة الإيرانيّة آنذاك لطيّ الملّف برمّته وتقييده ضد مجهول، حيث تغليب المصالح على العدالة والأخلاق.

بعيداً عمّا جاء في المحاضرة؛ ما يلفت النّظر هو - رغم عدد الحضور الّذي لم يتجاوز الخمسين أو السّتّين شخصاً كثرة الأسئلة الّتي طُرحت على المُحاضِرة، ويمكن القول إنّ أكثر من ثلاثين سؤالاً قد وجّهت إلى الصّحافيّة والكاتبة المذكورة!

ماذا يعني ذلك؟

كان يمكن فهم كلّ تلك الأسئلة وإيجاد المبرّر لها لو جاءت ضمن سياق فهم سيرة الرّجل وتشابكات علاقاته ضمن محيطه في الدّاخل الإيرانيّ، وكذلك الإقليميّ والدّوليّ، أيضاً لو حاول السائلون استفزاز المحاضرة – بالمعنى الإيجابي للاستفزاز – والإضاءة على كثير من نضالات قاسلمو، خاصّة بعد معرفة الحضور متانة العلاقة الّتي كانت تجمعه بالكاتبة والصحافيّة الّتي كثيراً ما تجشمت عناء السّفر إلى كردستان إيران كمراسلة للتّلفزيون الفرنسيّ - الّذي كانت تعمل فيه وقتذاك لتسليط الضّوء على القضيّة الكرديّة في جزئها الإيرانيّ.

إنّما أن تكون أكثر الأسئلة حول كلّ قضايا الكرد في الكون، وكيفيّة حلّها! فتخرجها – الأسئلة – من نطاق السّؤال الّذي يركض نحو إجابته، إلى السّؤال الّذي تصعب الإجابة عنه، خاصّة بعد أن كررت المحاضِرة: (ليست لديّ أيّ فكرة)، وتوضح تماماً كذلك أنّها مختصّة في الجانب الكرديّ الإيرانيّ، ولا تعرف كثيراً عن "داعش"، ولا عن أوضاع كرد سوريا، ولا كرد تركيا، وهي تلمّ قليلاً بأوضاع كردستان العراق كما قالت، كذلك هي غير معنيّة بعقد المقارنات وأيّهما أفضل وأكثر حنكة القاسملو أم أوجلان، القاسملو أو البرزاني....، ولا تستطيع أيضاً ولا توجد لديها وصفات جاهزة: ماذا سيفعل الكرد للوصول إلى حقوقهم؟، جلّ ما قالته وبعد إلحاح (عليكم بالتوحد ونبذ خلافاتكم).

كثيرة هي الأسئلة الّتي أرادت ترحيل عجزِ مقيمٍ يبحث عن إجابات، هي أشبه بالبحث عن واحة في صحراء لا ماء فيها. ربّما هذا مفهومٌ في وضع

الكرد، حيث تعقيدات القضيّة الكرديّة والظلم والإقصاء والتهميش الّذي مورس عليهم في أجزاء كردستان الأربعة؛ إنّما ما هو مفهوم، يجب ألا يُستمرأ في تبريره، وذلك كيلا يغدو ثقافة راسخة يصعب في يوم ما الشفاء منها.

- فانكوفر- نشر في موقع "لبنان الآن"

عن صراعات المهاجرين وأبنائهم في كندا

للقصّة الّتي رواها حسّان، دلالات كبيرة. اضطرّ إلى مغادرة ألمانيا، بعد قضائه ثماني سنوات فيها. والسبب أن مشرفة في المدرسة حيث تدرس ابنته - ذات الستّة عشر ربيعاً - زارته في البيت وعرضت مشكلة ابنته، وأخبرته أنّها انطوائيّة، وليست لها إلا صداقات محدودة مع فتيات، ولا تختلط بزملائها الفتيان على الإطلاق. (ثمّة مشكلة ما، ويجب أن نتعاون في حلّها)، قالت له. أخافه ذلك، فالأولاد والفتيات على أبواب المراهقة ويخشى من ضياعهم في مجتمع غربيّ. عاد إلى سوريا وأقام سنوات قليلة قبل أن يضطرّ مرغماً مرةً أخرى أن يهاجر إلى كندا بعد الزلزال السّوريّ.

قلقٌ عميق يتعرّض له عدد كبير من العرب والمسلمين في أوطانهم الجديدة ويعبّر عن ذاته بشكل جليّ. مبعث القلق هو صعوبة الاندماج في عمق وتفاصيل ثقافة أخرى، يعتقد كثيرون أنّها تتصادم مع ثوابتهم الثّقافيّة والفكريّة والأخلاقيّة الّتي تربّوا عليها. هذه الهزّة العميقة تحضر دائماً عبر "صور مرعبة" نمطيّة في كثير منها، مترسّبة في أذهان الآباء والأمّهات عن المجتمع الغربيّ، وتعبّر عن ذاتها باستمرار من خلال تأنيب للذّات على ما ارتكبوه بحقّ الأبناء لأنّهم جاءوا بهم إلى مهاوي "الانحراف"

لحيدر قصّة أخرى. يفتخر بوجوده في مدينة هاملتون الكنديّة ويعتبر أنّه حقق إنجازاً فريداً عندما جنّب سلام وصبا، طفليه الصّغيرين "مستنقعات" و"فايروسات" الفساد والطّائفيّة والتّعليم ذي المستوى المتدنّي في العراق. حيدر مقتنع أن لولديه مستقبلاً مشرقاً في كندا. برغم ذلك يغصّ عندما يتذكّر أن عمر ابنته قارب الثّامنة عشرة، وأنّها ستصبح مستقلة ولا "ولايّة" له عليها. كما يقلقه أن ينجرف ابنه سلام إلى عالم المخدّرات، الّذي بدأ يغريه جرّاء مشاهداته الأفلام الهوليوودية.

عيسى بريك، ابن مدينة درعا السّوريّة، فرّ من ملاحقات النّظام السّوريّ قبل ثلاثين عاماً واستقرّ به المقام في مدينة مونتريال الكنديّة. لديه وعائلته الّتي لحقت به فيما بعد، قصص طريفة تلخّص صراعاً لن ينتهي بين جيل المهاجرين الأوّل وأبنائهم. "الموقف من السّود" ربّما يعطي فكرة واضحة عن الثّقافة الّتي حملوها معهم، وكيف اصطدمت مع ثقافة جديدة مختلفة يدرسها الأبناء في المدارس والمعاهد والجامعات الكنديّة. قال عيسى: (ابني الصّغير في الصّف الخامس ولديه زميل بشرتة سوداء، حضر معه في أحد الأيّام إلى البيت كأيّ طفلين يلعبان معاً، وبتلقائيّة وبدون حساب لأيّ تبعات صرخت به أمّه: (ولك إنت ما عندك رفقات غير السّود؟). يتابع عيسى أنّه وزوجته فوجئا برد ابنهما الغاضب وصراخه باللّغة الفرنسيّة: (لماذا عندكم حساسيّة من السّود؟ ليس كلّ البيض جيّدين، ولا كلّ السّود سيئين).

هذا مثال رمزيّ ودرس بسيط وصارخ في "حقوق الانسان" يلقّنه طفل صغير لأبويه. لا تنتهي الدّروس هنا، فأولاد عيسى بريك تربّوا وتعلّموا ونهلوا من الثّقافة الكنديّة. يذكر عيسى قصّة طريفة أخرى حدثت مع عائلته أثناء الانتخابات البلديّة الأخيرة. يقول: (جاءنا أحد المرشّحين إلى البيت يحدّثنا عن برنامجه الانتخابيّ متمنّياً أن نصوّت له. في موعد

الانتخابات أوصيت الأولاد الّذين يحقّ لهم التّصويت أن يدلوا بأصواتهم للرّجل). لكن عيسى فوجئ فيما بعد أنّ لا أحد منهم قد أعطى صوته الانتخابيّ لهذا المرشّح، ولما عاتبهم بانزعاج، ردّت ابنته الصغرى: (ما كان عليك أن تعده بأصواتنا، أنت وفيت بوعدك وهذا حقّك، نحن لم نعِد أحداً، هذه كندا وليست سوريا). هو درس في الدّيموقراطيّة يلقّنه الأبناء للآباء.

الصّراعات مختلفة وكثيرة بين عالمين لكلّ منهما رموزه ومفاهيمه وقيمه، عالم حمله جيل المهاجرين الأوّل معه، وعالم جديد وجدوا أنفسهم فيه. من هذه التّقابلات، تتولّد صراعات ليس بين أبناء العالمين فحسب، بل داخل الشّخص ذاته، وضمن الأسرة الواحدة. فالفئات العمريّة الصّغيرة والشّابّة، من أبناء المهاجرين لديها قابليّة واستعداد أكبر للاندماج في الحياة والثّقافة العامّة ونظام التّعليم، ولديها القدرة على الانفتاح أكثر على وسائط الاتّصال الاجتماعي وثورة المعلوماتيّة. من هنا تبدأ المعاناة ويبدأ صراع يشمل كلّ شيء، السّلوك والعادات وأنماط التّفكير والميول والاتّجاهات، والكثير مما يعتقد الآباء أنّها معايير أخلاقيّة صحيحة تقاس عليها سويّة السّلوكيّات.

عن هذا الواقع تقول عفراء الجّلبيّ، المرأة الّتي أثارت جدلاً واسعاً بين مؤيّد ومعارض عندما ألقت خطبة عيد الأضحى الماضي في مسجد النّور في مدينة تورنتو الكنديّة، والمقيمة في كندا منذ أكثر من عقدين من الزّمن: (هناك تحديات هوياتيّة تواجه الجيلين الأوّل والثّاني. برغم أن الجيل الثّاني يتأقلم في كثير من الأمور مع المجتمع الّذي يولد فيه إلا أنّ صراعات عدة تولد في داخله. المجتمع الغربيّ قويّ ويقدّم منظومة معيّنة، ومجتمع المهاجرين المسلمين يقدّم أيضاً منظومة فيها الكثير من الأمور الإيجابيّة وخاصّة في الحيّز العائليّ، وفي العلاقات الاجتماعيّة. لكنّ الكثير من القيم

الفكريّة السّياسيّة والعلميّة العامّة داخل الوسط العربيّ غير متصالحة مع العصر الحديث. هناك مثلاً خوف من أسئلة الأولاد، وتشنّج تجاه ما يطرحونه أحياناً. ولا ألوم الأهل، فهم غير مهيّئين في بعض المجالات للإجابة عن أسئلة هي في حقيقتها فلسفيّة وثقافيّة تتكون داخل الطّفل المسلم الّذي يعيش في الغرب. بشكل عامّ نحن غير متصالحين مع العصر الّذي نعيش فيه من النواحي الفكريّة. ومن مظاهر انفصامنا أنّنا في جانب نرى أنّه يمكننا استعمال الأدوات الماديّة والتكنولوجيّة، وفي جانب آخر لا نتقبّل التطوّر الفكريّ الغربيّ، رغم أنّنا لا نستطيع فصل الأخير بسهولة عن ظروف التطوّر العلميّ والتكنولوجي).

ومن ناحية أخرى، ترى الجلبيّ أنّ (الآباء والأمهات يصدّرون إلى أبنائهم خللاً يستوطن فيهم جرّاء هذا الانفصام، ويوقعون أبناءهم في تشوّش واضطّراب كبيرين). وتضرب مثلاً على ذلك "مفاهيم التطوّر وأصل الإنسان" حيث الاستهزاء من قِبلهم بمنظومة علميّة ضخمة يتعامل معها الطّفل. والمسألة كما تراها هي (مواجهة بين تفكير علميّ وتفكير تراثيّ)، وهنا (لبّ المشكلة).

ستستمرّ الفروق الاجتماعيّة والثّقافيّة والأخلاقيّة بين جيلي المهاجرين الأوّل والثّاني، حتّى تصل إلى مؤدّاها ونهاياتها المنطقيّة. وبعيداً عن الأحكام القيميّة، سيكون الرّهان معقوداً على الجيل الثّاني إذ (ستزيد نسب المتعلمين والمثقّفين بينهم، وهذا ما سيزيد احتمالات وإمكانات ظهور توجّهات فكريّة وعلميّة رصينة ستعبّر عن ذاتها في مجالات الإنتاج الثّقافي وفي مجالات إبداعيّة ونقديّة)، تقول الجلبيّ بتفاؤل.

ـ فانكوفر ـ نشر في موقع "رصيف" الإلكتروني

وكانت جموع المصلّين تردّد وراءه: آمين!

تختزن ذاكرة هڤال قصصاً كثيرة عن عرب وكرد جاءوا إلى كندا؛ مهنته كمترجم قانونيّ معتمد لدى المحاكم الكنديّة أكسبته معارف وعلاقات وقصصًا طريفة ومتنوعة. يروي إحداها:

شابّ لبناني متزوج من كنديّة، حدث بينهما شجار كأيّ زوجين، وفي لحظة الغضب وانفلات الأعصاب تخرج الكلمات بدون ضابط أو رقيب (سأقتلك). لم تعتد الزّوجة الكنديّة هكذا تهديد ووعيد. خالته حقيقيّاً، وما أسرع الكنديّات بالشكوى ضد أزواجهن في هكذا خصومات.

يقول هڤال: كانت اللّغة الإنكليزيّة للشابّ اللّبنانيّ "ماشي حالها"، وعادة تُحضر المحكمة مترجماً معتمداً منعاً للالتباس أو أدنى سوء فهم. يتابع هڤال: انفجر الشّابّ اللّبنانيّ من الضّحك عندما سمع زوجته تقول للقاضي إنّه هدّدها بالقتل، ولما سأله القاضي عن سبب ضحكه؛ لم ينتظرني كي أقوم بالتّرجمة، فأجاب فوراً وهو يغالب ضحكه: عندما قلت لها سأقتلك لم أكن أعني ما أقول، ففي بلدنا وثقافتنا نكرر الكلمة هذه عشرات المرات من باب اللغو الفارغ ولا نعنيها مطلقاً. أطرق القاضي ملياً، ابتسم ثمّ وجه كلامه للشابّ: لا تعيدها مرة أخرى.

تعتبر كندا بلداً متعدّد الثّقافات، شعارها: (ثقافة كندا، تعدّد ثقافاتها). يوجد فيها ٣٤ جنسيّة من مختلف دول العالم، للعرب حصة لا بأس فيها، حيث تشير بعض الإحصاءات أن عددهم يقترب إلى حوالي مليون نسمة، يشكّل اللّبنانيّون والعراقيّون منهم النّسبة الأكبر، يتوزعون على مراكز المدن الرّئيس مثل تورنتو ومونتريال وڤانكوڤر وغيرها.

مما لا شكّ فيه أنّ أيّ مهاجر من أيّ جنسيّة يحمل معه في ترحاله ثقافته وعاداته وتقاليده ومنظومة سلوكيّة كاملة تلعب دور المحرّك في تحديد مواقفه الشّعوريّة واللاشعوريّة، العاطفيّة منها والعقليّة، توجّهات، رموز، هيجانات،

مواقف وأحكام على مجمل القضايا. وهناك مهاجر يحاول أن يكون مرناً ومستوعباً كلّ مدخلات حياته الجديدة، ونوع آخر يكاد يشكّل النّسبة الأكبر، يغرق في هواجس وتصوّرات ربّما قادته إلى درجة القلق المضني وطرح أسئلة كبرى تحيل حياته إلى جحيم.

اختلاف الثّقافات واحدة من المشكلات الّتي يصطدم بها المهاجر الجديد. وفي رحلة التّأقلم نمرّ على جدران عديدة، بعضها يترك جروحاً غائرة جراء اصطدام رؤوسنا بها، وأحياناً تكون الرضّة خفيفة، وفي أحايين أخرى يكون الصّدم منعشاً وأشبه بفنجان قهوة يعطي للدّماغ فسحة للتأمّل والتفكّر في أحوال الثّقافات الّتي تحبل بها كرتنا الأرضيّة.

تسعى الحكومة الكنديّة والمجتمع الكنديّ بكلّ الوسائل والطّرق الممكنة إلى خلق الجسور وايجاد مساحات مشتركة بين الوافدين، هادفة من وراء ذلك ابتكار هويّة كنديّة يتم خلقها من خلال الاندماج والتّعدّديّة الثّقافيّة، وليس الصّهر أو الذّوبان، أيضاً تحاول تخفيف حدّة الشّعور بالاغتراب، أو ما يسمّيه بعض علماء الاجتماع بـ"الاقتلاع المكانيّ والزّمانيّ"، فأنشأت كثيراً من المكاتب وورش العمل والجمعيّات مختلفة الوظائف والأهداف، كلّها تحاول تخفيف عبء هذا الانتقال عبر تقديم الخدمات المجانيّة للمهاجرين، سواء في تعلّم اللّغة، أو كيفيّة المساعدة في البحث عن العمل، أو الدّورات والمحاضرات والبرامج الترفيهيّة، في عملٍ دؤوب ومنظّم لكسر عزلة المهاجرين ومحاولة خلق الثّقة بين عادات وثقافات مختلفة ومتنوعة. ودائماً ما تؤكّد على ضرورة محافظة المهاجر على ثقافة بلده الأصليّة، ووجوب سيادة الاحترام بين الجميع. لذلك دائماً - وفي خدمة هذا الغرض - تغيّر من قوانينها بشكل مستمرّ في سبيل استيعاب أيّ متغيّر جديد.

قديماً، كانت بعض الرّموز الدّينيّة تقف حجر عثرة أمام طامح يريد دخول سلك الجيش أو الشّرطة مثلاً، ففي عام ١٩٧٥ ألغت الحكومة الكنديّة القانون

الّذي كان يقف حجر عثرة، وكان السّبب المباشر لذلك التّغيير حادثة وقعت لشابّ هنديّ ممن يعتنقون الدّيانة السّيخيّة، وكان قد تقدّم لشغل وظيفة في جهاز الشّرطة، وبعد أن أتمّ كلّ الفحوصات بنجاح، وقفت عمامته الدّينيّة الّتي يضعها على رأسه ولحيته الطّويلة حائلاً أمام تقلّده الوظيفة، فجاء التّشريع القانونيّ بعد ذلك، وسمح بكلّ الرّموز الدّينيّة، واستطاع هذا الشّابّ والآلاف غيره تبوّء أيّ وظيفة في السلك الحكوميّ يطمحون إليها. في ذات السّياق ومنذ أعوام ثلاثة مضت؛ قامت الدّنيا ولم تقعد، حيث ندّدت منظّمات حقوق الإنسان ومعظم وسائل الإعلام الكنديّة بما اعتبروه انتهاكاً صارخاً لحقوق الإنسان، واستطاعت تلك الحملة المنظّمة إبطال مشروع قانون فحواه: على المنقّبة أن تنزع نقابها أثناء أداء القسم، وهو احتفال تقليديّ يجري لمن حصل على الجنسيّة الكنديّة. كان الحلّ المبتكر الّذي ينتصر لشرعة حقوق الإنسان أن: تؤدّي المرأة الّتي ترتدي النّقاب قَسَم الجنسيّة أمام قاضٍ امرأة بعد أن تنزع نقابها.

مشكلات ما يمكن تسميته خصوصيّة ثقافيّة ما لأيّ جنسيّة وما تثيره من التباسات وسوء فهم؛ تكاد تنعدم في الدّستور الكنديّ، وكذلك في السّياسات الحكوميّة، ولا أدلّ على ذلك من المثالين السّابقين. طبعاً هذا لا ينفي وجود مشكلات وإن كانت قليلة، ووجود بعض الّتيارات والأحزاب الّتي تحاول إلغاء تلك الرّموز الدّينيّة، واتّباع سياسة الصّهر والذّوبان، كما تجري المحاولات دائماً وخاصّة في منطقة كيبيك الفرنسيّة الّتي تحذو دائماً حذو العلمانيّة الفرنسيّة وتطبيقاتها، إنّما يبقى ما تفرزه الحياة اليوميّة من مشكلات واستعصاءات ناتجة عن عوامل مترسّبة في قاع كلّ واحد منّا، أيّاً تكن ثقافته أو جنسيّته، وبفعل عوامل ومناخات إيديولوجيّة وسياسيّة تقع خارج الأراضي الكنديّة، وتصل بتأثيراتها إلى داخلها.

يتحدّث عرب ومسلمون يعيشون هنا منذ ٢٠ و ٣٠ عاماً حول بعض التّأثيرات الّتي أفرزتها مناخات ما بعد ١١ أيلول، الأحداث الإرهابيّة الّتي

ضربت أمريكا وهذا ملاحظ جدّاً ولا يخفي على أيّ إنسان يعيش على الأراضي الكنديّة، حيث تنتشر ليلاً وبكثرة دوريّات البوليس الكنديّ، والتحقّق تحديداً من السّيّارات المارّة، وأن سائقها لم يشرب الكحول عبر فحص سريع يجرونه عندما يبدر أيّ تصرف مؤذ وخطر على السّلامة العامّة. يقولون: عندما تكتشف دوريّة الشّرطة أن السّائق مسلم أو عربيّ يبدون اعتذاراً كبيراً، وأنّهم أخطأوا، فالاعتقاد السائد لديهم أنّ شرب الكحول محرّم في الإسلام، وأنّ في سؤالهم أو إيقاف سيّارة يقودها عربيّ أو مسلم اعتداء على المشاعر الدّينيّة لهذا الشّخص.

بعد أحداث ١١ أيلول وفوبيا الإرهاب القاعديّ اختلفت الصّورة، وبات من يحمل اسماً عربيّاً أو مسلماً يجري التّدقيق معه أكثر. استمر ذلك فترة قصيرة، ثمّ زال تماماً كما أكّد كثيرون. لكن المؤسف أنّ ما تحاول القيام به الحكومة ومنظّمات المجتمع المدنيّ الكنديّة من أفعال وسياسات إيجابيّة تعزز من قيم وروابط المحبّة والتّسامح والتّعاون بين جميع البشر المقيمين على الأراضي الكنديّة؛ تبدّده بعض ممارسات الجهلة ممن يسمّون أنفسهم رجال دين؛ عبر تفسيرهم الإسلام من منطلقات ماضويّة وصور نمطيّة أضرت بالإسلام والمسلمين، يلاقيهم في الطّرف الآخر الوجه الآخر للعملة من قوميّين متعصّبين ويمينيّين عنصريّين.

يرصد الإعلاميّ السعوديّ تركي الدّخيل في كتابه (سعوديّون في أمريكا) أوضاع الشّارع الأمريكيّ بعد ضرب برجي التّجارة في نيويورك، حيث كان هناك أثناء وبعد ذلك العمل الإجرامي يتابع دراسته الجامعيّة، يروي حادثة ذات مغزى كبير، حيث الشّرطة الأمريكيّة وبعض مناهضي العنصريّة والتطرّف من جمعيات المجتمع المدنيّ كانوا يحيطون بمسجد في أحد الأحياء الأمريكيّة وقت صلاة الجمعة، كانوا يتحسّبون ردّات فعل غير محسوبة قد تحدث ضد المصلّين، يقول الدّخيل: (وعندما كانت الشّرطة الأمريكيّة في الخارج تحاول

حماية كلّ الطّرق المؤدّية إلى المسجد، كان الخطيب في الدّاخل يشرع يديه إلى الله بالدعاء: اللهم رمّل نساء النّصارى، ويتّم أولادهم...، وكانت جموع المصلّين تردّد وارءه: آمين!)

فانكوفر- نشر في موقع "رصيف" الإلكتروني

كلمة أخيرة

في الكتاب القادم:

هذه اليوميّات ستستمرّ، تحاول رصد كلّ ما هو جديد عبر محاولة تشبيك الخاصّ مع العام، علّ هذه التّجربة الشّخصيّة تقدّم ما هو مفيد وممتع، وفي القادم منها سأحاول الدّخول بعمق أكثر إلى جوانيّات المجتمع الكنديّ، إلى عاداته وتقاليده، مؤسّساته ونمط التّعليم فيه، والكثير من التّفاصيل الصغيرة.

سأتجنّب "التّحليل الجامد" حيث ربّما وقعت فيه في هذا الجزء، وسأقدّم التّجارب بكلّ عفويتها وتلقائيّتها، وسأترك لكم معاينتها كلّ حسب الزّاوية التي يرتئيها.

في الجزء القادم سأكتب عن أمريكا التي رفضت استقبالي للمرّة الثّانية. المرة الأولى كانت في عام ٢٠٠٣ بحجّة أنّي شيوعيّ كما أسرّ لي المحقّق المصريّ. في المرّة الثّانية كنت أريد السّفر برّاً إلى مدينة سياتل التي لا تبعد سوى ساعتين ونصف عن فانكوفر لاستقبال خطيبتي رائدة دعبول - زوجتي الآن - حيث قرّرنا آنذاك تمضية بضعة أيّام من "شهر عسلنا" هناك، لكن "السّيّدة أمريكا" رفضت منحي "فيزا الدّخول" رغم امتلاكي وثيقة سفر كنديّة وإقامة دائمة، دون إعطائي أي تبرير للرّفض. فيما بعد سافرت مرّات كثيرة إلى أمريكا، وكان ذلك بعيد حصولي على الجنسيّة الكنديّة. كنت أنظر إلى جواز

سفري الكنديّ وأخاطبه بسخرية: (لم يعودوا يدقّقوا في هويّتي وأصولي السّوريّة. هم يحترموك أنت، ولا يعيروني أدنى اهتمام).

ستقرأون الكثير عن كندا وأمريكا بكل الصّدق والعفويّة. لن أتدّخل في الأحداث إلاّ بما تقتضيه اللّغة والصّياغة، سأتركها هي لتتحدّث. وهذه واحدة من صفحات الكتاب القادم:

محمد وأوباما والمثلية الجنسية

عندما غرّد أوباما على تويتر (الحبّ ينتصر)، بعد إقرار حق المثليّين جنسيّاً بالزّواج في كلّ الولايات الأمريكيّة. كاد محمد أن يقع في شرّ أعماله، وربّما كنّا سنطلب له قسم النّجدة التّابع للبوليس الأمريكيّ!

أيّام قليلة بعد ذلك القانون المثير للجدل؛ كنت ومحمد سفّان وصدّيق أحمد في طريق عودتنا إلى ڤانكوڤر بعد أن سهرنا حتّى منتصف اللّيل في إحدى البلدات الأمريكيّة القريبة من مدينة سياتل.

قبيل دخولنا الأراضي الكنديّة بحوالي خمسة عشر كيلو متر تقريباً جذبتنا أضواء أحد الكازينوهات الواقع غير بعيد عن الطّريق الدّوليّ، ولأنّ محمدًا هو الشّيطان الّذي يوسوس لنا دائماً؛ صرخ بجذل عالياً:

(انظروا، كازينو رائع)، ثم انتبه إلى شيء آخر وقد تلألأت أنواره، مكتوب على لوحة إعلانيّة ضخمة: (أيضاً مسّاج). بتعابيره الطّفوليّة البريئة بدأ يلّح علينا بالدّخول. ولأنّ وسوساته تقع علينا بالرضى مرفقة ببعض الممانعة؛ انحرف صدّيق بسيّارته قاصداً الكازينو الّذي تسكنه كلّ الشّياطين الجميلة.

خرجنا من الكازينو مع خيوط الصّباح الأولى. لم أعتد وصدّيق هذه الخسارات المُرّة. محمد (خذّه معلّم على الصّفع)، وفي دفاتره خسائر كثيرة. كنت أحمل في جيبي أربعين دولاراً كندياً، وخمسة وثلاثين دولاراً أمريكيّاً.

خسرتها كلّها. خسر صدّيق خمسين دولاراً أمريكيّاً. محمد خسر ما يساوي خسارتنا نحن الاثنين.

قبيل أن نغادر؛ كان الجوع قد نال منّا. في إحدى زوايا الكازينو مطعم صغير يقدّم البيتزا وبعض الوجبات السّريعة. جلسنا إلى طاولتنا ننظر إلى بيت النّار وهو يُنضج بهدوء ما طلبناه من بيتزا، ونار أشدّ تضطرم داخلنا. محمد - ورغم خساراته - كان أكثرنا مرحاً. على يميننا جلست فتاة بدينة ومعها فتاة أخرى، هكذا اعتقدت. لها قوام فارع وتضع نظارات طبّيّة، وشعر أثنويّ يصل إلى منتصف الكتف. لم أدقّق فيها إلاّ بعد أن غادرنا محمد ورأيناه يضحك معها بصخب. قال لي صدّيق: (صديقنا علق). سألته: (لماذا؟).

لا أدري كيف اكتشف صدّيق جنس هذا/ه المخلوق. قال لي: (لها قضيب). عندها بدأت أدقّق في الوجه الّذي بدا لي صارماً، والعينان الحادّتان، رغم مسحة الجمال الأنثويّ الّتي أغرت محمد بالذّهاب إليها.

عاد محمد إلينا ووجهه مصطبغ بحمرة قانية. سألناه بتلهّف وبصوت واحد صدّيق وأنا: (ها ماذا كنتما تتحدّثان، وماذا قالت لك؟). ضحك محمد والدّهشة كانت لا تزال مرسومة على وجهه: (قالت لي لديّ مثل ما لديك، إنّما إن أردت سأبسطك جيداً وأجعلك تسترخي وترتاح، بالمقابل تفعل لي ما أفعله لك).

عندما وصلت سيّارتنا الحدود الكنديّة؛ كنّا الوحيدين هناك، سألنا الضّابط المناوب الأسئلة التقليديّة: (أين كنتم، وكم من النّقود "الكاش" معكم؟) أجابه صدّيق بصدقه الزّائد عن اللّزوم أنّنا سهرنا في أحد المطاعم، ودخلنا كازينو سيلڤر ريڤ، وتابعنا بصوت واحد: (لا نملك أيّ دولار). نظر إلينا الضّابط من الأسفل إلى الأعلى، ومن الأعلى إلى الأسفل. أمرنا بالمغادرة، ولسان حاله ربّما يقول: (حمقى، الله لا يردّكم).

يتبع...

المحتويات

الإهداء

شكر خاص

مدخل

ما هدف الدّورة؟

يا لذاكرتي المثقوبة، كيف أفرّغ محتوياتك بلا ألم

بيروت – فرانكفورت – ڤانكوڤر

القسم الأول

الطريق إلى كندا

الفصل الأول

أمي التي قتلتها

العطر الذي ضيّعني

القرار الصّعب

الهروب إلى لبنان أواخر ٢٠٠٢

بيروت

انكشاف أمري والاعتقال

اكذب اكذب وستحصل على اللّجوء

العراقيّ الّذي قطع الفرات سباحة وأشياء أخرى

الفصل الثاني

١٠٠ يوم في الكويت

المصائب لا تأتي فُرادى

البعثيّ المخمور في شوارع هافانا

لقاء السّفير السّوريّ علي عبد الكريم

الجزيرة واتّجاهها المعاكس

أسوأ ليلة في حياتي

وسادة أخرى وبيت جديد

المروحة اللعينة

الكويت – دمشق – حلب

الفصل الثالث

مسقط الرّأس

سوريا والذّهاب إلى الوراء

الذّهاب والإياب من وإلى المقبرة

الفصل الرابع

حلب الّتي كانت تهرم

معلم وكيل

في جيش(أبو شحّاطة)

عون والجنديّ السّوريّ الذي قتل قائده

بروباغندا إعلاميّة متبادلة

القرار الصّعب والخاطئ

فضائيّة خديج

لقاء من بيروت

اللّقاء الأوّل... المسمار الأوّل

فساد آل خدّام، الانفصام، الاستقالة

الخوف عمودُ أنظمة الطّغيان؛ متى سقط سقطوا

جديتا وجونيه واللاّعنف

أمريكا لا تستقبل الشّيوعيّين

قبّ إلياس وفرن الكعك وزيّاد ماجد

وساطات

القسم الثاني: في كندا

الفصل الأول

اليوم الأول

البدايات Welcome House

في قلب ڤانكوڤر والخطوة الأولى

عندما تهت في ستانلي بارك

حقوق وواجبات وثقافة التّطوّع

غربة روح وسجن

الفصل الثاني

أنا مسلم

عثمان

صلاة العيد

خارج النص

قمع اللغة

شقراء الكوميرشال وفجوات اللغة

الفصل الثالث

إلى المدرسة لكنّي لا أفهم شيئًا

لا تكن عنيدًا

منى واصف والنّظرة النمطيّة

عندما التقيت مأمون الحمصيّ مصادفة

عثمان والقادمون من بلاد السّهر

الحمصيّ ثانية

الأمور إلى أسوأ والبيت صفيح ساخن

مأمون مختلف عن المرة الماضية

الفصل الرابع

يوميّات الثورة - أطفال درعا حديث العالم

الشّعب السّوريّ ما بينذلّ

كرة النّار تتدحرج

وعود بثينة وإصلاحات بشّار

الطّائفيّة، العمالة للخارج، المؤامرة

أجهزة الأمن لا تسلّم جثامين الشّهداء

الفصل الخامس

هقّال - المهديّ المنتظر في ستاربكس

كندا تستعيد منّي ثمن التّذكرة

الفصل السادس

هاملتون ٢٠١٢,٧,٣١

حيدر عبد الجبّار

التّاجر البغداديّ والتّاجر الدّمشقيّ

في محطّة البنزين

عندما أسْهَل الكنديّ

الفتاة السّوريّة

معسكر رفحاء

القسم الثّالث: يوميّات متناثرة

إلى جانبي إسرائيليّ

الحبّ في اليوم العاشر

عائد من كندا إلى سوريا جديدة

ليلة عند الجيش الحرّ

الطّريق إلى الرّقّة... عند حاجز الفرقة ١٧ توقّف قلبي

كنت هناك حين سقط الطّاغية

تحرير الرّقّة

الله موجود في كندا

الكورد وعطش الأسنلة

عن صراعات المهاجرين وأبنائهم في كندا

وكانت جموع المصلّين تردّد وراءه: آمين!

كلمة أخيرة

محمد وأوباما والمثليّة الجنسية